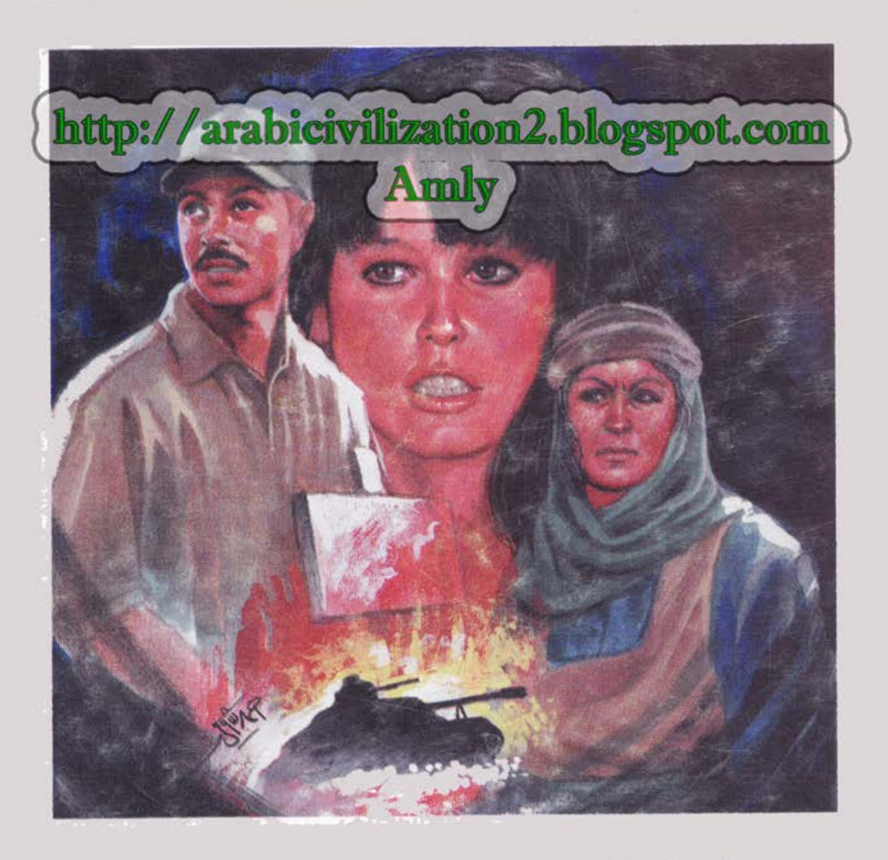
روايات الهلال

خيرى الذهبى



لو لم يكن اسمها فاطمة

العدد ٦٧٧ - مايو ٢٠٠٥ - ربيع ثان ١٤٢٦هـ

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهماً - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات ..

عنوان البريد الإلكترونى :
darhilal@idsc. gov . eg

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.
تلكس :
Telex 92703 hilal u n
فاكس :
FAX 3625469

لو لم يكن اسمها فاطمة

بقلم :
خيرى الذهبى

●

دار الهلال

الغـلاف للفنـان
أحمد شوقـى

١

صاعقــة !!

هتف غير مصدق. التفت الجميع إلى حيث كان ينظر، ورأوها. كانت صاعقة خلقية بشعب ثلاث كمنزاة مقلوبة. صاعقة. هتف آخر على طاولة قريبة. عاصفة. صرخ الخادم، وجمع سلمان ياقة كنزته إلى رقبته آلياً، سعيداً أن استعد لظرف كهذا، وفكر: كيف خطر له أن يحمل معه الكنزة. وتوالت الفكرة في نفسها: هذا الحرص والخوف من المفاجآت.. .. ما الذى جعله يحمل معه كنزة في جو لا يشي إلا بالحر والجفاف، بل ما الذى أوحى له وهو يستجيب إلى دعوتهم إلى السهر فى الجرداق _ المقصف أن يحمل معه كنزة.

انتصب الرواد واقفين وفيهم من استخفه المشهد، فقفز إلى سطح طاولته يتأمل عمق الصحراء. الغيوم السود يظهرها البرق، ثم تنضم إلى العتمة، فتذهب فى كلٍّ أسود، وسمع من يتمتم: علينا أن ننسحب، فالعاصفة قادمة.

لم يكترث، فلتتقدم العاصفة. ما الذى يمكن لها أن تفعل! وفى ركن خفى منه تمنى أن تحدث العاصفة، فلعلها تخفف قليلاً من الملل الذى يستنقعه. رأى الدجاجات المنتشرة بين الطاولات تفر مذعورة تبحث عن ملاذ، ورأى المظلات القماشية تتطاير، والارتباك والحيرة على الخدم يندفعون لتعديل الكراسى المنقلبة والطاولات الهاربة، ويعجزون، فالمظلات السقفية انشمرت، والمصابيح الكهربائية المعلقة عارية ترتجف فترعش الظلال والوجوه المتمازجة المتحللة المذكرة بوجوه الأحلام. كان يتأمل مجزناً نفسه على عادته التى طالما تركته على رصيف الحياة يعيش ولا يعيش، وكان أوجع ما قالته له سميحة قبل أن تغادره: الممثل يعيش بعض حياته على المسرح، مندمجاً فى الدور الذى يمثله، ولكن ما إن يغادر الخشبة

حتى يعود نفسه، أما أنت، أو أنتم الملعونون بلعنة الكتابة والإخراج اى معيدى صنع الإنسان على طريقتكم، فأنتم دخلتم دور المراقب، والمتأمل لما يجرى من حولكم، ثم نسيتم أن الممثل يخرج من دوره حين ينزل عن الخشبة، فانغلق الباب، ونسيتم الخروج، ثم أكملت وهى تضع معطفها على كتفيها العاريتين: كنت أعتقد أنى سأستطيع بحرارة الحب أن أخرجك من دور المراقب إلى حياة الإنسان -واستدارت لتمضى- ولكنى أظن أنى أخفقت.

لم يكن خروجها من حياته مفاجأة، فلقد اعتاد منهن هذا الخروج. كن يهجمن عليه يتوقعن الدفء المنبعث من الكلمات، ولكنهن ما إن يصطدمن برجل الكلمات حتى يكتشفن أنه قد حنَّط الإنسان فيه بالكلمات، كان فى واحدة من نوبات غيظه قد كتب مقالاً تنكَّر فيه، فحدَّث عن آخر بأنه الدودة تغزل الحرير، ثم يخنقها الحرير. فيسعد الآخرون بنعومة الحرير، وتموت الدودة مختنقة بعبء الحرير.

هتف يوسف: مطر. وأحس بالقطرات الكبيرة، لم تكن كقطرات مطر المدينة ناعمة رخية مهذبة تتسلل بهدوء إلى عمق الروح، لكنها كانت قطرات وحشية، عملاقة، صافعة تلطم الطاولات وستائر مظلات السقف فتقرقع لاطمة الوجوه والكراسى المنقلبة، أخذ خدم المقصف يتصرفون فى غضب وهم يعيدون الطاولات إلى مواقعها. فتساءل: ما الذى يغضبهم؟

قوقأت الديوك الشابة مذعورة وهى تتلطى وراء هذا العمود أو ذاك البرميل. وكانت تخادع غريزتها وتظن أن ما يجرى واحد من الألعاب البشرية، ولكن العاصفة اشتدت، والمظلات انفصلت عن حواملها، ووجد يوسف ينتصب فانتصب لا يعرف لماذا، ولكنه وجد الجميع ينتصبون، ويسرعون إلى كوخ الإدارة المجاور للمشواة الضخمة انتشر عليها الحطب المشتعل وأسياخ قطع اللحم المشوى مع البصل والكباب.

اندفع مع من اندفع إلى الكوخ يحتمى من الوابل الغاضب. وفجأة اندفعت قرقعة قريبة عنيفة، وانقطع التيار الكهربائى على إثرها، وعمّ الظلام، وتحول يوسف ورئيس المركز الثقافى، ورئيس نادى السينما، والزبائن جميعاً إلى أشباح لا يكاد بصيص الجمر المشتعل فى المنقل الداخلى المعد لتجهيز جمر الأراكيل

بحلوهم.

هاجمته رائحة البصل المشوى المختلطة برائحة الدهن المشوى، فتحركت شهوة أخذت تعرم فيه، كادت تدفعه إلى حيث المشواة، يهدئ.. هذا الجوع المفاجئ بلقمة، ولكن أى جوع ولم يمض على غدائه ساعتان، فما هذا الجوع الكاذب، وقفزت كلمة القَرَم، تلك الكلمة التى سعد حين اكتشفها أثناء واحدة من قراءاته، (القَرَم).. قارن هذه الكلمة بكلمات مشابهة فى لغات عرفها، وفى لغات لم يعرفها، فسأل عنها، ولكنه اكتشف سعيداً أنها كلمة عربية لا مثيل لها فى لغات العالم. القَرَم.. إنه الشهوة إلى اللحم، الجوع إلى اللحم ولا شىء آخر، القرم. إنه ليس الجوع، وليس النهم، وليس الجشع، وليس للجلوعة وليس الفجعنة.. إنه القَرَم، وابتسم ابتسامة سعيدة. أنا الآن قَرِم.

قرقعت حبات البَرَد الكبيرة القوية تضرب السطح الصفيحى هكوخ، فارتعد أكثر المتجمعين فى الكوخ _ الإدارة، وسمع صرخات الذعر المفاجئة، تمنى لو يستطيع رؤية هذا التعبير على وجوههم. إنه فى حاجة إلى هذا التعبير العفوى، هذا التعبير المباشر دون أمر، دون إرشاد، دون رغبة مسبقة بأن يرى الذعر من ضربات البَرَد على وجوه ممثليه الثانويين، بل الرئيسيين، ولكن الظلام حرمه من هذه الفرصة، وعاد ثانية إلى القَرَم يحاول الهرب إليه من خيبة التقاط الخوف، المفاجأة، الاضطراب، الذعر الأولى، الذعر الذى أصاب الإنسان عند سماعه ضربات السماء الأولى.

و.. انتبه إليه.. كان يقف خارج الكوخ. يتجه إلى السماء الحاصبة، السماء القاصفة، السماء تضرب بحجارتها. انتبه إليه يشرع ذراعيه باتجاه السماء، راجياً؟ .. متوسلاً؟.. طالباً الغفران؟ ولكن الضحكات انثالت من حوله، كان الجميع سعداء لما يفعل، وكان صوته مشتبكاً بحصباء السماء، بارتدادات السطح الصفيحى، بانتثارات المياه التى تحولت إلى برك صغيرة فى الباحة التى كانت مقصفاً. وانفجرت لمعة برق قوية أضاءت وجهه الغاضب وذراعيه المشيحتين، لا.. لا يمكن، الرجل لا يتوسل، ولا يطلب الغفران.

التفت إلى يوسف، الصديق، المصور، المرافق، الدليل إلى المدينة الميتة، عبر

مدينة البلوك، فوجده يبتسم، وتمتم سلمان: ما .. ما .. ما الذى يجرى..

واكتفى يوسف بهزة كتف وهو يقول: إنه أبو الشيما .

٢

أبـو الشـيما

تقلب فى سريره مسللاً الوعى إلى عقله دون أن يفتح عينيه. تقلب يتسمع إلى صوت عصافير الصباح، ولكن لا صوت لعصافير الصباح. وتوتّر وعىٌ قليل فيه، أدرك دون أن يفتح عينيه أنه ليس فى سريره، فى البيت الصغير، فى القبو الصغير، فى الحى الصغير الذى يعيش فيه منذ عاد العالم بمجلد المخرج السينمائى السليع فى الأضواء، والمؤتمرات الصحفية، والمهرجانات، والجوائز.

تقلب فى سريره حين لم يسمع صوت عصافير الجار هاوى تربية العصافير الذى يسكن فى طابق فوقه، والذى دأب على نفخ قشور حب طعام العصافير لتستقر فى الباحة، الحديقة، قاع البئر المسمّى بيته. احتج مرات عديدة، ولكن الجار كان مصمماً، فاستسلم، وقال لنفسه: ثمن سماع صوت العصافير هو كنس قشور حبِّها، لا بأس. واستسلم، فلم يكن من عادته الشجار، ولم يكن من رغبته الشجار، ولم يكن بالقادر على الشجار، فصمت

تقلب فى سريره دون أن يفتح عينيه، وأدرك فجأة أنه ليس فى بيته، بل هو فى الفندق الصغير للمدينة التى سمُّوها واحدة من المدنِ الميتة.

فجأة خرج باندفاع من ترنيقه، فتح عينيه، وانتصب فى سريره. راقب البطانية المحايدة، والخزانة الصغيرة، وتذكر – وهو لا يدرى كيف تندفع الأفكار فى رأسه دون ترتيب _ أنه لم يخرج ثيابه من حقيبته بعد. أكان يعدُّ لرجوع سريع، أفلم تغره المدينة ببلوكها القبيح وطرقاتها المتربَة. كان قد تعاقد مع محطة فرنسية لإخراج عدة أفلام توثيقية عن المدن الميتة فى شمال سورية، مدن كانت عامرة بالحياة والأسواق والمعابد وطرق التجارة، ثم توقف كل شىء، ولم يتبق من كل تلك الحياة إلا أعمدة ضخمة، وكاتدرائيات، أو معابد لو أصغيت جيداً لسمعت أصداء

التراتيل ما تزال تتردد بين جنباتها، ولكن العين لا ترى إلا الرخام المجزع فى الأعمدة، والتيجان الكورنثية المائلة بعد الزلزال على الأرض.

كانت المعالجة التى قدمها للمحطة مؤثرة حقاً، وكانت مخلصة، فسلمان كان متعلقاً كثيراً بتلك الفترة الذهبية، فترة امتزاج الحضارات دون ترفُّع حضارة على أخرى، أو ابتذال من حضارة لأخرى. إنها الفترة الأزهى فى تاريخ البلاد.. الهلينستية.. كما كانوا يدعونها.. كانت المعالجة رسالة استنجاد، رسالة تقول للمحطة الفرنسية، نحن ننتمى لحضارة واحدة، حضارة متوسطية، اعطت أجمل ما عرفته البشرية من فلسفات، وأشعار، وفكريات عن زمن الإنسان الذهبى، ثم.. جاءت - كما سيذكر فى معالجته - البيزنطية - ليبدأ تاريخ القسر والقهر واعتداء الإنسان على الإنسان تحت اسم المعتقد الواحد.. والرغبة فى توحيد العالم تحت راية واحدة.. أكان يغازل القائمين على المحطة معلناً بأنه متوسطى؟ أم أنه كان يعلن احتجاجه على البيزنطية الجديدة تحت اسم الحزب الواحد.

لم يكن يحلم بهذه الموافقة السريعة، ولم يكن يحلم بهذا التمويل السخى.. ولكنهم وافقوا، وصرفوا له سلفة كبيرة تموّل استعداده لوضع السيناريو التقريبى للفيلم الأول.

تأمل النافذة مسدلة الستارة، ورأى النور الحليبى يتسرب منها، وأدرك أنه قد تأخر فى نومه حين لم توقظه العصافير.

اهتزت الستارة مع قرقعة سيارة عابرة، فاندفع سوط من نور قبيح قاس صحراوى عار دون خجل يصفع عينيه، و.. .. رأى البرق ثانية، البرق ينير وجه أبو الشيما وهو يلوِّح بذراعيه إلى السماء. كان وجهاً غاضباً متحدياً، ثائراً، ساخراً، وكان قطيع من الأصوات يغطى على ما يقول: الرعد البعيد، وحبات البَرَد تلطم السطح الصفيحى، بقبقات الماء المستجيب للمطر وحبات البَرَد فى البرك الصغيرة فيما كان باحة المقصف. رأى الوجه الأسمر القاسى واللحية لم تحلق ليومين، سوداء لم يتسرب إليها الشيب. كانت نظرة العينين، فى محجريهما المغضونين، وقسوة الملامح تبدى أن الرجل فى كهولته الأولى، ولكن لون شعر اللحية والشاربين كان لوناً لفتى لم يجاوز العشرينات، وحين سيعترض يوسف على

ملاحظاته هذه، ويتساءل كيف استطاع الاحتفاظ بكل هذه التفاصيل للمحة واحدة، وهو لم ير صوره في الكاميرا بعد، سيبتسم في ثقة: إنها عين المخرج الكاتب المدرب على التقاط التفاصيل، زاده لقابل الأيام.

أحدّ النظر يحاول اختراق الظلمة. كان يريد رؤيته ثانية، يريد رؤية تلك النظرة الغاضبة، والتلويحة المتمردة، ولكن كل ما رآه انتثار أضواء صغيرة من بقبقات الماء المصطفقة مع حبات البَرَد لتندفع نثرات ماء تعكس نوراً بعيداً. من أين جاء ذلك النور؟

كان يحدق في الظلمة، وكأنه يأمرها بالانقشاع، وبهدوء تمنى لو يسمع ما يقوله الرجل الغاضب وساخراً أدرك سلمان أنّ فيه شيئاً من ساحر لأنه ما إن تمنى أن يسمع ما يقول الرجل الغاضب حتى توقف كل شيء، كل صوت آخر توقف الرعد، وتوقف عزيف البَرَد على السطح الصفيحي، وتوقفت البقبقات، وانطلق صوت الرجل الغاضب يلعن ويشتم، ويجدّف في وقاحة لم يكن سلمان يتوقعها في هذه المدينة التي خرجت من موت ملعون لتصبح هذه البيوت الهجينة من طوب عارٍ وطرقات مترِبة، كان يخاطب السماء، والملائكة يتحداها: لماذا تخالفين النواميس؟ ما الذى جعلك تقصفيننا بمطرك وبَرَدِك؟ والخريف ما كاد يبدأ، لماذا تخربين موسمى، وتهرّبين زبائنى وتطفئين نارى؟

كان سلمان يستمع فى تسلية حقيقية، وهو يرى ويسمع هذا الحوار الغريب من وثنى يخاطب ربه الوثن يعرف أنه يسمعه، وله عليه حق الاستجابة. لم يكن يخاطب الرب الكونى المفارق، بل كان يعاتب ربه الشخصى. كان سلمان يتسمع فى دهشة ونكر.. فجاة الشاعر كافافيس فى أشعاره السورية، فضحك.. ومثل هذا الثور ينتمى إلى أولئك الناس الرقيقين من شعرٍ، ونحتٍ، وتأمّل مدهوش للعالم؟

تغيّرت لعنات أبو الشيما إذ تحوّل فجأة من التجديف على السماء إلى التجديف على الأرض إذ أخذ يلعن أميركا وقنابلها، وصواريخها، ويورانيومها المنضّب الذى خرّب الحياة التى ألفوها وألفتهم.. وازدادت دهشة سلمان: الرجل مسيّس.

كانت النبرة تعلو، واللعنات تنفجر. وكان الرجل يزداد حماسةً وغضباً، وفجأة أخذ يدبك.. أخذ يرقص وهو يحدو، أخذ يرقص مندفعاً يضرب الأرض بقدمه، فيندفع نثار من ماء وطين وغضب.

كانت الكهرباء قد عادت منذ قليل، وكان ظل الرجل الطويل يغطي نصف الساحة المقصف، وكان انغمار سلمان في مشهد الرجل المجدِّف، اللاعن، الراقص قد أنساه أن ينتبه إلى عودة الكهرباء إلى المصابيح المنثورة في باحة الشرداق - المقصف. كان انغماره قد أنساه أن يرى اختلاف المشهد بين قامة طويلة شبحية ملوحة بذراعين إلى السماء تلعن وتجدف، وبين رجل في جلباب دُسَّ جانبه تحت السروال ليمكنه من سهولة الحركة وهو يدبك ويحدو.. وانضم إليه واحد، ثم واحد، ولكن أبو الشيما كان الأول والقافز والحادي.

أنصت متلهفاً يريد سماع ما يحدو به، يريد فهمه، وانتبه إلى أن أصابعه كانت تبحث ملهوفة عن قلم تسجل به ما يسمع. وتوقف ساخراً: سلمان. ما الذي تفعله. ما الذي تفعله؟ عش كما يعيش هذا الرجل، اقفز إلى الساحة كما قفز هذان الآخران. ادبك كما يدبك، واحدُ كما يحدون. عش لحظة الفرح، عش لحظة الاندغام مع الطبيعة، مع فرح الإنسان في أن العاصفة انقضت. و.. تمنى لو يفعل، ولكن ساقيه كانتا مكبلتين، مربوطتين، ممتنعتين على المشاركة في الرقص والحداء، أو التجديف أو.. .. يا إلهي.. .. وقفزت سميحة أمامه تقول: أنتم أيها الملعونون بلعنة الكتابة دخلتم دور المراقب والمتأمِّل لما يجري في العالم، ثم نسيتم الخروج من هذا الدور، فانغلق عليكم.

قرر أن يتحدى هذا القدر، فتقدم إلى الأمام، ولكن يد يوسف قبضت على كفه: ماذا تفعل أستاذ سلمان. ماذا تفعل.. ستلطخ ثيابك بالوحل.

وانتبه إلى رشاش الماء تثيره الأقدام تضرب الأرض، وإلى نثار الوحلَ يلطخ الطاولات والكراسي وثياب الدابكين الحادين،.. ونظر إلى عيني يوسف في ارتباك، وأحس أنه مخطئ وأراد أن ينسحب إلى الكوخ ثانية، ولكن لماذا، والمطر توقف، والكهرباء عادت والشواء يثير الدخان ورائحة البصل المشوي والدهن المثيرة للقرم. وتذكر هومير وحديثه عن الآلهة القرمة لرائحة الدهن، وتذكر التوراة وحديثها عن

يهوه المتقرم لرائحة الدم والدهن المحروق، فقال: أنا قَرِمٌ كآلهة هومير والتوراة، ولكنه في اللحظة التي أعلن إعلانه هذا انتبه إلى قفزة متطاولة بذراع تحمل سبحة إلى السماء كان أبو الشيما يحاول الطيران، كان يقفز وهو يطلق صرخة ثاقبة تشبه صرخة نئب تحاصره أضواء المدينة، ورائحة اللحم المندفعة منها، والجوع السائط.

الصرخة.. إنها صرخة.. صرخة.. واكتشف فجأة أنها صرخة زوربا، فهتف: أعوذ بالله إنه زوربا الشامي.

جرع جرعته الأولى من فنجان النسكافيه،وابتسم وهو يتأمل العدة التي كان قد هيأها منذ أمد طويل لرحلات لا يزيد تغيير عاداته فيها، غلاية الماء الترموس، علبة النسكافيه، وأكياس الطيب الصغيرة.

ابتسم في فخر. إنها المرة الأولى يستعمل هذه العدة، فلقد تناثرت أسفاره منذ زمن.. تناثرت منذ فقد الأمل في حضور المهرجانات نجماً، أو مشاركاً، أو حتى عضواً إدارياً. فلقد كان حظه أن لم يستطع أن يعمل لدى المؤسسة الوحيدة للإنتاج السينمائي في البلد. ولما كانت السينما قد جعلت حكراً على المؤسسة الرسمية الوحيدة، فتوقف القطاع الخاص مكرهاً، أو هارباً إلى العمل التلفزيوني الأكثر رواجاً وربحية، فقد وجد نفسه على الرصيف في ذلك البيت الصغير، في القبو الصغير، في الحي الصغير، يقرأ، ويحاول كتابة نصوص يحلم بتنفيذها يوماً.

كان يتأوه حين يرى فيلماً جيداً. ويقول لسميحة: كان يمكن أن أكون مخرج هذا العمل، ثم يتأوه ثانية، ولا يجرؤ على قولها، فلقد سخرت منه بما فيه الكفاية حين كان يقول: ولو أني أخرجته لأضفت إليه في هذا المقطع مزيداً من التوتر، أو في ذلك المقطع مزيداً من التشويق، أو مزيداً من الرومانسية. ثم يفصِّل مستغرقاً في الحديث دون أن ينتبه إلى علائم الملل والتعاطف الحزين على وجهها، ولكنه بعد عدة ملاحظات سرّبت فيها تعاطفها السئم بين ثنيات المزاح أدرك أنه يتحول إلى ما كان أهل الحارة يجعلونه سخريتهم حين يطلقون على من يثرثر إلى من لا يسمع: إنه كالمرأة المطلقة، وعرف أن على المطلقة أن تكتم أساها.

جرع جرعته الثانية حين سمع نقراً على الباب، فوضع الروب دوشامبر على بيجامته - تقليد احتفظ به منذ كان يتوقع أن يكون المخرج الكبير - وفتح الباب وكان سلمان الذى أخذ يبدى احتجاجه على نومه المبكر، وعلى يقظته المتأخرة مباشرة. ولكن حين صب له حسن فنجان نسكافيه، ورأى الدهشة الخفيفة على وجهه لقدرته على الحفاظ على وسائل راحته حتى فى السفر أدرك أنه قد حصل على مكافأته.

أخرج يوسف كاميرته الفوتوغرافية الجديدة والتى كانت فخره ولعبته الجديدة، تلك الكاميرا التى كان لا يتردد فى الإعلان عن سعرها كلما أراها لمن يرغب فى الفرجة عليها: إنها كاميرا رقمية، وتستطيع التصوير فى العتمة. إن فيها تقنية الأشعة تحت الحمراء، ثم يبدأ بعرض الصور التى كان قد صوّرها بها، يبدأ بعرضها على شاشة الكاميرا الصغيرة، ثم يبدأ ألعابه البهلوانية، فهو يقرب الصورة فى زوم خاص بها، يقرب الصورة حتى التفاصيل الصغيرة، فتحة الأنف، أو الثؤلولة إلى جانب الأذن، وكان يغرم كثيراً بالتركيز على الأيدى والأصابع. كان مفتوناً بالأصابع.. وكان يقول تستطيع أن تفهم الشخص من أنامله فى الكاميرا، وحين كان أحدهم يعترض: ولكن لم.. تحديداً فى الكاميرا؟ كان يقول: فى الحياة الأصابع مخادعة تثرثر وتتقنع، وتختفى فى الجيوب، وتحت الأكمام، ولكنك حين تأسرها فى الكاميرا، فأنت تسرقها من محيطها، وتحولها إلى موضوع تستطيع تأمله بهدوء، تستطيع التقرّب منه دون أن يهرب، أو يتقنع. تستطيع التعرف على الجراح الصغيرة فيها، على الندوب الملتئمة وما تحمل من تاريخ، تستطيع مراقبة الأظافر المهملة، والمعضوضة، والمعتنى بها حتى التدليل. ثم يضيف فى انتصار: هل تستطيع أن تفعل ذلك فى الأصابع - وكان يسميها أصابع حين يصبح محايداً معها، أما إن أراد التعامل معها مخلوقاً مدللاً، فكان يسميها بالأنامل _ وهى تعيش حياتها خارج الكاميرا.

وضع يوسف فنجان النسكافيه الكبير على المنضدة المجاورة، وشغّل كاميرته الرقمية، وأخذ يتأمل الصورة فيها فى افتتان، ثم نظر إلى سلمان، وقال: انظر. ووجّه الكاميرا إلى حيث سلمان. أترى هذه الحيرة على وجهك. لماذا.

نظر سلمان إلى وجهه فى شاشة الكاميرا الصغيرة. رأى الحيرة المشوبة بشيء من الذعر، وأدرك بسرعة أن الصورة أخذت بالأمس، فى المقصف، وخلال عاصفة البرد. وقفز إلى الذاكرة أبو الشيما. فقال متهوراً: أرجو أن تكون قد صورت زوربا.

وضحك يوسف: زوربا؟ من؟

واستدرك سلمان: آه.. عفواً أقصد أبو الشيما. وضحك يوسف، وهو يعبث بالزر مقلباً الصور إلى حيث صورة أبو الشيما، وفاجأته الصورة الأولى. إنها صورة أبو الشيما وهو يقفز إلى السماء ملوِّحاً بكفه حاملة السبحة، تلك القفزة الأشبه بالطيران. قال وهو يعيد الكاميرا إلى يوسف: أريد الزوم على وجهه. وقرّب يوسف الصورة إلى وجه أبو الشيما ليتبدى وجه عجيب، فيه قسوة بدوية و.. ، و. نشوة روحية عجيبة كانت تغطى فى الوقت نفسه الوجه البدوى الغائب. كانت العينان مفتوحتين حتى ما قبل البياض الكامل. لم تكن العينان تنظران إلى الخارج، إلى المقصف، إلى الدابكين، إلى الحادين. بل كانت نظرة فيها الكثير من الذوبان، من المتعة الداخلية.. من.. من الصوفية

قال: يوسف انظر.. وحرّك الصورة مبتعداً بها عن تفصيل زوم الوجه إلى صورة متوسطة ليتبدى أبو الشيما وهو يقفز عن الوحل، ونثار من الوحل المضيء ينتثر من حوله، والجلابية البيضاء المنقوشة بنثار الوحل الرصاصى تلوح كشراع وقد علقت إلى تكة السروال. كانت الجلابية قد تحوّلت إلى شراع يحمل أبو الشيما إلى السماء التى يطير إليها، وقال سلمان: أرأيت.. أرأيت..؟ إنه يحاول الطيران. صحيح أن قدميه غائصتان فى الوحل، ولكن انظر. وعاد بالصورة إلى زوم الوجه.. أترى محاولة الطيران هرباً من الوحل.

أبعد الكاميرا عنه، وقال: إنه رجلنا. إنه زوربا، ولكن ما فاجأه كان اعتراض يوسف الساخر: أستاذ سلمان. وهل قدمنا إلى هذه المدينة نبحث عن زوربا.. المحطة الفرنسية تريد المدينة الميتة، ولا تريد زوربا.. زوربا.. استهلكه كازانتزاكيس منذ زمن طويل، ولا فائدة من استعادته. باخت فجأة حماسة سلمان. وأدرك أن يوسف يقول ما كان يعتمل جزئياً فيه، وإن لم ينضج ليخرج إلى العلن.

صب سلمان لنفسه فنجاناً جديداً من القهوة يشغل نفسه عن الحديث مع يوسف المنغمس فى لعبته الرقمية بينما تحوَّل سلمان إلى مواجهة مع النفس.. كانت واحدة من أزماته التى يعرفها، ميله إلى نمذجة الناس، وكان يعرف أن هذه إشكالية عليه أن يتجاوزها، كان يصنف من حوله ذهنياً، فهذا الشاب مشروع راسكولنيكوف، أما هذه المرأة فليست إلا آنا كارنينا، وحين سمّى واحدة من صديقاته غادة الكاميليا وسعدت بهذه التسمية فترة، ولكنها حين عرفت أن غادة الكاميليا عاهرة أخلصت للحب، وماتت بالسل الحبى هجرته بعد أن قصفته بوجبة من الشتائم، ولكن هذا الطبع كان أصيلاً فيه، كان لا يستطيع رؤية الناس إلا من خلال نماذج أدبية رآها فى السينما، أو قرأ عنها، وها هى المرة الأولى يواجهه فيها شخص ما ليقول: زوربا استهلكه كازانتزاكيس، ولا فائدة من استعادته.

وقبل أن يتابع كان يوسف يدفع الكاميرا الرقمية أمامه: انظر.. ونظر.. كانت أصابع.. لا.. أنامل أبو الشيما تحمل السبحة المقنوفة إلى السماء مع اندفاعة جسده الطامح إلى الطيران. كانت الأصابع _ وهذا ما أدهشه تماماً _ أصابع ناعمة ليس فيها عقد أصابع الفلاحين، ولا تقصفات أظافر الرعاة، ولا الأصابع الغليظة العَضِلة للعاملين بالمهن اليدوية. كانت أنامل، أنامل طرية، ناعمة، ملساء، معتنى بها، أصابع..

وقال يوسف: لحام.. أنامل لحام يغرق أصابعه يومياً فى دهن الكباب وهو يخلطه مع البقدونس.. انظر.. وقلب إلى الوجه المتجهم لأبو الشيما الغاضب المجدِّف يعاتب السماء. ثم أعاد الصورة إلى أنامل الفنان الطرية، ولكنها لم تكن أصابع فنان، بل أنامل لحام طرَّاها الدهن وعصير البقدونس والبصل.

قال يوسف: أما زلت ترى فيه زوربا.

وقال سلمان: ولكن هذا التناقض بين الوجه المجدف القاسى والأنامل الطرية

قال يوسف: أصابع اللحام! الغارقة فى الدهن وماء البصل.

***

٣

كان لقاء تمنى سلمان لو لم يتم، أو لم يكن مجبراً على القيام به، وحينما ابتدر متملصاً. قال يوسف: أستاذ سلمان. هنا فى المدن الإقليمية والبلدات ممالك مستقلة، كل مدينة، وكل بلدة تعيش استقلالها، وعليك كى تسهِّل أمورك أن تقابل الملك الصغير، تقدم له التحيات، والتملقات، والوعود بالتلميع والشكر فى عملك الذى تقوم به – وتنهد – هؤلاء الناس يعيشون التناقض، ففى الوقت الذى يمارس فيه كل منهم كلَّ شروط الملك فى القدرة على الأذى الشديد، والنفع المعقول، فإنه فى الوقت نفسه يعرف بأنه مجرد موظف إقليمى، يعيش فى مدينة نائية لا محطات تلفزيونية فيها، ولا أضواء، ولا مصورين تلفزيونيين يقدمونك للعالم، ولا صحفيين يصورونك لترى صورك فيما بعد على صفحات الجرائد.

وتنهد ثانية: صدقنى. سترى جبابرة قادرين على حق الحياة والموت فى ممالكهم هذه، ولكنك إن لُمحت لهم مجرد تلميح بأنك ستنشر صورهم على شاشات التلفزيون، أو أنك ستجرى معهم مقابلة صحفية وعليها صورة متوسطة أو كبيرة لهم، فسيتحولون إلى أطفال على استعداد لتلبية أى من طلباتك. إنه تناقض الإمبراطور على جزيرة لا يعرف العالم بوجودها على الأرض. أعطه الفرصة ليعرف الآخرون هناك فى قرى الأهل، وفى حارات الأقارب أنه قد نجح وصار الإمبراطور، وسترى أى خدمات يستطيع تقديمها، وأى تسهيلات يستطيع وضعها بين يديك.

أصغى حسن إليه، ولم تكن المرة الأولى يتحدث إليه يوسف عن هذا، فلطالما أراه الساعات الذهبية، والقمصان الحريرية التى عاد بها من جولته فى المحافظات لمجرد أنه ترك كاميرته التلفزيونية لمدة خمس ثوان على وجه أمين الفرع، أو وجه المحافظ، أو مدير الناحية، بل لقد حمل إليه مرة صفيحة من السمن العربى، ولما سأله عن السبب قال: لا أعرف ما أصنع بها. حملت واحدة إلى أمى، وأخرى إلى

أختى، ولدى الآن ثلاث صفائح، فقلت أحمل إليك واحدة، وصرخ سلمان مدهوشاً: ولكن لماذا، وضحك يوسف وهو يربت على كاميرا التلفزيون: بركات سيدنا التلفزيون.

لم يكن يتمنى، ولم يكن يرغب بهذا اللقاء، ولكنه فى سعيه إلى تنفيذ الحلم الذى انتظره لسنين، سلسلة من الأفلام التوثيقية عن المدن الميتة فى سورية، مدن كانت تضج بالحياة والصلوات والمؤامرات، مدن كانت تعج بالعشاق والمخبرين ورجال السلطان، مدن تخلت عنها الحياة والأحياء فهجرت، بمعابدها وأربابها، بمقابرها وأسواقها، بأشباح احلامها، ورغبات عشاقها التى ما تزال تحوم فى المكان، كما كتب فى المعالجة التى أرسلها للمحطة الفرنسية.

كان قد زار وصوّر فوتوغرافياً تدمر، والرحبة، والرصافة، وسرمدا. ولكنها لم ترضه. قال: إنها مدن معروفة. أريد مفاجأة، أراد أن يقدم فى فيلمه الأول مفاجأة للعالم، مدينة لم يسمع بها إلا خاصة المتخصصين، مدينة سيزيل عنها الغبار والركام، ولطمات التاريخ بكاميرته، بالكاميرا فقط، بالكاميرا، وبخياله الروائى المكبوت. سيعيد إليها الحياة عبر صوت الراوى الجميل، سيقدمه مع صدى خفيف، ضمن ستوديو صوتى يوحى بتسرب الصوت عبر الزمن، سيقيم جدالاً بين صوت التاريخ، وبين يومىٍّ الكاميرا.. كان يكرر هذا السيناريو كثيراً بينه وبين نفسه يستحلب متعة الخلق بعد طول عطالة. لم يكن يتمنى لقاء المسؤولين _ الملـوك الصغار كما سمّاهم يوسف، ولكنك لتحقق حلمك لا بد لك من بعض تنازلات، وهكذا مضى مع يوسف، ومدير المركز الثقافى، ورئيس نادى السينما لزيارة أمين شعبة الحزب الحاكم الذى رحب بهم فى وقار. ذكره بقناع قيصر كما قرأ مرة عن نابليون، ثم أشار بجانب عينه إلى مدير مكتبه، فسارع إلى تقديم القهوة المرة في إشارة إلى الأصالة لا تخفى، ولم يفهم سلمان غمزة يوسف، ولكنه تابعه وهو يعدٌ كاميرته فى بطء وتأنٍّ، ثم يلوِّح بجانب كفه، وعينه على العدسة، فإذا بقناع الوقار والجلال والإحساس بالأهمية يسقط، وإذا بالسيد أمين الفرع يستجيب فى ديمقراطية لإشارات يوسف الذى أخذ يصوره، وأخذ الفلاش يلتمع، ولم يكد ينتهى من تصويره حتى كانت سيارتا رانج روفر، وبيجو تحت تصرفهما خدمة للعلم

والثقافة و.. التاريخ.

ودعهم حتى الباب الخارجي، ولم ينس أن يغمز مدير مكتبه الذى لحق بهم، ودس فى جيب يوسف مظروفاً وهو يهمس: اعتن بالصور رجاء، وليتك ترسل لنا نسخة منها!

فى مكتب مدير الناحية تكرر البرنامج بكل تفاصيله، القهوة المرة، والحلوى الجافة، وسقوط القناع مع أول لمعة فلاش.

انصرف سلمان عن المسرحية، التى لم تعد مشوِّقة، وأخذ يتأمل القاعة الكبيرة تحت كل المقاييس، فهى تزيد على الخمسة عشر متراً طولاً والعشرة أمتار عرضاً وقد نثر فيها عدد من أطقم الكنبات يكفى لعقد مجلس نيابى، وسيفسر له مدير المركز الثقافى فيما بعد: إنه انتصاره الخاص على منافسه أمين الشعبة الحزبية. لقد ورث قاعة مدير الناحية السابق والتى استمر على الإقامة فيها مدراء الناحية منذ أيام الفرنسيين، وسيضيف يوسف ساخراً: حاول أمين الشعبة كثيراً الاستيلاء عليها، ولكنه.. كما ترى.

كان سلمان يتأمل أطقم الكنبات مختلفة الطرز، من الطقم المملوكى الأرابيسك المنزوى فى الركن البعيد مع طاولة قهوة متوسطة إلى الطقم المذهب والذى دعاه مدير الناحية إلى الجلوس عليه فى فخر. وقال مدير المركز الثقافى: لقد اشتريناه مؤخراً، إنه ستيل. كان الطقم من طراز لويس الخامس عشر وكان ناتئاً، نابياً بين الكنبات الشرقية العريقة، المذهب الفرعونى، والشامى من خشب الجوز المحفور.

كان مدير الناحية قد انصرف عن سلمان تماماً رغم أن مدير المركز الثقافى قدمه بإجلال: المخرج الكبير، والكاتب الكبير، وقام رئيس نادى السينما بتقديمه بمقدمة لا بد أنه رددها مع نفسه عدة مرات حتى حفظها: المخرج الذى تنتظره السينما السورية ليحملها إلى العالمية. المخرج الناقد، الكاتب، المثقف، ولكن يوسف ما إن أطلق شرارة فلاشه الأولى حتى انصرف مدير الناحية عن الجميع، عن العاملين لديه مَن مدير المركز الثقافى، ورئيس نادى السينما، وحتى مدير المكتبة، انصرف عنهم، وأخرج من جيبه سيكاراً نادراً، وابتدأ فى اتخاذ الوقفات الصحيحة للصورة الصحيحة، فهو يعرف أن مستقبله وتاريخه ربما اعتمد على

صورة ناجحة فى جريدة، وكانت فرصة سلمان الذى انصرف عنه النظارة أن يتأمل المسرح بحياد، الكنبات، السجاد، التحف المعلقة على الجدران، ريليفات انتزعت من جدران معبد، ورؤوس لتماثيل ضاعت أجسامها.. أسلحة بيض، سيوف، وبنادق، وطبنجات، ورماح لا بد أنها صودرت من البدو والمحيطين بالمدينة. وفجأة رآها.. كانت فوق الباب الكبير تماماً. لوحة زيتية لا علاقة تربط بينها وبين موجودات القاعة. انتصب بهدوء، ومشى باتجاهها متسللاً يحاذر أن يكسر صمت اللقطة المثالية. توقف تحتها يتأملها. كان قد رآها مرات عديدة. لوحة شائعة. غزال مطارد يلجأ إلى بركة محاطة بالشجر وفجأة، وفى اللحظة التى آمن فيها أنه وصل إلى بر السلامة تتكشف الأشجار عن الصيادين وبنادقهم المشرعة.

لم تكن اللوحة خارقة، ولم تكن حتى جيدة، بل كانت مرسومة بما يقارب السذاجة، ولكن الذعر فى عينى الغزال ذكره بمشاهد ذعر كثيرة، وبنظرات مرعوبة كانت محفورة في ذاكرته على عيون غزلان أخرى فى لوحات أخرى. كانت اللوحة زيتية، وكانت مؤطرة بإطار سمج فظ من الخشب المحفور الملوَّن بالذهبى والبنفسجي والأسود. كان إطاراً ثقيلاً حتى ليراهن أنهم قد حفروا عميقاً ما يثبته فى الجدار حتى لا ينهار تحت ثقله.

انتهت تكتكات الكاميرا، وعادت للحياة إلى المشهد الصامت، وكان على الستوب كادر أن تدب فيه الحياة، وكاد يلتفت ليستأنف المشهد لو لم يجرب قراءة اسم الرسام، و.. .. كانت المفاجأة التى لم يتوقعها أبداً. كان اسم الرسام فاطمة الشاكر وتحتها كمن يفسر: زوجة مدير المال عام ١٣٦٢ هـ الموافق ١٩٤٣ أفرنكية. كانت المفاجأة أكبر من أن تهضم بسهولة. ودون لياقة كبيرة، ودون أن يلتفت إلى المشهد الذى استأنف حياته بعد تكتكة الكاميرا كان قد جر كرسياً اعتلاه، وتأكد من التوقيع. وكان التوقيع لا لبس فيه فاطمة الشاكر ثم التعليق الغريب زوجة مدير المال عام ١٣٦٢ هـ الموافق ١٩٤٣ افرنكية.

أخرجه من ذهوله وغرابة وقفته لمسة يوسف على ركبته. التفت. وكانوا جميعاً يحدقون به، وبسرعة اكتسبها من عمله مخرجاً انتقل ذهنياً إلى الجانب الآخر، ورأى نفسه كما يرونه.. كهل يقف متأرجحاً على كرسى، ومن حوله، وعلى كنبات

محترمة رجال محترمون يراقبونه بهلواناً أو خطيباً.. أو.. وأنقذه يوسف كعادته من الحرج. قال: الأستاذ مهتم كثيراً بفن الرسم.

قفز إلى الأرض متكئاً على كتف يوسف، وكاد يعود إلى مقعده منطوياً على المفاجأة، ولكن مدير الناحية لم يمهله إذ قال فى تفاخر:

الإطار. أرأيت إلى الإطار. لقد كلفنى عشرة آلاف ليرة. إنه قطعة فنية، صنعت خصيصاً لى فى حلب.

وتمتم سلمان: ولكن اللوحة.. كيف وصلت إلى هنا..؟ إنها تعود إلى عام ١٩٤٣,

وقال مدير الناحية وهو يعود إلى المقعد خلف المكتب فى رسمية: جميلة. هه. إنهــا _ وتابع يضحك فى خفة - جزء من تركة مدير الناحية الأول. وقال مدير المركز الثقافى فى ثقة العالم: كانت هنا منذ العهد الفرنسى.

كان يوسف قد اعتلى الكرسى الذى ترجل سلمان عنه يتأكد مما جعل سلمان يفعل فعلة لا عهد له بها، وما كاد.. يقرأ، ويعيد القراءة حتى قفز يصفر ليلتفت إليه الجميع متسائلين: كان قد استطاع رفع الكلفة معهم، بصوره، ووضعياتهم التى جعلهم يتخذونها، والحميمية التى جمعت بينهم، وسيثور حسد خفيف فى قلب سلمان إذ كيف لمساعد له ومجرد مصور أن يصبح على هذه الأهمية، بينما هو الأول.. المخرج.. محيى المدن الميتة لا يأبهون له.

وفى دهشة صارخة قال: ولكنها أمك.

وكانت الصدمة هذه المرة من نصيب الآخرين الذين التفتوا إلى سلمان ليصبح البؤرة والمركز من جديد.. كانت وجوههم، وعيونهم وإن لم تنطق تسأل: أصحيح ما يقول؟

نظر سلمان إليهم، إلى اللوحة، ثم إلى التوقيع، ثم قال فى فحيح: نعم.

٤

على الغداء حيث كان مدير الناحية صاحب الدعوة، فابتعد الزبائن العاديون عن نصف الشرداق - المقهى أدباً وأخلاقاً حميدة، فليس من المعقول أن يوجد - أو يكون على مقربة من السيد مدير الناحية، وأمين الشعبة، والرجل الغامض الذى لم يقدموه لسلمان، فاكتفى بمصافحته فى وقار - أولئك الفانون العاديون من صغار الموظفين والبائعين والأهالى.

كان غداء عادياً ليس فيه ما يميزه عن اى غداء فى مطعم عادى.. اللحم المشوى، والكباب، والدجاج المشوى، والسلطات غير متقنة الإعداد، والعرق، والبيرة، ولكن السيد أمين الشعبة اختص نفسه بكأس كبيرة من الوسكى، وقال فيما يشبه الاعتذار:

- كنت أتمنى أن أشرب العرق معكم، ولكن. إنها نصيحة الطبيب. قال إنها مفيدة للشرايين المتضيقة.

انتزع مدير الناحية سيكاره العتيد من غلافه الزجاجى فى استعراض، وسارع مدير مكتبه مهرولاً ليشعل السيكار تحت أنظار الحاضرين المعجبة والمتملقة، وكان سلمان قد توقف عن التدخين منذ زمن طويل، ولكنه شعر فى تلك اللحظة تحديداً برغبة عارمة فى تدخين سيكار يفوق سيكار مدير الناحية الذى تميز به عن سكائر الحاضرين الفرنسية، فقد كانوا جميعاً يقاطعون السكائر الأمريكية، أما السيكار فهو من صنع الأصدقاء الكوبيين، ولكنه فى اللحظة التى قرر فيها إرسال الميتر لشراء دستة من السيكار يوزعها على الحاضرين، وليتر من الوسكى دخل الكهل الذى سيعرفه سلمان فيما بعد باسم الموسيو غسان، فوقف فى مدخل الشرداق - المقصف فى انتظار من يعرف أهميته، ويطالب الحاضرين بهذه المعرفة. التفت سلمان، فالتفت مدير الناحية، والتفت الحاضرون مثل أوركسترا.

كان وقوراً ببدلته الرصاصية جيدة الكى، وبربطة عنقه الفراشة التى ما توقع

سلمان أن يرى من يضعها فى هذه المدينة. وقف يتفحص الحاضرين واحداً واحداً، وانتبه سلمان إلى أن الرجل مألوف بشكل ما. إنه يعرف هذا الوجه، ولكن، ورغم صرخات الترحيب من مدير الناحية، وكبار المتنفذين إلا أنه لم يكترث لهم، بل تابع تفحص الحاضرين كمن يبحث عن شخص معين، ثم اتجه مباشرة إلى حيث سلمان، وقال: أظنك الموسيو بندقدار.

حملق سلمان كامل الدهشة وإن لم يتخلص بعد من الإحساس بأنه رأى هذا الرجل من قبل: نعم.. ولكن.

وقدّم غسان نفسه مشدود الصدر يكاد يضرب عقبيه ببعضهما فى تحية عسكرية قديمة، ولكنه لم يفعلها: الموسيو غسان.

تلفت سلمان من حوله يريد أن يرى الدهشة أو الاستغراب على وجوه الحاضرين، ولكنه غير مفاجأ تماماً رأى نظرة الاحترام والتفهم على وجوه مدير الناحية، وأمين الشعبة والمدعوين. والغريب أنه فى اللحظة التى كان يستعد فيها للترحيب بالعجوز فى البدلة الرصاصية شبه العسكرية، وفى اللحظة التى كان يتأمل فيها الحاضرين يبحث عن دهشة لم يجدها كانت ذاكرته تدير شريط تسجيلها بسرعة تتساءل: أين رأيت هذا الرجل من قبل.

ولما لم تسعفه الذاكرة، ووجد مدير الناحية ينتصب لتحية الموسيو غسان، ووجد امين الشعبة ينتصب، ووجد حتى الرجل الذى لم يقدم نفسه له ينتصب، ثم وجد بقية المدعوين ينتصبون كالنوابض، وجد سلمان نفسه أخيراً ينتصب، وجد يده فى يد الموسيو غسان تهتز. قال: عرفتك من النظرة الأولى. أنت ابنها. ابن فاطمة. وبدون إحساس كبير بالحرج من أن يذكر اسم أمه أمام الحاضرين دون لقب غلبته الدهشة ثانية: ولكن. قال: سأشرب معكم قدحاً من الوسكى، ثم سأستعير منكم الموسيو سلمان. إنه غال. ابن الغاليين فاطمة وركنى.

وهكذا وجد سلمان نفسه فجأة في جو عائلى لم يكن يتوقعه، وبدل الدهشة على وجوه الحاضرين، وجد الفهم والتقبل، وكأن هذه حادثة يومية تتكرر كل يوم، ضيف قادم ليحقق فيلماً عن المدينة الميتة، فإذا به يكتشف لوحة رسمتها أمه قبل ستين سنة. ليس هذا فحسب، بل يأتى عجوز فى ثياب غريبة وطريقة تقديم غريبة،

ليقدم نفسه له، وكأنه خال أو عم قريب.

أشار الموسيو غسان بإصبعين إلى الخلف مفرقعاً دون أن يلتفت. وسرعان ما اندفع أحدهم يحمل زجاجة وسكى، وسطلاً من الثلج، وكأساً من الكريستال وضعها أمام الموسيو غسان فى احترام مبالغ فيه، نظر غسان إلى الصينية فى عتب: كأس واحد؟

واندفع الرجل يهرول إلى الكوخ _ الإدارة ليعود ومعه كأس كريستال آخر. لم ينتظر أن يطلب منه الموسيو غسان الصبَّ، بل سارع يملأ الكأسين ويضيف الثلج.

لم ينتبه سلمان إلى الرجل يحمل زجاجة الوسكى أولاً، ولم ينتبه إليه يصب فى الكأسين، ولكن حين امتدت اليد إليه تحمل كأس الوسكى التفت، وكان الساقى أبو الشيما. تأمله فى دهشة. هذا الوجه الخاضع المتملق اللبق وجه أبو الشيما؟ أهذا هو من كان يلعن، ويجدِّف، ويتحدى، ويدبك، ويحدو، ويعاتب قوى الكون أن أفسدت عليه أمسيته. أرخى أبو الشيما جفنيه فى تهذيب تحت نظرات سلمان المتفحصة بإلحاح.

تنحنح الموسيو غسان، فأخذ سلمان كأسه، وحين قرع الموسيو غسان كأسه بكأس سلمان فى حب يتجاهل الحاضرين جميعاً دون أن ينزعجوا لهذا التجاهل، وكأن من حق الموسيو غسان أن يفعل ما يشاء. رفع سلمان كأسه، وكمن يتخلص من ضغط عصبى هائل جرع كأسه دفعة واحدة، ولم ينتبه إلى بقية الحاضرين، كومبارس المشهد، وهم يرفعون كؤوسهم ويشربون برؤوس شفاههم احتراماً للكبراء على الطاولة.

وتنحنح مدير الناحية يريد لفت الانتباه، فلقد ساءه ابتعاد بؤرة الكاميرا عنه كل هذه الفترة، وقال: كأن الأستاذ سلمان يعرف أبو الشيما. ولما التفت إليه الحاضرون، وكان هذا ما يتمناه تابع _ لاحظت أنه كان يتأمله فى اهتمام.

وقبل أن يجيب سلمان تبرع يوسف بالإجابة السريعة: لقد عرفناه بالأمس.. أثناء العاصفة.

وقال مدير المركز الثقافى سعيداً أنه وجد فرصة للحديث: كان فى واحدة من ساعات سكره. لقد دبك، وحدا،

وأخيراً تكلم سلمان: كان يقول أشياء جميلة.. ولكنى لم أفهمها.

وقال مدير الناحية فى عطف زلق: مثل ماذا؟

وقال سلمان: قلت.. لم أفهمها. ولكن فيها تجديفاً.. وتحدياً.. وثورة.. وتابع بزلاقة إذ يبدو أنَّ كأس الوسكى الذى جرعه فى دفعة واحدة قد أنزل رتاجات تحفظه _ كان فيه شيء وثنى كنت أعتقد أنه قد روِّض منذ زمن بعيد.

وقال يوسف يمزح: سمّاه زوربا.

واندفع رئيس نادى السينما يبدى ثقافته: إنه فيلم عظيم. أعِدً عن رواية لكازانتزاكيس وأخرجه كوكويانيس و..

ولكن مدير الناحية قاطعه دون أن يلتفت إليه: زوربا.. لدينا في قريتنا شخص كان اسمه ابن الزوربا، وأطلق قهقهة مستهترة، ثم كمن فكر فى معناها قال: أعتقد أن معناها

وقال موسيو غسان: الفرارى، الهارب من العسكرية. كلمة تركية كانت تعنى فى الآن نفسه المتمرد.

ووجد نفسه خارج الحوار ثانية، ولكن الموسيو غسان تابع فى عطف: أعرف أنك درست السينما.

وقال سلمان فى أدب: أنا هنا لإنجاز فيلم توثيقى عن المدينة الميتة.

وأطلق الموسيو غسان قهقهة لم يتوقعها أحد من هذا العجوز، فقد كانت قهقهة قوية مقعقعة صادرة عن رئة قوية شابة نبهت سلمان إلى أن الرجل ليس متهدماً كما يوحى بذلك الجسد الذى يحمله، ولاحظ أن الحاضرين لم تفاجئهم قهقهات الموسيو غسان القوية.

وقال غسان: المدينة الميتة؟ _ ونظر من حوله كمن يتوثق من موتها _ أنت على حق. المدينة الميتة.

واندفع أمين شعبة الحزب يقاطع كمن يدافع عن قضية هو المسؤول الأول عنها: السيد المخرج يتحدث عن المدينة الميتة، المدينة الأثرية.. المدينة التى يزورها بعض السواح.. ولا _ وضحك فى اعتذار _ لا أظنه يعنى مدينتنا، فمدينتنا الحمد لله حية، كاملة الحياة، تنبض بالفرح والسعادة والازدهار.

وأدار الموسيو غسان عنه نصف جسده كمن يريد له الصمت، والتفت إلى البعيد، فالتفت سلمان ليرى نظرة الموسيو غسان تسقط على أبو الشيما، وتمتم الموسيو غسان: زوربا.. هه. ربما كنت على حق، واندفع مدير الناحية الذى لم يعجبه أن يكون خارج الحديث ثانية، وقال أعجبتك الهوسات التى حداها بالأمس هه؟

وقال سلمان: الحق. أعجبنى الموقف

وبكل عظمة قناع قيصر أشار السيد مدير الناحية إلى أبو الشيما، فاندفع ضاماً كتفيه، فاركاً كفيه إلى حيث سيد الحياة والموت مدير الناحية الذى بادره مباشرة: نريد واحدة من هوساتك! صعق أبو الشيما لطلب مدير الناحية، وظنه يمزح، ولكن مدير الناحية تابع: هوساتك.. هوساتك. تلك التى كنت تلقيها بالأمس، - ولما رأى الحيرة على وجه أبو الشيما أكمل: تلك التى كنت تلقيها أثناء هبوب العاصفة هيا.. هيا.. أسمعنا بعضها.

أغمض ابو الشيما عينيه فى استسلام أمام عيون الحاضرين المحاصرة، والمراقبة، والمنتظرة، وانطلق يقول كتلميذ مدرسة:

حيٌ المدير وما ضمت جوانحه   من عبقريات وتاريخ وأسرار

حى المدير ويا تاريخ كن حذراً   هل كنت لولا تعاليمه وأفكاره

كان سلمان بعد الكأس الأول الكثيف قد خرج من حالة المراقب ليتحول إلى حالة المخرج. كان يرى المشهد بعينى المخرج، فرأى المشهد جزءاً من ساتير يكون بكل شهوانيته وحيوانيته ووثنيته. رأى السيد مدير الناحية، والسيد أمين الشعبة، والغامض بينهما وقد غاصوا فى أفخاذ الفراريج ينهشون، والدهن قد لوث خدودهم وشفاههم. كان أبو الشيما يلقى محفوظاته بينما كانوا ينهشون،

وينهشون، والدهن يقطر و.. وتشكّل المشهد كاملاً، وتمنى لو أن الكاميرا جاهزة للاحتفاظ بهذه النظرات الغائمة المستمتعة، وكان أبو الشيما يلقى محفوظاته غائم العينين يعتصر الذاكرة، بينما كان الدهن يقطر.. كان سلمان يبحث عن اسم لهذه اللذة على عيونهم والانكسار فى عينى أبو الشيما الذى تقزَّم حتى طفل المدرسة، وصدمته كلمة الأمس الصارخة قال: القَرَم.

وقبل أن يردد الكلمة يستحلبها صورياً على عادته صدمته الفكرة التالية: ترى. ما الخطوة التالية. هل سيطلبون إليه تقليد عجين الفلاحة!

لم يكذبوا ظنه إذ هتف الرجل الغامض فجأة: نريد هوسة ضد أميركا.. ضد أميركا يا أبو الشيما.

وانطلق أبو الشيما يشتم أميركا فى شعر كامل الفصاحة دالس يا دالس يا أبو الدسايس.

بينما أشرع الثلاثة الكبار سيجارهم من صنع الأصدقاء الكوبيين يتفرجون على من كان سلمان سماه بالأمس زوربا.

أحس بكف تلمس ساقه، فالتفت. كان الموسيو غسان. قال: هيا بنا

فهمس: ولكن الدعوة.

- لا تهتم.. هيا. فلدينا حديث أكثر أهمية.

وقاما. أراد سلمان الاعتذار، ولكنه لاحظ أنهم قد غمسوا أنوفهم وأفواههم فى اللحم ينهشون، وينهشون.

قبل أن يقفز إلى سيارة الرانج روفر العالية رأى يوسف يعدو باتجاهه، فتوقف ينتظر، ولما سمع عتابه على تركه. قال الموسيو غسان: لن نغيب. انتظرت الموسيو بندقدار لسنين.

وقال سلمان فى دهشة: كنت تعرف أنى سآتى؟

- لا بد.. كنت أعرف.

وهز رأسه يتظاهر بالموافقة، ولكن الحيرة كانت أكبر من الجواب.

التفت سلمان إلى يوسف، وهمس: صورِّهم. أرجوك. رغم أن الكاميرا التى تحملها فوتوغرافية إلا أنها خير من الذاكرة. صورِّهم _ ثم تذكر _ أتذكر فيلم ساتيريكون؟ _ وضحك يوسف _ لا. لا تضحك. أريد صوراً مطابقة، قريبة قدر الإمكان من ساتيريكون. اسرق. اختلس.تسلل. إنها فرصتنا. وصعد إلى السيارة، ثم بصوت مسموع صرخ: ساتيريكون. وأحنى يوسف رأسه فى قبول بينما اندفعت الرانج روفر ثمينة الفرش الداخلى مثيرة الغبار من ورائها.

٥

لاحت أشجار الصنوبر والسرو والنخيل العالية من بعيد فى خضرتها المسودَّة شيئاً مختلفاً تماماً عن الصفرة الغبراء التى اخترقتها السيارة فى طريقها إلى البيت.

أخذت الرقعة الخضراء المسودَّة تكبر، وتتفصل، وتتضح من كتلة سوداء مخضرَّة إلى سرو، وصنوبر، ونخيل أخذت تنشر فيه شيئاً من طمأنينة؟ بهجة؟ الحمد لله لقد انتهى الجحيم الأصفر المغبرُّ.

كانت السيارة تندفع مخاطرة بالانقلاب على الطريق الممزق بالحفر والركام، ولعدة مرات التفت يريد رجاء رفيقه العجوز أن يهدئ من سرعته، فلاحظ أنه يراقب الطريق من خلفه فى المرآة منشغلاً بغيوم الغبار المطارد، فأدرك أنه إنما يفر من الغبار الذى أثاره، ولو تباطأ قليلاً، فسيغمره الغبار، وكعادته المتأملة منذ أجبر على التأمل حين أبعد عن مهنته التى أعدَّ لها فى تحويل الصورة من حسية إلى ذهنية، تساءل: أترانا نهرب من غبارنا الذى نثيره حتى لا يغمرنا.

- ثم تأوه - أما أولئك الذين ينظرون إلى الوراء، أو يتمهلون، فغبار الذكريات لن يفعل إلا أن يغمرهم بأحزانه.. ثم لم يلبث أن لاحق الفكرة، أو أنها لاحقته لتتحول من فكرة مجردة إلى فكرة حياتية. أترانا نحن الذين ندمن النظر إلى الخلف واستحلاب أحزانه لا نفعل إلا أن نسمح للغبار المطارد بغمرنا و.. وقبل أن يكمل التأملة كانت السيارة تنزلق على الغبار الكثيف يغطى الطريق عند بوابة البيت الملتفة باللبلاب.. كان الكابح قوياً.

نزل غسان من الرانج قفزاً لا يتناسب مع سنه، فتح البوابة الحديدية تاركاً سلمان يتأمل ظهره المشدود، وشعره الأبيض المعالج بالمورغان، فكر حسن، ثم أضاف - شعر جميل. كان الشعر طويلاً حتى القذال وقد انتفش كلبدة بيضاء متباينة مع وجهه الأحمر سمرَّته الشمس التى يتعرض لها ولا شك كثيراً فى مدينة

نادرة الظل.

توقع سلمان كل أشكال الحدائق، كل أنواع البيوت إلا أن ينفتح الباب عن حديقة مدارية لا علاقة لها بالمدينة، وجفاف طرقاتها المتربة، وجدرانها البلوكية المكشوفة، فقد كانت حديقة من نخيل وأعناب، من ورود تعملقت حتى تسلقت الشرفات، من جهنمية احتمت بالنخيل فتفجرت حمرة، وصفرة، وخضرة، من شجرة تين كاوتشوكي نمت حتى صارت كشجرة جوز، من شجيرات مرجان قلمت لتبدو على شكل قباب وأقفاص عصافير، وكاد يصفِّر مبهوراً حين طارت من واحد من هذه الأقفاص ببغاء استوائية مفجرة شهاباً من حمرة مخضرة.

كانت مفاجأة مسلية لسلمان. الطير الضخم يراوح بجناحين كبيرين ونيل متدل وراءه يهتف: مرحبا . وضحك. سمع همهمة قريبة، فالتفت كان الموسيو غسان يتناول صينية شراب حملتها إليه خادم، ورأى نظرة السرور في وجهه، ففسرها سلمان على عادته: يحب المفاجآت المسرحية.

وبينما كان يتناول كأس العصير البارد قال: لم أكن أتوقع أن ألقى مثل هذه الـ.. الـ..

قال الموسيو غسان: الجزيرة.

فكر سلمان قليلاً: هه. معك حق.. صح. الجزيرة الخضراء في بحر الصفرة

قال الآخر: تعال.. وجذبه من يده شابكاً ذراعه بذراعه كصديق قديم دافعاً بيده خيوطاً من خرز مدلاة على شكل باب في نهاية الحديقة جاذباً سلمان وراءه، وما كادا يدخلان حتى وجد سلمان نفسه في مشهد من مسرحية لم يعدّ لها . صالة كبيرة ولوحات زيتية لن تتوقع وجودها في مدينة كهذه.

كانت لوحات بعضها استشراقي لفتيات يستحممن عند العين وحولهن أشجار نخيل تشكل قبة ساترة، وأخرى لفتيات في هودج، وثالثة لراقصي دبكة في ثياب بدوية والحماسة على أشدها في عيني الراقص الأول والذراع الأولى القافزة إلى العلاء.

كانت اللوحات مرسومة بحرفية عالية، الخطوط الصريحة، والألوان النظيفة،

والدهشة المبثوثة على اللوحات. لم يكن فيها مغامرات، أو تجديد في الشكل والخطوط، بل كانت تنتمي إلى عصر لم يضطرب بعد. قال سلمان يريد التعليق وبعض المجاملة، فلقد عرف أن اللوحات يجب أن تكون للموسيو غسان: هناك شيء ما، شيء غريب. ربما كان الحب.

فقال غسان: صح. إنه الحب.

تقدم سلمان إلى الأمام لتهزه المفاجأة الجديدة. عدد من اللوحات جعلته يشم رائحة الأصابع الحنونة تداعب شعر الطفل المتكئ برأسه على فخذها. كانت لوحات عن غزلان - موضوعها الأثير - غزال يقفز إلى السماء، ولكن بقعة دم في خاصرته تشير بوضوح إلى إصابته، ففي آخر الصورة هناك صياد صغير ضائع الملامح ما يزال يسدد بندقيته إلى الغزال؟... أم إلى المشاهد نفسه؟

وفي لوحة أخرى رأى قطيع الغزلان يرعى بهدوء غير منتبه إلى الصياد المتنكر بجلد غزال يزحف في اتجاهها، ولكن اللوحة التي شدت انتباهه بقوة كانت لوحة أخرى للغزال الهارب إلى بركة ماء ليكتشف أن اشجارها ليست إلا صيادين ينتظرون حسه بالأمان، وقد عكس ماء البركة صور الصيادين، فبدا الماء في البركة نفسها أشباح صيادين..

اقترب من اللوحة الأخيرة.. وقلبه يدق يبحث عن التوقيع وإن كان قد عرفه منذ اللوحة الأولى وكان كما توقع.. فاطمة.. أغمض عينيه في استسلام.. والتفت إلى غسان، ولكنه كان قد اختفى.. لا بد أنه مضى إلى الداخل يتشاور مع سكان البيت، حول الغداء! حول استقبال الضيف. ولكن الصمت.. الصمت الكثيف.. أللصمت كثافة؟ كان الصمت يتكاثف، فكأن قاعة لوحاتها لا علاقة لها بالصحراء والرياح والعزيف. كان الصمت ليس كثيفاً، بل كان يتكاثف، كان يحس بوطأته تتزايد مع كل ثانية تمر، كان صمتاً يحط على المكان، وكأنه قشر البصل، ولكنها القشرة المعكوسة، فأنت تقشر البصلة لتصل إلى.. ماذا؟ إلى القشرة الأخيرة؟ فالبصل لا لب له. أما هذا الصمت فكأنه القشر يغطي من الداخل إلى الخارج. كان يحس بالثواني وكل ثانية تضيف قشرة جديدة، حتى لم يعد يحتمل وطأة القشور، فتحول الصمت إلى طنين داخلي، طنين يطن في الرأس. التفت يبحث عن

غسان، ولكنه لم يكن هناك. استدار يبغي الباب ليعود إلى القاعة الأولى، ولكن لا باب. أين الباب. كانت القاعة قد تحولت إلى أطر، ولوحات، وغزلان مطاردة، وغزلان مذعورة، وغزلان صريعة.. ووجد سلمان نفسه يصرخ مذعوراً: أين أنا إذن؟

وتردد الصدى، تردد قوياً يضعف مع كل صدية، فكأنه قشور الصمت تتحلل وتتفكك. أراد أن يكرر الصرخة.. أين أنا إذن، ولكنها بدت فى ذهنه حتى قبل أن يطلقها صرخة استغاثة واستنجاد. لم تكن صرخة دهشة، تعجب. أو استغراب. بل كانت استغاثة. مم؟.. من طبقات الصمت؟ من الغزلان المحاصرة؟ من الغزلان الصريعة؟ من الغزلان تحدق فيه ببراءة. كيف تركتنا نقتل. كيف أشحت بوجهك عنا، وأنت ترانا نصرع.

قال ولا يدرى من يجيب.. كنت أبحث عن نفسى، عن المخرج الذى لم أصره.. عن.. وتردد الصدى ثانية. مخرج، مخرج، مخرج. كانت قشور الصدى تتضاءل مع كل صدية و.. رجع الصمت سيد المكان.

اندفع إلى حيث كان الباب كما قدّر، ولكن لوحة الغزال فى البركة ينشد الأمان، أو يكتشف الأشجار صيادين أذعرته. ورأى وجهه ينعكس على مرآة اللوحة فازداد ذعراً، فمن هو إذن؟ الصياد؟ أم المستنقع يلجأ إليه الغزال فيكون الفخ؟

قال: غريب تكرار هذه اللوحة. أنا أعرف أنها باعت منها فى دمشق ثلاث لوحات، فكيف وجدت ها هنا. كيف. وما الذى جعلها تلتصق بهذه اللوحة، وهى ليست لوحتها منذ البداية. أتراها اللوحة أم الرسالة. أتراها كانت ترى فى نفسها الغزال، وترى فى المحيط كله الذى نشبت فيه المستنقع؟

مال على اللوحة. انثنى. لا يعرف لماذا. أهو دفعها بيده، أم هى اللوحة من دعاه إلى دفعها، أكان يريد دفعها، أم حملها إلى الضوء يتفحصها عن قرب، ولكنه ما كاد يدفعها حتى ارتدت إلى الوراء، وكانت اللوحة باباً.

نظر إلى الظلمة وراء الباب، ورأى قشرة صمت أخرى. تراجع خائفاً. ما له

ولهذا كله.. وراجع بسرعة ما جرى فى الساعة الأخيرة، غداء سماه بالساتيريكونى.. وضيف يفرض خوفه, خوفه؟ أهو الخوف أم الاحترام؟ فكر ثانية، لا، بل الخوف _ على أقوياء المدينة، كانت الأفكار أسرع من قدرته على فهمها، أو تحليلها، ولكن.. ما الذى يخيفهم منه، وما كادت الفكرة تطرح نفسها حتى رأى القاعة التى تأنّى فى دخولها، تنار.. بنور حليبى، نور ضبابى، نور أشبه باللانور، ولكنه نور كاف لتبديد الظلمة. رأى قرب الجدران أشباحاً، وجوهاً، فتقدم منها يريد.. يريد التحية، السؤال عن الموسيو غسان؟ اقترب، فازداد الحليب بياضاً، وانسحبت العتمة قليلاً، وتبدت الوجوه بورتريهات.. وشهق مذعوراً، كانت وجوهاً لفاطمة. إنها فاطمة. أمه، ولكن.. تلفت من حوله حائراً، غاضباً، فاطمة

ما الذى.. اقترب من اللوحة الأقرب، وعرفها.. كان الوجه لفاطمة الشابة، فقد أرته مرة صورة لها فى المرحلة الثانوية. كانت صورة شمسية، قالت تتذكر ونظرة حنان عميقة فى وجهها: صوّرها أرمنى. كانت الخلفية لوحة سوداء ساذجة رسمت عليها زهور لا هوية لها ولكنها كبيرة بما يكفى لإعلان أنها حديقة.. كانت الصورة عتيقة مكسرة، ولكن الملامح كانت قوية، فاختلس الصورة، وأعطاها لصديق نسخها، وأصلح كسورها، وكبّرها، وكان يريها لكل امرأة تعرّف إليها فيما بعد، فكانت تثير لديهن الغيرة.

ولكن.. اللوحة زيتية. إنه الوجه نفسه فى السن المبكرة نفسها تقريباً، و: .. ما معنى هذا.. تلفت ينتظر جواباً، ولكن لا أحد، وخطر له أن يصرخ: موسيو غسان، موسيو غسان وبالطبع لم يكن هنالك من جواب. فحتى الصدى ابتلعه قماش اللوحات وأطرها الخشبية.

تقدم وراَها ثانية، كانت فى ثياب صياد والبندقية فى يدها محاطة بالعيون، عيون كثيرة، أكثر مما يجب، عيون تلمع فى العتمة، ركّز يريد معرفة حاملى هذه العيون، ولدهشته اكتشف أنها عيون حيوانات مفترسة. كلاب؟ ذئاب؟ لم يتأكد. فقد كانت الإضاءة حليبية واللوحة شبحية.. تلفت من حوله، ما معنى هذا؟ ما معنى هذا؟

غزال محاط بالصيادين، وصياد محاط بعيون وحوش.. ما معنى هذا؟ تحرك،

ليكتشف أن القاعة كلها كانت مكرسة لفاطمة، الأوضاع كثيرة والوجه واحد، ولكن من الرسّام؟ كان هنالك توقيع ما لم يستطع قراءته.. بحث عن مصدر قوى للإضاءة. لم يجد. أين مفاتيح الكهرباء؟ لا مفاتيح. خفت الضوء. من المخفت؟ صرخ: موسيو غسان لم تعابثني؟ أين أنت؟ سئمت اللعبة.

أراد أن يخرج، فقويت الإضاءة، واتضحت وجوه فاطمة، توقف منزعجاً: موسيو غسان.. موسيو غسان.. أيمكن أن توقف هذه المعابثة. انسحب يريد القاعة الأولى، ولكن الإضاءة اشتدت حتى استطاع أن يرى من موقعه إلى جانب الباب توقيع الفنان.. فاقترب يريد التوثيق، ولكن التوقيع كان بأحرف قوطية، لم يكن بالعربية، كما لم يكن بأحرف أوروبية معاصرة.. قرأ A وقرأ T وقرأ N، ولكن من هو هذا الرسام.

خفت الضوء ثانية، ولكن الخفوت المتأنى. فكر. إنه يستخدم الديمر، ولكن من هو؟ لماذا؟ أهو غسان؟ اللعبة إخراجية، التفت عائداً.. قال: سأوقف هذه اللعبة. حين رآها، كانت فى ثياب قصيرة عارية الكتفين والذراعين الممتدتين إلى الأعلى.. عارية نصف الساقين القافزتين. إنها ترقص، اقترب.. كمية هائلة من الفرح.. كمية هائلة من البهجة.. من النشوة الصوفية، من الاستغراق فى سعادة لا عهد للأرض بها.

قال: من هذه المرأة. أهى فاطمة. أهى المرأة المتجهمة التى يعرفها. أهى الفنانة المتشكية إهمال النقاد لها بعد طول اهتمام.. أهى المتشاجرة الأبدية مع أبيه؟ من هى فاطمة إذن؟ أيمكن أن يكون لديها كل هذا الفرح وهو لا يعرفها إلا المتشكية العاتبة على الزمان.

خفت الضوء فى القاعة لينبلج وراء شق بين اللوحات، وأدرك أنه الباب فانساق إليه، فانفتح. توقف والباب نصف مفتوح: من.. من يعابثنى، من يقودنى إلى النور، ويطردنى بالعتمة؟ من مخرج اللعبة؟ وصرخ: موسيو غسان.. موسيو غسان.. لا جواب. أكمل فتح الباب ليدخل قاعة فيها عدد من العلب الزجاجية ليس فيها إلا جرار أمفورا أثرية متطاولة، اقترب من واحدة منها، فاتقد نور لا يعرف مصدره يضيئها، وعلى الجرة رآها، كانت صورة لصبية متطاولة الذراع ترتفع قليلاً عن

الأرض حتى لتكاد تطير، وما يمنعها من الطيران إلا التصاق دقيق بالأرض، وعلى الأرض امرأتان أخريان تمسكان كلٌ بقصبة تعزفان. شدَّه المنظر، بل إنه ليقسم إنه سمع عزف الناى، ورأى الذراع تتلوى، والعينين الماكرتين تغمزان تدعوان إلى الرقص.. وأحس أنه سيخلع عنه ثياب السنين ويقفز ليرقص. آه الرقص الذى نسيه منذ سنى الوسكى.. والعرق، ورثاء النفس، وشتم الدولة، والمؤسسة التى حرمته من أن يكون المخرج الذى حلم العمر بأن يكونه.

سمع الناى، ورأى فى خلفية لوحة الراقصة على الجرة شباناً يصفقون فى مرح.. اقترب.. أحدَّ النظر، حدّق، ورأى فرحاً لم يره على الوجوه منذ سنين. أعوذ بالله. أين هرب الفرح من هذه البلاد. وما كاد يقول جملته.. وقد قدّم ساقاً وأخرَّ أخرى وكأنه سيشاركهن الرقص حتى رأى النور يندفع من الباب يفتح على الحديقة بذيئة النور، ورأى يوسف فى الباب يقول: ينتظرونك على الغداء. هيا.

باستسلام ضم ساقيه متخلياً عن فكرة الرقص، ولحق به.

كانت الحديقة التى غربت عنها الشمس العمودية قليلاً قد تحولت إلى رواق كبير يغطيه النخيل، والكينا، والتين الكاوشوكى.. فتوقف غير مصدق. أين اختفى كل ذلك الضوء الجارح. كان يوسف قد التف خلف زاوية البيت وهو يدعوه للحاق به بإشارة كفه. توقف قليلاً يعوِّد عينيه على الضوء المخضرِّ حين سمع تلك الأصوات الغريبة، كانت لهاثاً، وكانت فحيحاً، وكانت نحنحة، وكانت هنهنة. توقف قليلاً يتساءل عن هذه الأصوات حين فغمت أنفه الرائحة الجارحة، الدهن المحروق، واللحم المحروق، والبصل المحروق، فوجد قدميه تسعيان..

عند زاوية البيت التف مع التفافة الجدار، ورآه.. كان شيئاً أسطورياً، شيئاً خارجاً عن كل فانتازيا، شيئاً قال: لم يستطع أن يفكر فيه حتى فيلينى، ففى منتصف الباحة تماماً انتصب جمل يافع وقد شوى كاملاً، وانتصب محمولاً على خطاطيف فوق نار انطفأت، ورأى مدير الناحية، ورأى أمين الشعبة، ورأى الرجل الغامض، ورأى الكبراء، كبراء التجار، وكبار المزارعين، كبار الموظفين وقد جردوا القعود من معظم لحمه، فلم يتبق عليه ما يدل عليه إلا رأسه وأخفافه وسنامه الذى لم يبلغوه. كانوا ينهشون الحُوار بأسنانهم المباشرة، فلم يكونوا بحاجة إلى

سكين، أو شوكة، وفجأة رأى أمين الشعبة وهو ينتزع قطعة لحم كبيرة عن ساق الجمل الصغير، ولكن طرف القطعة الآخر كان في يد مدير الناحية، فجذبها إليه، فأمعن أمين الشعبة بالتشبث بها .. تجاذباها .. فانمطت، وكان سلمان يراقب غير مصدق، غير فاهم. غير واثق من حواسه، فرك عينيه، ولكن الوجهين كانا قد توترا يلتمعان بالدهن ونثار اللحم الملتصق بهما، وتوقع سلمان أن يسمع هريرهما، ولكن التهذيب منع الرجلين من الهرير، فاستمرا يتجاذبان القطعة في حزم، وتصميم، وصمت مهذب.

بحث بعينيه عن يوسف ليجده واقفاً إلى جانب عمود من الشاورما وهو يشير إليه أن يلحق به. كان قد ملأ طبقه من شرائح الشاورما، وها هو يشير إليه أن يأتي ليأخذ حصته قبل أن يصل إليها الآخرون.. إذ يبدو أن عمود الشاورما قد وصل متأخراً، ولكنه في تردده بين المتنازعين المتشادِّين على قطعة اللحم، وبين عمود الشاورما، جعل يوسف لا يكتفي بالإشارة، بل أخذ في الصراخ يدعوه لإدراك حصته، وما كادوا يسمعون صوته حتى تركوا عظام الجمل الواقف مشدوداً إلى خطاطيفه.. تركوا التراقي، وتركوا الشظايا، وتركوا الأخفاف. وترك مدير الناحية قطعة اللحم، فارتدت تصفع أمين الشعبة، ولكن أمين الشعبة وقد رأى عمود الشاورما تفهم موقف مدير الناحية، فرمى القطعة جانباً، واندفع إلى عمود الشاورما، فيمن اندفع.

تأمل سلمان بقايا الموقعة، الدهن الملقى على الأرض، وحذاءه الغارق في الدهن.. كان الكبراء يعرفون أذى الدهن على نظامهم الغذائي، فألقوه جانباً، واكتفوا باللحم الأحمر ينهشونه، رأى الخبز المسقسق بالدهن، والعظام الصغيرة التي انتزعت مع اللحم، والغضاريف المعلوكة والمبصوقة جانباً.

الغريب أنه لم يذكر الموسيو غسان، ولم يذكر الخدم، ولم يذكر يوسف، فكل ما كان يفكر فيه في لحظته تلك أن هذا المشهد جدير بفيلم ساتيريكون، ولكن ساتيريكون عربي، كان حريصاً على إعطاء ما يرى هويته العربية، نظر إلى الهيكل العظيم للجمل الواقف متكئاً إلى عظامه وخطاطيفه، وأدرك أن الهوية واضحة، ولا حاجة لإضافة تعليق أو شرح. فتش عن يوسف راجياً أن تكون الكاميرا الرقمية

معه، فهذه هى الفرصة النادرة لالتقاط صور كهذه. هل يسميه ساتيريكون عربى.. ولكن.. وصدمته سميحة ثانية: أنتم أيها الملعونون بلعنة الكتابة. دخلتم دور المراقب والمتأمل لما يجرى فى العالم، ثم نسيتم الخروج من هذا الدور، فانغلق عليكم.

أحس بالخجل. ها هو يعود ثانية إلى لعبته الرديئة بالتنميط والمراقبة. هؤلاء الناس يعيشون حياتهم على طريقتهم، فلماذا تريد تنميطهم رومانياً لتقول إنها ساتيريكون. سمها مسخريات، سمها مجنونيات. سمها بغداديات. سمها تدمريات. سمها بتراويات.. لديك لغة حافلة بالأسماء والأعلام، فلم تتركها وتلتحق، بفيلليني وساتيريكون.

قرر التخلي عن التنميط فى لحظته تلك، ولكنه قرر ألا يخسر فرصته فى توثيق هذا المشهد، فتش عن يوسف، ولكن يوسف كان قد اختفى، فالزحام على عمود الشاورما جعل المزدحمين يتحولون إلى كتلة مختلطة الألوان، كتلة تنعصر وتتمدد حسب قدرة المتراصين ينتزعون، ويمتلخون اللحم عن العمود، ولكن أين يوسف، أين غسان، أين الخدم.

انتبه فجأة إلى أنه ليس جائعاً. ويفرح: ليس.. قرماً.. نظر إلى الكتلة المتماوجة المرتعشة المعتصرة المنعصرة تمتلخ، وتنتزع، وتبتلع اللحم. وقبل أن يسميها رأى نفسه يعبر الباب ليجد نفسه فى القاعة الكبيرة، والموسيو غسان يقدم له كأس العصير البارد:

– منعش فى هذا الحر.

تمالك نفسه وأمسك بالكأس يحاول أن يفهم ما يجرى. نظر إلى حذائه المغبر قليلاً، ولكن لا دهن عليه، تفحص ثيابه التى أصابها رشاش دهن المتنازعين، فوجد ألا دهن عليها. أصاخ جيداً يبحث عن اللهاث والفحيح، والنحنحة، والهنهنة، ولكن الصمت الذى رشحته أشجار الحديقة وستائر القاعة تركت على القاعة صمت المعابد الساكن.

– اشرب.. قال غسان فى لطف.

جرع سلمان جرعة خفيفة يستجيب فى طاعة مهذبة ولكنه لا يصدق أين

اختفى كل أولئك الناس. الجمل العارى من اللحم، عمود الشاورما، الهرير المكبوت، والتهديد ما قبل العض. أين اختفى القرم العظيم سيد الحضور المنتشى بروائح اللحم المحروق، والدهن المحروق، والبصل المحروق.. أين..

كرر غسان فى لطف أشبه بالحفيف: اشرب، فأمامنا غداء وحديث طويل.. ثم مال فى جلسته إلى كومودينا قريبة. أتحب أن تضيف إلى عصيرك بعض وسكى.

تنبه سلمان إلى كلمة وسكى. أكان كل ما رأى من عقابيل كأس الوسكى المزدوجة التى عبّها دفعة واحدة غيظاً من استئثار المديرين بالوسكى والسيكار.. أتراني سكران؟

وضع الكأس على منضدة قريبة، وقفز عائداً إلى الباب الخشبى المحفور، ثم الباب الخرزى، ثم الممر المغطى بالعرائش، ثم الحديقة، ولكن.. لا جمل، ولا قَرِمون، ولا عمود شاورما..

أحس بخطوات غسان الزاحفة فى خفه المنزلى تلاحقه، وهمس:

- ما الأمر.. أهناك ما يزعجك.

أراد أن يحدثه عن حفل القَرَم العجيب، عن الساتيريكون العربية، عن الجمل.. ولكن خجلاً حلَّ عليه فجأة، فأصمته، واستدار لاحقاً بغسان إلى القاعة حيث ترك كأس عصيره، فجأة ذكر قاعات اللوحات المعابثة، فاندفع إلى الباب الآخر، ولكنه كان مقفلاً بإحكام.. قال غسان بلطف: أتشعر أنك متعب. الحمام من هذه الجهة.. وأشار إلى الداخل.

غمره الخجل ثانية، فها هو يقبض عليه متلبساً بقلة الذوق مرتين فى يوم واحد، وفى بيت واحد، وعند مضيف واحد لم يفعل إلا أن قدم كل ترحاب.

رجع مهدوماً إلى حيث كأسه نصف المترع، فجلس، وكرع كأسه كرعة واحدة، وأغمض عينيه يحاول هضم ما عاشه منذ ترك المقصف وأبو الشيما.

نقر الباب خلف غسان، فالتفت نصف التفاتة وهو يقول: همم ودخلت كهلة فى ثياب سود، وهى تقول: الغداء جاهز.

٦

كانت غرفة نوم صغيرة مترفة الأثاث، الستائر، والأغطية، وطاولة الكتابة الصغيرة، والبراد الصغير. جرب فتحه، فانفتح عن أنواع الأشربة التى يحبها بدءاً من العصائر، وانتهاء بأقوى أنواع الكحول.

قال: إقامة فخمة.

والغريب أنه لم يذكر يوسف منذ تناول الغداء مع الموسيو الذى لم يستطع أن ينتزع عنه اسم الموسيو غسان، أكان هذا بسبب ربطة عنق الفراشة، أم بسبب الروب دوشامبر فوق البنطلون والقميص ذى ربطة الفراشة. نفض رأسه. لا. إنه ليس الزى.. تساءل، أفكان ذلك بسبب لون بشرته الأحمر المحترق قليلاً، والذى يتميز به ذوو البشرة البيضاء حين يتعرضون طويلاً للشمس، أم.. ببساطة لأن مدير الناحية وأمين الشعبة دعواه بالموسيو.. هه.. نفض رأسه ثانية.. لماذا تهرب إلى هذه الأفكار الثانوية. نظر إلى الدفتر السميك على الكومودينا المجاورة. وقرأ العنوان المكتوب بخط الرقع.. المدينة الميتة.. أفكار لسيناريو المدينة الميتة.. المدينة الميتة.. كان هذا هو العنوان الذى سمى به معالجته التى أرسلها إلى المحطة الفرنسية، فكيف عرف الموسيو غسان بذلك. ليس عرف فقط. بل وضع مشروع سيناريو محاولة.. رفع الصفحة الأولى الغلاف، وقلب فى الدفتر كان مكتوباً بخط اليد حتى الصفحة الأخيرة.

قال الموسيو غسان: مادة أولية تستطيع تكييفها كما تشاء. لك كامل الحرية. أراد أن يعتذر، فما يسعى إلى الشغل عليه ليس سيناريو أدبياً، ولا فيلماً روائياً. إن ما اتفق عليه مع المحطة المموِّلة فيلم توثيقى، ولكنه أصمته بلطف: اقرأ النص أولاً. لقد انتظرناك – وراءه ضمير الجماعة، فمن المنتظرون؟ وأكمل – عشرين، وربما ثلاثين عاماً، وها أنت الآن مستعد. اقرأ. ودفعه إلى غرفة نومه الجديدة،

أراد أن يعتذر بأن ثيابه، بيجامته، عدة حلاقته.. إلخ. كلها في غرفة الفندق، ولكنه دفعه إلى غرفة النوم ليجد أشياءه كلها في الغرفة. البيجامة مطوية على السرير، والروب دوشامبر إلى جوارها. عدة الحلاقة، وماء الكولونيا، وفرشاة الأسنان في الحمام، وثيابه معلقة في الخزانة.

أخفى نظرة الدهشة عن وجهه، فقد سئم نظرات الرضى والإعجاب بالنفس على وجه الموسيو غسان في يوم واحد لشهر كامل. قال: استرح الآن: استرح وفكر بالأمر. وبطريقة عرضية أضاف: إن وجدت لديك مزاجاً، فحاول قراءة هذه الوريقات - ثم بلا اكتراث - ربما تسليك قليلاً. قال كلمته الأخيرة، وانسحب، وتركه مع الغرفة كاملة الإعداد، فيها كل ما يحتاج المرء: جهاز التلفزيون، الراديو، جهاز السي دي، البراد، الحمام الصغير.

ولما احتج في ضعف بأن فيلماً روائياً ربما يكلف الكثير، وعلاقته مع المؤسسة.. أشاح الموسيو غسان بكفه في لا مبالاة: لا تفكر في هذا كله.. التمويل وحتى في أكثر رغباتك جموحاً سيكون تحت تصرفك.

ارتمى على سريره يفكر في يومه الغريب هذا. الغداء الساتيريكوني.. قاعات اللوحات العابثة، وأخيراً هذا العرض الذي اشتهاه، وتمناه العمر، ولما أيقن باستحالته، وارتمى على المحطة الفرنسية يعرض التوثيق، ليس التوثيق المحايد، بل التوثيق المؤكد لواحدية شرقي المتوسط بغربيه، ألم توحدهما الهلنستية كما قال في معالجته.. بعد كل هذا. ها هو العرض يأتيه جاهزاً، كاملاً، لا يطلب منه إلا أن يوافق ولكن.. رفع كم قميصه، وقرص نفسه بقوة، فهذا اليوم عجيب، ليس على ثقة فيه بحواسه، فكل شيء ممكن.. أيمكن لهذا العرض أن يكون من بنات أحلامه المتشهية.. أيكون ليس إلا غداء ساتيريكونياً آخر. نظر إلى الكومودينا، ورأى الدفتر. قلب أوراقه. إنه مكتوب بخط اليد. وضعه جانباً يفكر، وأخيراً حسم أمره. قال: لا خسارة.. أجرب.. ثم فكر في احتمال خسارة الفيلم التوثيقي. فقال: لنركب الحصانين معاً. سأدعي التوعك، وأكلف يوسف بالتقاط عدد من الصور العشوائية للمدينة الميتة.. سأكلفه بالتقاط عدد من أفلام الفيديو، وأقول إني سأستوحي منها السيناريو الأدبي، وفي هذه الأثناء أقرأ هذا السيناريو الذي لم يخطر لي ببال،

ونرى إن كان هذا الموسيو غسان لديه القدرة على الكتابة كما القدرة على الإدهاش.

فتح الصفحة الأولى، وقرأ

لو لم يكن اسمى فاطمة..

كانت الجملة غريبة.. ما معنى هذا، وعن أى فاطمة يتحدث.. ما معنى أى فاطمة؟ أمه؟ انحنى فوق الدفتر ثانية ليلاحظ أن خط العنوان (أفكار لسيناريو) يختلف تماماً عن الخط فى السطر الأول العنوان الأصلى «لو لم يكن اسمى فاطمة».. .. وقرأ

كان شجاراً سوقياً، شجاراً من تلك الشجارات التى لا أذكر أنى انخرطت فيها حتى مع ركنى رغم كثرة الشجارات أعوذ بالله.. إنها أمه، تتحدث عن شجاراتها مع أبيه ركنى البندقدار، ولكن كيف، كيف وصلت هذه الأوراق إلى الموسيو غسان، قلب فيها.. إنها فاطمة، فاطمة.

كانت الريشة قاسية، والألوان مائعة، والغزال المربوط مرعوباً خائفاً، يبغم فى ضعف عن أى غزال تتحدث .. قلب الصفحات ثانية عيونها كانت مصابيح مهددة تحيط بى وبركنى وبالسيارة. أعوذ بالله. كيف لم أعرف فى تلك اللحظة أنها كانت الضباع. أعوذ بالله لو عرفت، فلربما لم أستطع طردها، والهرب بالسيارة وبركنى الذى كان يجتذب الضباع برائحته.. حك سالفه حائراً.. أية فاطمة هذه. إنها تتحدث عن ركنى، وركنى أبوه، ولكن ما حكاية الضباع والعيون المتقدة و.. انتبه إلى أنه يحدق فى الستائر المسدلة بقوة. أكان يسألها الجواب. أم كان يسأل غسان من ورائها الجواب. إنه وحده من يملك الجواب.. ولكن.. نظر إلى الدفتر ثانية. الدفتر يبدو كقضية عائلية، فهل يحق للأغراب التلصص عليها. عاد إلى الدفتر، فتحه عند الشجار السوقى، وقرر قراءة المخطوط حسب ترتيبه.

ورغم تهاوى ركنى إلى شيخوخة تقاصر فيها طوله، وصار يعرج لا لسبب، فهو لم يكسر ساقه، ولم يكسر كاحله، ولم يكسر وركه، ولم يصب بتمزقات فى عضلات الساق، ورغم كل ذلك فقد تسلل إلى عالم العرج بهدوء ملحٍ، وكأنه كان يريد ذلك.

كان يبدو وكأنه كان يستمتع بمنظر الشيخ الأعرج يتكئ على عصا، ولو لم يكن الأمر مضحكاً لقلت إنه قد أصر على العرج لا لشيء إلا ليستفيد من تلك العصا الأبنوسية التي جاءه بها سلمان عند عودته من موسكو رفع رأسه متجهاً بنظره إلى الستارة المواجهة، ورأى نظرة السعادة على وجه أبيه حين سلخ لفافات الورق عن العصا، تأمل زخرفاتها الكازاخية ولونها الأسود اللامع. يذكر أنه سأله إن أعجبته، وأنه لم ينطق، بل همهم شاكراً فقط.. لا. ليس الأمر أمر تمثيل، فركنى كان يعرج فعلاً.. ليس بساقه المتكئة على العصا الأبنوسية ذات المقبض الأسدى، بل كان يعرج بروحه نفسها، فمنذ ترك منصبه فى وزارة المالية انقلب إلى خبير مالى فى شؤون البيت يحاسب صبى الخضرى مذكراً بأن كيلو البندورة فى سوق الهال يقل بعشرة قروش عن سعر معلمه، فلماذا؟ ويصرخ مغضباً، وأضطر إلى التدخل وإبعاده عن الباب، وعن صبى الخضرى، ولكنه ما يلبث أن يشتبك مع صبى السمان، وصبى اللحام، وحين بلغ الأمر الحد الذى لا يحتمل تركت له أمر النزول إلى سوق الهال، وسوق البزورية، والسوق العتيق، وإحضار متطلبات البيت إن كان هذا يرضيه، و.. لم يتردد، وكأنه ما كان ينتظر إلا أن أطلب إليه هذا حتى يستجيب. كنت أنتظر أن أسمع واحدة من تبجحاته: أنا ركنى بيك البندقدار كبير مفتشى وزارة المالية أنزل إلى الأسواق أدافع العتالين والخضريين. ولكنه لحيرتى لم يحتج، ولم يتبجح، بل وافق فى حماسة، ونزل من ساعته يحمل إلى البيت متطلباته من خضار وبقالة ولحوم.

استئت فى البداية، فما يجوز لزوجى وأبى أولادى أن يرى فى موقف كهذا، ولكن.. فكرت قليلاً.. ربما كان هذا أقل إحراجاً من شجاراته اليومية مع صبيان الباعة.

ولكن شجار اليوم كان شجاراً مختلفاً، شجاراً لم أعرفه منذ الطفولة. شجاراً استخدمت فيه ألفاظ، ما كنت أظن نجوى طفلتى تعرفها، أعوذ بالله، تلك الطفلة. متى تعلمت مثل هذه الكلمات، وأين، ولماذا؟

وتوجهت بهذه الأسئلة عصر ذلك اليوم إليه، فهمهم بضحكة وقورة وهو يتأمل لوحتى الأخيرة، الألوان البنية بتدرجاتها، والخطوط المتسامقة إلى العلاء. قال:

أبناؤكم ليسوا لكم.. أنسيت.. ليس نحن من يربى أطفالنا. إنهم الآخرون، المدرسة، الحارة، الإذاعة، التلفزيون، المجتمع. فكرى.. ما حصتك فى كل هذا، ثم عن أى طفلة تتحدثين؟ نجوى. صارت امرأة.

وعلى العشاء تأملتها هذه المرة بعين جديدة ليست عين الأم التى لا ترى فى أبنائها إلا الأطفال، تأملتها بعين الغريبة، وهمهمت لنفسى، بل ربما صارت أكثر من امرأة.

كان شجاراً سوقياً، أعوذ بالله شجاراً نفثت فيه أحزاناً وخيبات ما كنت أظن للحظة أنها تخفيها.. تحدثت عن الظلم الذى حاق بها، ثم تجرأت بعد تردد بالكشف عن فخذيها، وقالت باكية: أهاتان ساقا فتاة فى السادسة عشرة إكراماً لله؟ .. ثم أمعنت فى التعرى لتكشف عن بطن منتفخة: هذا جسد فتاة تتمنى سماع كلمات التلطيش والمغازلة؟ أهذا شعر.. أهذا شعر؟.. وكادت تنتف شعرها وهى تشده لترينى خشونته.. ما ننبى.. ماذا فعلت للحياة حتى تعطينى هذا الجسد، وهذا الشعر، وهذا.. .. وأغرقت فى بكاء لم أستطع إلا أن أقترب منها لأضمها مواسية، ولكنها دفعتنى بنفور وهى تفر إلى غرفتها.

كانت شكواها – وأنا أعرف _ تتضمن غيرة فظيعة مبطنة، فحين كانت تكشف عن فخذيها السمينتين حتى الغلظة إنما كانت تعرِّض بساقىَّ النحيلتين المشدودتين الشابتين، وحين كانت تلعن شعرها الخشن المتقصف ضائع اللون بين البنى والكستنائى والأغبر، فإنما كانت تعرِّض بشعرى الناعم.

أووف.. ما أسرع ما تكبر الفتيات، وتتصاغر الأمنيات لتصبح بحجم زوج. كنت أتأملها تكبر والكل يؤكد أنها نسخة منى، ولكن ما لم يقولوه، وإن أبدته إشارات الأعين والتلميحات أنها كانت نسخة غير منقحة رفع عينيه عن الدفتر وابتسامة مرة تسكن شفتيه.. المسكينة نجوى. صحيح كانت نسخة غير منقحة. وغير سعيدة، وغير محظوظة.. لقد لاحقها سوء الحظ حتى النهاية.

كنت أتأملها تكبر، وفوارق عدم التنقيح تتضح، العينان هما العينان الواسعتان الزرقاوان. ولكن أين الروح المتمردة فى نظرة العينين. كما سيقول لى معاوية رفع سلمان رأسه، معاوية؟ من هذا المعاوية الذى ما تفتأ تستشهد به؟، عاد إلى الدفتر

حين تأمل لوحة رسمتها لها، وقارنها معى. قال: أين المرح المعابث والعفرتة المتلاعبة. الشفتان هما الشفتان ووضع أصبعه على شفتي، ولكن انظرى إلى التوتر الملتوى الخفيف فى جانب السفلى منهما، التوتر الموحى بالسخرية المترفعة والتصميم. أطلقت لحظتها ضحكة مفرقعة أتظاهر بالسخرية من ملاحظته، ولكنى حين أراجع الملاحظة مقارنة بين صورتها وصورتى سأدرك أنه قد التقط الإشارة.. وفى مرة تالية قال بعد أن حدثنى عن زوج من عصافير رباها. قال فى استهانة: عصافير الحب الاسترالية _ وهتف متهكماً على عادته _ ربما لم يناسبها البيت أو الإضاءة، أو الحرارة، فلم تفقس إلا بيضة واحدة، ثم توقفت عن الفقس إلا عن ذلك الفرخ الذى تكشف عن أنثى، وطبعاً لم أعرف أنها أنثى إلا بعد نضجها.. وهكذا واجه القفص مشكلة أنثيين وذكر واحد. صحيح أنه الأب، ولكن من يعبأ بقضية كهذه فى عالم الحيوان، وهكذا أخذت الأنثيان تتنافسان على الذكر الوحيد المتاح، وطبعاً كان الحظ الأكبر للأم، الأنثى صاحبة العش والرفقة القديمة. وتركتها غير مبال بصراعها.. وعدت فى أحد الأيام لأرى آثار المعركة بين الأنثيين تقتتلان على الذكر الوحيد. كانت الأم مرمية على أرض القفص مثقوبة الرأس إثر نقرة قوية، منتوفة ريش الجناح.. وكانت الأنثى الصغيرة مدماة أيضاً ولكنها كانت قد اصطحبت الذكر المتاح إلى العش فى كبرياء المنتصر.

وضحكت بعد حكايته هذه: ولكن ما مغزى حكايتك هذه. أتعتقد أنها يمكن أن تفعل معى مثل تلك العصفورة، وأطلقت ضحكتى الماجنة التى كان يعبدها.. ولكن ركنى..

فقاطعنى: من يدرى. ثم أطلق ضحكة مجلجلة تدارك بعدها نفسه حين رأى العتب على وجهى فتابع: لا. لا.. بالطبع لا.. كل ما أردت هو التخفيف عنك.

فيما بعد، وبعد الكوارث التى حاقت بى سأعيد قراءة نبوءته مع تغيير اسم الأب الذى لم يكن ركنى هذه المرة.

ولكن لماذا أبدأ كتابة هذه الأوراق بحديث الشجار مع نجوى؟ لم اخترت هذا الأمر تحديداً. إن كان الأمر أمر شجار، فما أكثرها مع ركنى ومع سلمان، ومع.. .. آه.. معاوية.

رفع سلمان رأسه حائراً مغتاظاً، فمن هو هذا المعاوية الذى ما تفتأ تكرر اسمه. أهو.. لا.. فاطمة كانت الملاك يمشى على الأرض، لا. لا.. .. لا يمكن ولكن.. عض على شفته حتى كاد يدميها.. وهل يستطيع معرفة خبايا الإنسان إلا الرب نفسه. عاد إلى بداية المخطوط يتأكد لو لم يكن اسمى فاطمة.. أيمكن أن تكون فاطمة أخرى. ولكن ركنى.. أيمكن أن يكون ركنى آخر، ونجوى أخرى وسلمان.. سلمان.. هل جننت؟ الأسماء نفسها.. لو لم يكن اسمى فاطمة.. حدّق فى الستارة يتمنى لو تنشق عن الموسيو غسان ليسأله لم تتمنى فاطمة ألا يكون اسمها فاطمة، ولكن أهى تتمنى فعلاً، أم أنها تندهش، تتحير.. قلّب فى الأوراق يبحث عن ذكر ثان لفاطمة، ووجدها هذه المرة، ليس وحدها فحسب، بل وجد الإجابة التى كان يبحث عنها لما تغيرت حياتى كل هذا التغيير. لو لم يكن اسمى فاطمة لكنت الزوجة العادية المريحة والمستريحة، أمّ وأطفال وزوج وبعض هموم ستجد حلولها بطريقتها الخاصة، ثم يأتى الموت المريح، أما وقد كان اسمى فاطمة فقد كان السنغال، وكانت الصحافة، وكانت المعرفة اللعينة، تفاحة الخروج من جنة العادية.. آه لو لم يكن اسمى فاطمة، أكان لى أن ألتقى بأوغستان، لو لم يكن اسمى فاطمة، أكان لى أن ألتقى بمعاوية، وقد مال قبان الحياة، فيعبث بى كل هذا العبث ويسرق منى أحلى ساعات كهولتى؟.. كهو.. كهو.. لتى.. آه. ما أصعبها كلمة لم يستطع التوقف عن القراءة، أو مراجعة النفس، كانت شهوة التلصص على أسرار الأم أكبر من قدرته على التعفف أو التساؤل إنهم ينقرون الباب الآن.. آه.. لا بد أنه وقت الدواء.. ولا بد أنها الممرضة تحمل لى الدواء، ولا بد أنها هناك فى الصالون لا تجرؤ على الدخول. سترمقنى من فتحة الباب أثناء دخول الممرضة. أعوذ بالله. لم أصبحت أنفر منها، ما الذى جعلها منفرة إلى هذا الحد.. أهناك من ينفر من ابنته الوحيدة؟

كرروا نقر الباب، فأذنت للممرضة بالدخول، ودخلت، وأدخلت نفسى فى حالة من الكوما الواعية، وهى تقلبنى، تغسل ظهرى وردفىّ بالكافور، وهى تزرقنى بالإبرة، ثم وهى تعطينى كمشة من الحبوب لأبتلعها، وبينما كنت أبتلعها رمقت الصالون، والتقت العيون الأربعة.

صحيح.. إنها نسخة منى، ولكن.. من أين جاءت بهذه الكتل من الشحم والدهن أوف.. إنها ركنى، ركنى بسحنته المؤنثة، ولكن فى كهولته. كيف استطاعت اختصار الزمن للوصول إلى كهولة لم يؤهلها لها الزمن بعد.

أغلقت الممرضة الباب، وقبل إغلاق الباب استطعت رؤية النظارات الطبية ونجوى تعلقها على أنفها. هه. هل تستطيعين القول إنى أورثتك حسر النظر أيضاً؟ إنه ميراث ركنى وباكزة أخته وعائلة البندقدار الذين لا تعرف متى يدركهم كرش الوجاهة فجأة، ومتى يدركهم عرج الوقار، ومتى يدركهم حسر نظر النبالة والعراقة، ولكنهم جميعاً حملوا هذه السمات.

هاه.. آه.. كان الشجار سوقياً، ولن تستطيع القول إنها ورثته عنى، فلقد ورثته عن ركنى.. مؤكد أنها ورثته عن ركنى الذى كنت أرى شجاره العاجز بعد كل مواجهة مخفقة مع العالم.. يعود إلى البيت، ثم يفتعل شجاراً كنت أعرف أنه سيفتعله منذ إغلاقه الباب الخارجى وهو يزفر. كان يثور فجأة، ويرمى الصحون كما رآهم يفعلون فى شجارات السينما، ولكنه كان يتخير الصحون النحاسية، فلا تنكسر، وما أسهل حملها فى اليوم التالى إلى المبيِّض يعدل انثناءاتها وانطعاجاتها، ويبيِّضها، وينقضى الشجار دون خسارات كبيرة، وكنت أعاتبه فيقول: الحية التى تغضب، ولا تلدغ مغضبها يقتلها سمها، ثم يكمل فى حكمة: أنا رأيت حية تعضُّ غصن شجرة. أتعرفين لماذا؟ لتفرغ سمها، ورأيت حية تعض ذيلها حين عجزت عن عض خصمها. ثم يكمل فى حكمة سليمان: السم إن لم يخرج من الجسم قتل صاحبه.

كنت أرى شجاراته بعد كل ترفيع يتجاوزه فيه الحزبيون الجدد، والمستزلمون، وكان ليبوسة رأسٍ فيه لم يستطع تغيير ولاءته بسرعة بعد الانقلاب الأخير كما كان يقول فى حزن فيما بعد، وكما فعل الكثيرون..، فتجاوزه الآخرون.. كنت أرى شجاراته بعد كل دعوة إلى حفل تكريم لا يكون فيه الضيف المكرَّم، وبعد كل رشوة كبيرة لا يكون له حصة فيها، وأخيراً تم ما كان يعرف الجميع أنه سيكون، فقد أحيل على التقاعد، وكان على أن أدخل فصلاً جديداً من فصول العذاب لو لم يصل معاوية تنبه سلمان ثانية، فها هو سيعرف أخيراً من معاوية.

كانت مسرة وزوجها نجيب قد جاءا لزيارتي بعد عودتنا إلى دمشق، وسرعان ما استعدنا صداقتنا بعد العودة من المدينة الميتة، وحين عرف نجيب أنى أرسم، ورأى لوحاتى أصر إلا أن يكون دليلى إلى عالم الأضواء وصالونات الفن.. ووافقت على إقامة أول معرض حقيقى لى فى مدينتى التى عرفتنى مشهورة فيما مضى بشهرة أخرى. تحت اسم فاطمة السنغال. أما الآن فقد تبارت الصحف فى الكتابة عن الفنانة،، المرأة التى اقتحمت مجاهل الفن، الرسامة التى مهدت لدخول المرأة عالم الرسم.. وهناك.. كان معاوية.

رفع سلمان رأسه، فقد حانت المواجهة، المواجهة مع ماذا؟ أتراه يغار عليها؟.. على فاطمة؟ حتى بعد موتها.. أهى الأوديبية؟ الأوديبية مع أب ميت لا ينافس.. ومع أم ميتة لا ينافس عليها، ولكن.. هل الأوديبية علاقة مع الجسد.. أم.. ولكنهما ميتان بحسناتهما وسيئاتهما، بل ربما معاوية نفسه الآن ميت، فممن تغار، وعلى من تغار؟ ثم.. الغيرة نفسها. أهى مقبولة من المثقف.. المخرج. و.. الكاتب، والناقد الجارح.. تأمل الستارة الكثيفة ثانية.. أيعقل، ألست تتسرع. أيعقل للأصابع الحانية معابثة شعر الرأس، والدندنة الغائبة بأغنية حوِّل يا غنام حوِّل.. أيعقل لهذه الأصابع الحانية أن تعابث غريباً.. لا.. وانتفض مغيظاً.. لا.. الكتاب كله تزوير. ثم من قال إنها كتبته، ومن جعلها على معرفة بهذا الغسان، ولماذا تودعه مثل هذه الأوراق الحميمة. ما الرابط بينهما.

انتفض واقفاً وقد قرر جلاء هذا الغموض دفعة واحدة. لن يستمر بهذه المهزلة بعد الآن إلا إن عرف تماماً أين يضع خطواته. ما هذه الأوراق. من كتبها فعلاً. أهى فاطمة.. أمه؟ ثم ما علاقة الموسيو غسان بكل هذا يجب.. يجب أن يحصل على كل الأجوبة وفوراً.

مضى إلى الباب، فتحه ليفاجأ بالصالون العتم. العتم تماماً، تقدم خطوتين مستضيئاً بنور غرفته الذى تقدمه إلى الصالون، ولكن.. أين مفاتيح النور.. تحسس بقدميه الأرض يحاذر التعثر، كان يبحث عن الجدار، فعلى الجدار دائماً مفاتيح النور، ولكن قدميه استمرتا فى تحسس السجاد السميك، ولا جدار.. أمعن فى البحث عن الجدار ولا جدار. ما معنى هذا. إنه يعرف جغرافية المكان جيداً.

دهليز يؤدى إلى الصالون الكبير، ثم يتفرع الصالون إلى عدد من الغرف. غرفة الطعام، وغرفة نومه، و.. أين هى بقية الغرف. ما وظيفتها. كان يجب أن يقرع جرساً ينادى خادماً. ولكنه لا يعرف أين الجرس. كان يجب أن يرى شق نور فى واحدة من الغرف، فينقر عليها مستنجداً، ولكن.. لا شق، ولا نور، والعمل؟.. هل يجازف وينادى الموسيو غسان بهذا الليل، وهذه الهدأة؟ لا.. سيكون السخرية لو فعل.

عاد إلى غرفته. النور. عاد إلى مجلسه الأول. نظر إلى كومة الأوراق المخطوطة فى كراهية.. هه. هتف ساخراً: لو لم يكن اسمى فاطمة، وهتف فماذا كنت تريدين لاسمك أن يكون إذن. رشا.. أنطوانيت!!..

أراد أن يتكئ بظهره إلى المقعد يسترخى حين لمح البراد، فتذكر أن فى البراد ما هو فى حاجة إليه. صب لنفسه كأس عصير برتقال، ولمح زجاجة الجن، فتردد قليلاً، ثم غلب التردد، فصب بعض الجن وهزّه قليلاً.. ثم عاد إلى جلسته. جرع جرعة كبيرة.. كان عطشان.. استرخى.

جرع جرعة أخرى وشعر بالتنميل اللذيذ يسرى إلى رقبته. قال: لا بد أنى جائع إذ لا يعقل لجرعة واحدة أن تفعل بى هذا، أراد أن يبحث عما يؤكل ولكن.. عينه وقعت على الكأس ثانية، فجرع جرعة أخرى ومال على المخطوط لا يريد القيام..

معاوية.. معاوية.. اللعنة.. ها هى رائحة العشب البرى المحروق، النعنع البرى، والنجيل والخرشوف البرى تفعم المكان. أعوذ بالله ما من مرة ذكرت معاوية إلا امتلأ المكان برائحة العشب المحروق.. الخريف.. الحقول فى الخريف.. بقايا النباتات المحصودة والمقطوفة.. الطيور الصامتة، الغيوم الصغيرة فى السماء، وفجأة تهجم الروائح. لقد جمع أحدهم أعشاب أرضه الزائدة وها هو دخان أبيض كثيف يندفع حاملاً معه روائح النعنع والخرشوف والطيون.. كنت أجلس متكئة إلى صخرة أو شجرة أتنشق، وأتابع غيوم الدخان الكثيف الأبيض. كانت متعة خاصة بى، متعة لا أعتقد أن هناك من يستمتع بها غيرى، متعة تنشق دخان الأعشاب المحروقة. كان ركنى يتململ مستسلماً لنزوتى، ثم يبدأ بالنحنحة. وأخيراً لا

يستطيع تمالك نفسه أمام سخف ما أصنع. أهناك من يتنشق الدخان المؤذى. أهناك من يلوث ثيابه برائحة الدخان. أهناك.. .. ويستمر فى التذمر والنواح حتى تتحول المتعة إلى عذاب، فأنفض مؤخرتى مما علق بها وأكمل نزهتى صامتة.

كان يحاول تسليتى، فيحدثنى عن السنة الطيبة التى اتضحت تباشيرها، وما يعنى طيبها من زيادة فى نسل الأغنام التى يشارك البو سعيد فى رعايتها. كان ينظر إلى السماء، ويقول: اللهم حوالينا ولا علينا. ولم يكن يحفظ من الأحاديث غير هذا الحديث، كان يخاف مطر الخريف المبكر، وما يمكن أن يجلب من أذى للقطن الذى زرعه فى حوض الفرات.. كان يثرثر ويثرثر، وكانت الغيوم تبعد هاربة فى السماء، وروائح العشب المحروق تتحول إلى وخز فى الحلق.

و.. كان.. معاوية.

آه.. المعرض الأول.. المعرض الذى ترى فيه بناتك للمرة الأولى يخرجن من خبائهن يعرضن أمام الخطاب.. البنت فى بيت أهلها هى الأجمل والأظرف والأذكى، ولكنها محاصرة دائماً بهمسة: القرد فى عين أمه غزال. ولن يكون الغزال غزالاً حتى يخرج إلى الآخرين ويعلنوا أنه الغزال و.. .. عرضت بناتى فى معرض الخريف.. الخريف أعوذ بالله.. أكان هذا هو السبب إذن.. فوحان ريح العشب المحروق لدى دخوله المعرض.. الآن حين أذكر دخوله المعرض وكان الجميع فى انتظاره، فهو من سيفتتح المعرض، ورغم قلقى وتوترى فلم يتأخر عن موعد الافتتاح. استقبله الحاضرون بالتصفيق، واستقبل التصفيق بالمزاح، فرد على التصفيق بالتصفيق، ثم الانحناء على الطريقة اليابانية، وسقطت الرسمية، وانتشر الضحك، وسمعت التعليقات على حسن حضوره وظرفه، و.. كنت أستعد لمصافحته حين هبت رائحة العشب المحروق.. .. آه.. بعد كل هذه السنين أتساءل أكانت رائحة العشب المحروق، أم القلوب التى ستحترق.

غص سلمان عند قراءته الملاحظة الأخيرة.. فاطمة.. تتحدث عن القلوب المحروقة.؟ لماذا.. فاطمة المتكبرة، ثم ألح السؤال: ولكن أين الأب، أين ركني؟ أيمكن ألا يكون فى حفل الافتتاح.

أسلمت إليه أصابعى أصافحه، ولم يخطر على بالى أبداً أنه سيصافح بهذه

الطريقة، فقد شد عليها حتى كدت أصرخ من الألم، وعوضاً عن الحرج الذى كان عليه أن يشعر به، فقد ابتسم فى ترفع ليسلِّم على ركنى، وكان الحرج الثانى إذ قال ببساطة.. أكانت البساطة أم.. اللؤم: أهنئك.. لديك ابنة رائعة..

بعد أسابيع وحين سنصبح صديقين سيعترف لى أنه قرأ فى ذلك اليوم تقريراً كاملاً عنى، منذ فاطمة السنغال، وأردت الاحتجاج، ولكنه أكمل: حتى زواجك من ركنى، وحياتك فى مدينة العمد المحطمة، ولما سألته: فكيف أخطأته وسميته أبى.. قال: أردت أن أصدمك.. أحسست بمبلغ الظلم الواقع على امرأة بجمالك وصباك وجرأتك وموهبتك حين تكون زوجة لمثل هذا الخرتيت و.. .. لم أدافع عن ركنى حين سماه بالخرتيت. ولم أفاجأ بأنه كان يعرفه، وأنه تعمد هذه الإهانة التى لم يستطع ركنى الرد عليها فى حينها.

الخرتيت.. الخرتيت.. إذن فلم أكن أنا، ولا شلة الباند الموسيقية التى شكلناها من سماه بالخرتيت.. ولكن كيف تسرب إلينا هذا الاسم إذن.. أهى فاطمة.. من ذكره.. أم أنه توافق الرأى.. أم أنَّ فيه شيئاً من خرتيت.. .. حدق فى الستارة السميكة، وكانت يده قد دلقت فى حلقه الجاف آخر قطرات العصير.. أووف. ما كان له أن يتصور يوماً يقرأ فيه عن حياة أمه الخاصة بهذه الحيادية.. والأب؟ أكان يتصور أن يقرأ أن صديقاً لأمه أو أن أمه، نفسها تدعوه بالخرتيت. ولكن.. سلمان.. أنت تتغير. انتبه. ها أنت تخرج فى قراءتك من إهاب الابن لتدخل فى إهاب المخرج، الكاتب، القارئ المحايد يقرأ نصاً يحاكمه فى حدود غلافه.. أنت.. أووف.. أى تشوش.. أى تشوش.

استرخى بظهره إلى ظهر المقعد. المدينة الميتة، مدينة العمد والتيجان الدورية والكورنثية المحطمة.. المدينة الميتة. مدينة الريليفات تحمل وجوه وأحزان أولئك الذين ماتوا قبل بضعة عشر قرناً، ولكن غروراً فيهم جعلهم يرفضون الموت، فكلفوا من نحت وجوههم، ووجوه أحبائهم، وعائلاتهم، وخدمهم على توابيتهم.. المدينة الميتة.. المدينة التى حاولت الخروج من الهلينستية، فكان نصيبها أن اختصرت إلى صور وريليفات على توابيت..

نظر إلى كأسه الفارغ. انتصب. ملأه، ثم عاد إلى جلسته المريحة، وما كاد

يعيد الكأس إلى طاولة الشراب المجاورة حتى وقع نظره على المخطوط مقلوباً على وجهه.. وقرأ العنوان بالرقع .. المدينة الميتة.. الخط.. رجلي.. مختلف تماماً عن خط المخطوط في انحناءاته، وزواياه وتخطيطه. من وضعه؟ أهو غسان؟.. ولكن لماذا؟ إنه لم يقرأ موتاً حتى الآن، فكل ما قرأ، وبمعزل عن علاقاته الشخصية بالأمر هو عن امرأة متزوجة زواجاً ربما لم يكن سعيداً، بل -وتردد قليلاً - لا لم يكن سعيداً.. وماذا بعد.. المخطوط كما يبدو يقودنا إلى علاقة محتملة.. فنانة و.. مسؤول ما، معاوية. في أي زمن؟ المخطوط لم يحدد بعد؟ كيف تمت العلاقة.. ولنفرض أنها تمت.. أين المدينة الميتة.. جرع جرعة يائسة أخرى من كأسه، وعاد إلى المخطوط.

وكنت قد ألححت على حضور ركني أحمي نفسي به من ألسنة الفضوليين، ومن الرغبات المائعة التي انتشرت في المدينة، والتي تعرض تبذلها في كل وقت وفي كل ظرف، وكأن لا هم للإنسان إلا إرضاء الأجزاء الواطئة في جسده.. كان ركني قد عاد من رحلته إلى البادية يتفقد قطيع غنمه، وحاجات الراعي قبل قدوم الشتاء.. كانت هذه عادة له ألا يقصر في إمداد رعاته بما يحتاجون إليه، ولكنه لا يتسامح معهم في جزة غنم، أو في حمل لم يفطم، وكانت جملته الشهيرة: خود حقك وأعطيني حقي.. ولكنه في هذه المرة كان قد تحقق أسوأ أحلامه، فلقد هبت عاصفة مطرية مفاجئة على البادية في غير أوانها، فالزمان أيلول، ومطر أيلول كما يعرف الجميع مطر مهذب، مطر مداعب. ولكنه كان هذه المرة عاصفاً مغتصباً فاجأ قطعان الغنم في الوادي الذي تحول في أقل من ساعة إلى سيل أغرق قطيع ركني كاملاً. كان يتمتم. مئتا راس.. مئتا راس يا عالم.. مئتا خروف جديد، مئتا جزة غنم. أطنان الجبن والسمن والحليب. كلها ببولة واحدة من سماء لا ترحم. وكان من حسن حظي أني لم أصحبه في رحلته إلى البادية هذه المرة رغم اشتياقي إلى الأصدقاء وإلى المدينة الميتة.. صدم سلمان، فها هي تذكر اسم المدينة الميتة للمرة الأولى. إذن فالعنوان من صنعها، ولكن لم لم تعنون المخطوط به. لم اكتفت بالعنوان الثانوي «لو لم يكن اسمي فاطمة» وتنهد في أسى. إذن فلم أكن أنا من عنون المعالجة باسم المدينة الميتة.. إنه بقية من حكاياتها عن رحلاتها

مع أبى أثناء عمله مديراً للمال وجامعاً لضرائب الأغنام والإنتاج الزراعى.. تنهد مفكراً.. لا بد أنها قد ذكرت هذا الاسم امامى مرة، فعلق بالذاكرة.. المدينة الميتة، ثم حين قررت العمل على الفيلم التوثيقى اخترت هذا الاسم..

أحسَّ فجأة بحزن صغير.. كنت أظن أنى من ابتكر هذا الاسم، كنت أظن أنى قد قلت شيئاً لم يقله آخر من قبل.. المدينة الميتة.. ما الذى كنت أعنيه بالمدينة الميتة. هل كنت أنعيها، أبكى عليها، أتمنى حياتها، كانت المعالجة تتحدث عن تلك الفترة الذهبية من التاريخ – الهلنستية. حين التقت الثقافات والشعوب فى تجربة نادرة، فى امبراطورية كونية أنتجت الفلاسفة، والشعراء والسفسطائيين والخطباء والمسرحيين. إن اعظم ما بقى للفكر الإنسانى هو من نتاج تلك الفترة، كنت أحن. أحنٍّ؟ أتمنى. لقد عشت لزمن طويل فى موسكو، موسكو العالمية حيث التقيت شعوب الأرض كلها فى طلابها، التشيليين والسيريلانكيين، الفيتناميين والكونغوليين. كان أستاذى ينظر إلى هذه الفسيفساء من البشر، ويقول: لو كنت أملك القدرة على قراءة المستقبل لخمنت: من من هؤلاء الشباب سيكون حاكم بلده فى المستقبل، وأى منهم سيكون المفكر والمبدع والفيلسوف، والقاتل.. همم.. كان على حق. ولكنه لم يستطع أن يقرأ: أى من هؤلاء الشبان سيكون المخرج الفاشل، والمبدع الممنوع من الإبداع.

نفض رأسه فى حدة.. لا.. أنا ابن الهلنستية، يستطيعون منعى من الإبداع والتفتح فى مدينتهم الميتة، ولكنى ها أنذا أمد يدى إلى الجانب الآخر من المتوسط، وأجد من يمنحنى الفرصة للتفتح.. أعجبته الفكرة، أعجبته حتى أحس بسمة انتصار تتسلل إلى وجهه. أنا ابن الهلنستية الجديدة، ولكن المدينة الميتة المخطوطة على غلاف المخطوط استرعته ثانية.. هه. قلت شيئاً لم يقل من قبل؟ هذه عجرفة كبيرة يا ولدى، فليس من إنسان على هذه الأرض يستطيع أن يقول إنه قال شيئاً لم يقل من قبل. ها أنت تكتشف أن حتى عنوان بسيط كالمدينة الميتة لم تقله، بل قالته فاطمة. وانتبه إلى أنها تتحول لديه من أم بأصابع حانية، وصوت مدندن إلى شخصية على الورق اسمها فاطمة.. ارتاح إلى هذا التغير.. هذا أفضل. بهذا أستطيع أن أكون أكثر حيادية فى قراءة المخطوط. نعم. سأبعد الغيرة والعواطف

الطفلية، وسأقوم بما افترض غسان أني قادر على القيام به، قراءة مخطوط ومحاولة صنع سيناريو منه..

كان غضبه مجنوناً. ولكنه لم يستطع توجيهه إلى أحد، فالسماء بعيدة وأنا بعيدة، ولكنه في حضيض حزنه لم ينس الجانب العملي، فاستدعى جزازين من المدينة ليجزوا صوف الأغنام النافقة تحت أنظار الرعاة المستائين من هذا الصَغار، الاعتداء على الأموات ولو من الغنم، وهكذا فقد ركني علاقته بالعشيرة، وراعيها، وكان عليه في السنوات التالية البحث عن مرابع أخرى، وعن رعاة آخرين يستكمل معهم مشاريعه الاقتصادية. أما الصدام معه فكان حين صحوت في اليوم التالي لوصوله.. مفاجأة برائحة فظيعة في باحة البيت وحين تقصيتها اكتشفت أنها جزات الأغنام حملت من البادية لم تغسل، ولم تمشّط، ولم يزل عنها البعر وأشواك البادية، تلك الأشواك التي ستظل حديقتي تعاني من بذورها لسنوات. وكان الشجار، وكان إصرار كل منا على موقفه، وكان يمكن له أن ينتصر، فالجزات موجودة، وعلى أن أرميها خارجاً إن استطعت لو لم تقم باكزة بزيارة مفاجئة لها أكثر مما كانت مفاجئة لي إذ كانت الرائحة أكبر من الاحتمال، وكان قرارها الذي لا رجعة عنه. وجاء من اشترى الجزات ببعرها وشوكها، وكان المعرض في اليوم التالي، وكان على أن أقارن بين متبارزين لم يشهرا سلاحاً. ركني الذي دب إلى شيخوخة كان يمكن لها أن تنتظر لو لم يستدعها بنظاراته الطبية وعصاه الأبنوسية وكرشه الوجيهة؟ وبين وقح ذي عينين اشد وقاحة، ونظرة تضج بالشهوة التي تسوط كل قطعة لحم تبرز من ثنايا الثوب، وكان اسمه معاوية. رمقني وهو ينصرف من المعرض بنظرة حرت في فهم مدلولها، ولكن حدساً لا علاقة له بالمنطق قال: لدى هذا الرجل مشاريع ليست نزيهة.. هززت رأسي أنفض الفكرة، فلقد تخطيت سن الشهوات والمطاردات منذ زمن طويل.. وأحاول العود إلى المعرض، إلى مسرة، وإلى نجيب زوجها الصحفي الذي كان يبذل جهده ليريني كم هو خدوم، فهو يستقبل الضيوف، يقودهم إلي، ويعرفني إليهم، يتبرع بشرح اللوحات لمن يريد أن يسمع، وفجأة لاحظت ابتسامات صغيرة على وجوه البعض، ونظرات تحاول أن تنظر مواربة. التفت إلى حيث كانوا ينظرون، وكان ركني يجلس

على كرسى بذراعين وقد اتكأ بذقنه على عصاه، وغفا.. وكان على أن أتصرف.. فالرجل زوجى فى المحصلة الأخيرة. اقتربت منه مازحة أتحدث عن تعبه الرهيب فى مساعدتى على تأطير اللوحات، وحملها إلى المعرض و.. يعطيك العافية.. وسمحت له بالانصراف إلى البيت، وما كان ينتظر إلا الخلاص من هذا الملل و.. مضى.

وفى اليوم التالى جاءت الرسالة البهيجة.. مراسل خاص من وزارة الثقافة تعلن أن الوزارة قررت شراء خمس لوحات من لوحات معرضى، وأن لى الحق فى اختيار هذه اللوحات وإرسالها إلى الوزارة ليبدأ المعنيون عملية إعداد الشيك مكافأة عن هذه اللوحات، هتفت إلى مسرة أكاد أجن من الفرح، وكانت مفاجأة حتى لزوجها الذى أبدى استغرابه فنادراً ما تشترى الوزارة أكثر من لوحتين، ثم هز رأسه فى حيرة حقيقية وتابع: إن اشترت، وغص القلب للحظة، فلقد تسرب إلى شك ما بأن وراء هذا الكرم معاوية. ولكن لماذا؟ ما الذى يبغى من زوجة لديها ولدان، وتخطت الأربعين من العمر، وألحَّا فى وجوب إرسال اللوحات بسرعة إلى الوزارة، وتبرع نجيب بإيصالها إلى الوزارة بنفسه.

رفع سلمان رأسه يراجع نفسه، إنه يتابع ما يجرى فى حياد. ليس فى حياد فقط،، بل فى اهتمام قارئ يتابع حبكة يريد أن يعرف إلى أين تؤدى. لم يعد يحس بالغيرة، لم يعد يحس بتلك الإهانة السرية أن يعرف أنَّ أمه، أمه القديسة، وضبط نفسه يعض على شفته فى غيظ: ماذا. ماذا يا سلمان هل حاكمتها وأدنتها، ثم قررت الغفران لها؟ من أعطاك كل هذه الحقوق.. الرجل طلب منك أن تتعامل مع مادة أدبية لصياغة سيناريو منها. أين مهنيتك التى دربت عليها، أين دراستك للشخصيات وعمقها، وكثافة روحانيتها، ومحاولة الوصول إلى النموذج الحى منها.

ثم ما يدريك أن هذه مذكرات فاطمة أمك. لم لا تكون نصاً أدبياً من وضع غسان نفسه، استفاد من شخوص عرفها، وبعض أحداث يعرفها، وبعض إشاعات سمعها ليصنع من هذا كله نصاً أدبياً. أليس هذا هو الأدب؟ أليس بعض الحقيقة مضخمة بمضخم الخيال والأدب. أكان هاملت شكسبير هو هاملت الواقع؟ ما مدى الاختلاف. ما مدى الصلة بين الجذر الواقعى والجذع الأدبى؟ هذه المشكلة

أزلية. لا تقع فى المطب العامى فى محاولة قراءة الواقع من خلال النص الأدبى. النص الأدبى يحاكم من خلال نصيته، أدبيته، مصداقيته الفنية. أليس هذه الأوليات التى تعلمتها فى دراستك.

أغمض عينيه فى قساوة يحاول فصل نفسه عن الخارج، وكأنه يفصل ذوقه الأدبى عن الخارج كى يستسلم لجوانية داخلية، وأدبية النص الذى يعمل عليه، ولكنه لم يستطع المكابرة طويلاً إذ هتف ساخراً فجأة:

خمسة عشر عاماً شبه عاطل عن العمل. تكتب دراسات عن أفلام أنجزها غيرك، وسيناريوهات تقدمها لشركات الإنتاج التلفزيونى، فيعتذرون عنها، ولا يصرحون بالسبب، ولكنك تعرف، فلقد قالها لك زميل قارح: هذه السيناريوهات مثقفة أكثر مما يجب. ثم يضيف يتظاهر بالمزاح ويعنيها: لقد أفسدتك الثقافة، فأصبحت بعيداً عن روح الشعب. وبدت كلمة روح الشعب كاملة الغربة عنه، فهؤلاء الذين يعلنون أنهم يعرفون روح الشعب، ويكتبون عنها، ليسوا إلا أميين، أو أشباه أميين ينقلون نماذج عن أعمال أدبية، أو سينمائية أنجزها مثقفون آخرون لثقافات أخرى، فأخذوا قشورها، وملأوها بغازاتهم ومسخراتهم، ثم قالوا روح الشعب. وتنهد: من يعرف روح الشعب إلا عبقرى متنسك. أما هؤلاء الساعون وراء.. ضبط نفسه فى واحدة من نوبات رثاء النفس، وشتم أولئك الذين لا يعرفون ما كان يمكن له أن ينجزه لو. لو أتيحت له الفرصة، وها هى الفرصة تتقدم منه محمولة على مخطوط من ورق، ومنتج مجهول على استعداد لتقديم كل التمويل الممكن لإنجاز هذا الفيلم، ولكن عن من.. عن من.. وهل يستطيع أن يكون محايداً حياد الفنان فى تعامله مع مادته الفنية. هل يستطيع تجاهل أن الموضوع الذى يشتغل عليه هو عن أمه.. هل يفضحها، ويتحدث عن تجربة عشق لها.. تنهد ثانية.. ولم لا تلجأ إلى الحيلة. تغيِّر اسمها واسم زوجها وبعض ظروف الزمان والمكان، فيصبح الموضوع موضوعاً أدبياً صرفاً.. وأنت. هل ستنسى أن الموضوع هو فاطمة. هل تستطيع تصوير الممثلة التى تمثل أمك وهى بين ذراعى.. معاوية مثلاً..

أغمض عينه فى ألم: ما له ولهذا الامتحان، ولم يكن قدره تحديداً هو إما الوقوف على الرصيف يتفرج على الآخرين يبدعون وينجزون، وإما أن يكون

الموضوع الوحيد المطلوب إنجازه هو الحديث عن غراميات أمه.. ولكن.. من قال إن هذه الأوراق هى قصة غراميات. أليس من المعقول أنها قصة عذابها بالتحديد. إن لوحة الغزال الهارب إلى البركة واكتشافه أن ما ظنه بر الأمان لم يكن إلا شرك الموت. أليست هذه اللوحة التى رسمتها عدة مرات كما يبدو، أليست نداء استغاثة، صرخة عذاب. يأس امرأة لديها هذه المواهب المتفجرة؟ والحيوية المدهشة تكتشف لدى نضجها أنها متزوجة من.. من.. خرتيت مثلاً؟ ليس هذا فحسب، بل وخرتيت عجوز لا يستطيع تلبية متطلباتها. أليس هذا الموضوع موضوعاً إنسانياً شاملاً يمكن أن تجده فى كل الحضارات، ولدى كل الشعوب؟ فلم تخجل من مواجهته، حسن. لم تعد الطفل ولا المراهق، أنت رجل على أبواب الكهولة وتعرف حقائق الحياة، فلم تقبلها لدى الآخرين وتنكرها على نفسك.؟

قام إلى البراد ثانية.. ملأ كأسه بخليط البرتقال والجن، اقتطع قطعة جبن لاكها، ثم جرع جرعة من كأسه يفكر، قال: هل الأم الميتة أم؟ أم أنها وقد ماتت فقد تحولت إلى فكرة.. إلى تاريخ، إلى كلمة. لم تعد حياة يمكن لها أن تحنو وتغضب، وتشعر بالعار، لقد صارت كلمة.. فهل تحاكم الكلمة كالحياة؟ بدت الفكرة جديدة. كان سبب قدومك إلى هذا المكان لإنجاز فيلم توثيقى عن المدينة الميتة.. الميتة؟.. لم تكن عن المدينة الحية. وها هى الأم الآن ميتة. تماماً كالمدينة الميتة. المدينة الميتة تركت عواميد وتيجان عواميد، وريليفات لأموات لم يتبق منهم حتى رماد العظام، ولكنك تريد أن تحييهم بالفن من عواميد إلى حياة، تريد مجادلتهم فى تاريخهم، وما عاشوا من أجله، وماتوا من اجله.

أليست هذه هى فاطمة؟ فاطمة ماتت. تحولت إلى كلمة، لغة.. تبقى منها كلمات تتحدث عن عواطف عاشها قبلها الملايين، ويعيشها الآن الملايين، وسيعيشها حتى بعد أن تصبح أنت نفسك رماداً الملايين أيضاً. فلم قبلت بإحياء المدينة الميتة.. وتخجل من إحياء فاطمة الميتة؟.

كانت المفاجأة التالية الكتابات النقدية تشيد بمعرضى فى صحيفتى الحزب والدولة، كانت الكتابات تتغنى بالفنانة الوعد، الفنانة الأمل، آه.. كنت الساذجة، وكيف كان لى أن أعرف فى تلك الفترة المبكرة من التعامل مع ذلك الغول العجيب

المسمى بالدولة الحديثة أن تلك الكتابات لم تكن إلا استجابة لأمر غامض قدم من مكان غامض إلى اشخاص يعملون فى الصحافة لتنطلق الحملة، وحتى نجيب نفسه وابن المهنة المحنك لم يستطع إدراك أن ما يجرى لم يكن إلا استجابة مصطنعة لأمر غامض من جهة غامضة تعد لصناعة معجزة. هل قلت معجزة؟ صحيح. كان الأمر معجزة، ولكن ما المعجزة. إنها الخروج على القانون، على العادى، على الطبيعى، ولكن مجترحها هذه المرة لم يكن قديساً.. هه.. من قال إنه ليس بالقديس، وهل القدسية ما ارتبط بالله والسماء والأشخاص الأتقياء. القديس هو من يستطيع اختراق القانونى والعادى بقوته الشخصية أو السماوية. صحيح. فى السنوات التالية أخذت ألحظ هذا الاصطناع العجيب للقديس المعاصر، مخترق القوانين، وصانع المعجزات آه.. أووف.. هه.. الآن فقط أدرك أن المعجزة تحتاج لطرفين؛ المجترح، والقابل لها، المبهور بها، والمروِّج لها، وأنا كنت القابلة المبهورة السعيدة بنتائجها. آه.. الآن فقط أدرك أن الشعب المؤمن بحصول المعجزات هو شعب ما قبل القانون، الكاره للقوانين، المتمنى سقوط القوانين وانهيارها، فإذا سقطت آمن بأن من أسقطها قديس.. صانع معجزة.. الآن فقط.. أدرك كيف تتقبل الشعوب الدكتاتور محطم القوانين، وجاعل كلمته القانون. إنها شعوب ما قبل القانون، الشعوب المؤمنة بالمعجزة، وها هو الدكتاتور يصنع المعجزة. لقد حطم القانون.

قرأ سلمان المقطع الأخير، أعاد قراءته مبهوراً يتساءل أكانت فاطمة إذن على هذا القدر من الوعى، على هذا القدر من القدرة على التحليل والاستبطان؟ ولكن متى أنجزت كل هذا؟

إن كل ما يعرفه عنها منذ غادر إلى موسكو ليدرس السينما هو أنها بدأت تشتهر كرسامة، رأى رسوماتها وكانت عينه قد تدربت على القراءة الفنية فى المتاحف، فلم ير فيها فنانة كبيرة، وإن كانت قد تفوقت على جيلها وخاصة النساء بمراحل، إنه يذكر أنها كانت فى طريقها إلى هجر أبيه، ولكن وفاته المفاجئة عادت بها إلى البيت، أعوذ بالله كم الإنسان غامض، هذه المرأة كأنها ليست أمى.. أنا لا أعرفها.. هذا العالم السرى الذى أنبشه الآن.. أنا الذى كنت أرى النساء

ديزدمونا وأنا كارنينا وسونيا راسكولينكوف وروز الوكسومبورغ.. هل كنت أتخيل أن تكون المرأة الأقرب إلى جلدى.. المرأة المشاجرة، المعتزلة فى غرفتها، المدندنة بحوِّل يا غنام حوِّل تحمل كل هذه المعاناة.. وكل هذه الكثافة.. إيه.. حوِّلوا زوربا إلى أبو الشيما.. فإلام حوَّلوك يا فاطمة.

للمرة الأولى وبعد سنى السنغال وبلومبرغ بلومبرغ ثانية من هذا البلومبرغ؟ والصحافة المطاردة، والخوف من الصحافة، وأوغستان.. إه.. أوغستان. من هذه المرأة.. أهى أمى فعلاً.. أهى فاطمة التى أعرفها؟ السنغال التى لم يحدثنى أحد قط عن سفرها إليها.. ما لها وللسنغال؟ ومن هؤلاء الأشخاص.. بلومبرغ وأوغستان؟ لأول مرة أجد نفسى أتقبل الصحافة، أصادق الصحافة، أشعر أن الصحافة تعمل من أجلى، ثم انتقلت الكتابة عنى من دمشق إلى بيروت، وكان على أن أنتظر السنين لأنضج وأعرف أن هناك صحفاً تباع وتشترى، وكانت الصحيفة البيروتية من الصحف الصديقة التى تفهم الإشارة.

الخطوة التى تلت الصحافة كانت دعوة موجهة من وزارة الثقافة للطواف بمعرضى على المحافظات، ولما سألت نجيب عن أهمية مثل هذه الدعوة صعق لجهلى بما يقدِّم لى، وكان على أن أمضى إلى الوزارة لأتقدم بطلب طواف معرضى على المحافظات، وفى الوزارة كانت المفاجأة التالية.. لوحة الغزال الجريح يحاول الطيران..

كانت فى صدر القاعة حيث كان معاوية بانتظارى، وتظاهرت بأنى لم ألحظ اللوحة، فتظاهر بأنه لم يلحظ أنى لاحظت وجود اللوحة، وقام بصب القهوة المرة لى من مصب خاص إلى جانب مكتبه، كان تقديم القهوة شخصياً تكريماً أعرف قيمته منذ كنت مع ركنى فى المدينة الميتة والبادية، شربنا القهوة، تقدمت بالطلب، حضر المراسل يحمل الشيك ثمناً للوحات، كان كل شىء يجرى بسهولة، بلين، بحيث لم ألحظ أن هذه معاملة شديدة الخصوصية، وفجأة طرح الاقتراح العجيب الذى لم أتوقعه أبداً، عرض أن تستفيد الوزارة من كفاءاتى كفنانة فى العمل فى مديرية الفن التشكيلى، فاجأنى الطلب، ولكنى كنت أعرف الإجراءات، فأخبرته ببساطة أنى لا أحمل الشهادة الثانوية، فقال ببساطة أيضاً: أعرف. ولما سألته:

أليس من الشروط الأولى للعمل الحصول على الثانوية. قال ستحصلين عليها. وضحكت، فما لى وللدراسة. صحيح أنى فى منفاى فى المدينة الميتة قرأت من الأدب ما يفوق الجامعيات، وصحيح أنى قد أدمنت قراءة الفلسفة وعلم النفس، وصحيح أنى أتكلم، وأقرأ الفرنسية بطلاقة، والفضل لأوغستان ومكتبته التى تركها لى، ولكن كل هذا لا علاقة له بالشهادة والامتحانات. قال: دعى هذا الأمر لى. إن أردت العمل فى الوزارة فستحصلين على الثانوية.

قرع الباب. دخل موظف من معاونى معاوية، فطلب إليه تقديم طلب بإسمى للتقدم للشهادة الثانوية، ولما فأفأ الموظف معتذراً بأن وقت التقدم قد فات لم يتردد معاوية للحظة. قال: خذ هوية السيدة، وتقدم بالطلب، واترك الباقى لى.. إيه.. وكانت المعجزة الثانية قبول طلب التقدم للشهادة الثانوية مباشرة بعد هاتف صغير لوزير التربية كما سأعرف من معاوية، وتقدمت للامتحان مرعوبة، ولكن رئيس لجنة الامتحانات هدأنى، ثم أمر بنقلى إلى الركن الأقصى فى القاعة، وهمس يطلب منى أن أكتب ما أشاء ولا أهتم فالأمور تحت السيطرة، ولما لم أكن أملك خيارات كثيرة، فقد كتبت كل ما خطر على بالى، وقبل قرع الجرس جاء من أخذ ورقتى، وقدم لى ورقة محبَّرة حتى السطر الأخير، ولم يطلب منى إلا أن اضع اسمى، ورقمى عليها، وفعلت.. وكانت المعجزة.. .. حصلت على الشهادة الثانوية.

وتتالت المعجزات، وكنت سعيدة فى أنى المتمتعة بخيرات هذه المعجزات، المعرض الجوال، التغطية الصحفية والتلفزيونية فيما بعد، العمل مشرفة على الفن التشكيلى فى الوزارة، لم يفعل معاوية خلال هذه المعجزات كلها ما يزعجنى، بل لم يتقدم ولو بجملة إطراء، أو تحرش تفيد أنه يريد خدمة ما، ثمناً لكل هذه المعجزات، وأخذ توترى وحذرى يضمحلان، وأخيراً جاءت المعجزة الكبرى، المعجزة التى ما كنت أجرؤ حتى على الحلم بها، دورة تثقيفية مدفوعة التكاليف فى أوروبة الغربية باريس، روما، فلورنسا.

وكانت المعجزة الحركة الأخيرة فى لعبة الشطرنج الطويلة و.. كان فى استقبالى فى باريس ليقول: الحركة التالية لك. وكانت حركتى التالية هى، السعادة بأن مخاوفى من الضياع فى باريس، من أن مندوباً من السفارة لن يكون فى

استقبالى، من أن الحجز فى الفندق لن يكون مريحاً، من أن نجوى لن تكون سعيدة فى غيابى.. من أنَّ، وأنَّ، وأنَّ.. ولكنه كان هناك، قال: لن تحبى الإقامة فى الفنادق، استأجرت لك شقة مفروشة صغيرة.. لست أدرى إن كان أحس بصدمتى، أو خوفى. إذ تابع: ستدفع السفارة نفقة الشقة كاملة!.

قبّل يدى فى حركة لا بد أنه تدرب عليها طويلاً، فلم يسبق له أن قام بها، وحين سأذكر هذه القبلة فيما بعد سأهز رأسى متسائلة عن عدد المرات التى درّب نفسه فيها على هذه التحية الفرنسية.

فى تلك الليلة الأولى فى باريس تعشينا معاً عشاء طلبه من مطعم قريب، وفرضه على فى لطف فى الستديو الصغير الذى رأيت على جدرانه تواقيع عدد من الرسامين. قال لى إنهم من سكن فى هذا الستديو منذ بداية القرن، ثم أضاف ضاحكاً: وسيكون توقيعك تتويجاً لكل أولئك الرسامين الذين بدأوا صغاراً فى هذا الستديو، ثم.. ألح على بالتوقيع إلى جانب أسمائهم، ولما ترددت خجلة، فكيف اضع توقيعى إلى جانب دالى، وشاغال، وتومسون، أمسك بيدى بقوة، وأعطانى الريشة، وساقنى إلى بقعة خالية من الجدار، وقال: اكتبى اسمك بالعربية، ووقعى، وحين كنت أطيعه كاتبة اسمى احتضننى من الخلف، ولم.. أكمل التوقيع..

الستارة السميكة تحجب النور، وتحجب الظلمة، الستارة السميكة قاطعة الصلة بين الغرفة - المكان - المقرأ، وبين الخارج - الباحة - الظلمة. الستارة السميكة التى كان سلمان يحدق فيها شبه مخدر، شبه نائم، شبه مصدوم مما قرأ ولا يصدق. كان يريد أن يتعامل مع الآخر كنص أدبى، عن حياة امرأة مشحونة بالحيوية والعاطفة، والرغبة فى الحياة، ولكن. إنها فاطمة، ومن فاطمة هذه يا سلمان. أهى فاطمة الحوِّل يا غنام حَوِّل، والأصابع الحانية تمشط الشعر الكستناوى الطويل، ثم تنحنى على الوجه تظنه النائم، فتطبع قبلة، لا.. إنها فاطمة أخرى لا تعرفها، وبما أنك لا تعرفها فهى فاطمة أخرى، وأنت مشروع المخرج، مشروع الكاتب، والمدرب على التعامل مع البشر على أنهم موضوعات فنية لا ينبغى ولا يجوز، ولا يحق لك أن تشخصنها.

الموسيو غسان أعطاك أوراقاً، وقال: اقرأها لعلنا نستطيع صنع سيناريو أدبياً

منها، ثم تنفيذه فيلماً ولكن.. فكر قليلاً.. المادة الدرامية المطروحة حتى الآن مادة صغيرة، ساذجة، مكرورة. صحيح أنها حارة وجارحة لـ.. الكاتبة ولـ.. قارئ المعنى.. ولكنك حين تقرأها فى حياد القارئ المنفصل عن موضوعه لن تجد فيها مادة كبيرة تصلح لعمل سينمائى تقارع به الزمان لتقول لوجوه الدولة الذين منعوك من العمل، ولزملائك ممن عملوا تحت شروط أخرى: انظروا. أى كنز ضيعتم على البلد والفن.

تنهد وهو يدفع الأوراق مع الطرابيزة الصغيرة إلى مسافة تسمح له بالقيام، قام، وما كاد حتى سمع هريراً بعيداً، فاقشعر جسده، كان الهرير ضعيفاً، ولكنه قريب، قريب جداً. ترك رجليه تتحركان باتجاه الصوت ليجد نفسه يتجه إلى الستارة.. توقف ملاصقاً لها يتسمع.. كان فى واحدة من تلك الحالات المترددة ما بين أدنى الثمالة، وأقصى النعاس، وأعمق التشتت.. كان يشعر بنفسه مسوقاً. من السائق؟ لا يعرف. إلام يساق؟ لا يعرف، وكل ما كان يشعر به هو أنه ليس فى كامل وعيه ولا تمام إدراكه، بهدوء خالط الهرير بعض نحنحة، وبعض فحيح، وبعض هنهنة، فتساءل: ما الذى يجرى.

فجأة امتلأ بقوة لا يدرى مصدرها، قوة جعلته ينقض على الستارة، ويشدها، فإذا بها تنشق إلى الجانبين: كستارة مسرح.. تمتم.

كان العالم خارج الستارة والنافذة نهاراً، كان مشمساً وكان مضاء، وكان القعود منتصباً يرغو، والخطاطيف ترفعه عن الأرض معلقاً فوق نار هادئة، وكانوا جميعاً متحلقين على مسافة قريبة منه ينتظرون الوليمة تنضج على النار الهادئة.

أطبق الستارة مرعوباً، فعلا الرغاء.. جذب الستارة برفق يتأكد إن كان ما رأى صحيحاً، فتسرب الهرير، والفحيح، والنحنحة، والهنهنة حين سمع نقراً على باب الغرفة وراءه، فالتفت وحين التفت سقطت الستارة مسدلة على مشهد القَرَم العظيم.

التفت إلى الباب. كانت الخادمة. قالت: أيريد سيدى خدمة ما قبل أن أنام.

– تنامين؟ الوقت صباح.

قالت برزانة: الساعة الآن الثانية عشرة، منتصف الليل. والعادة أن نسأل ضيوفنا إن كانوا يريدون خدمة ما قبل أن ينام الخدم.

قال فى خجل وحيرة: لا.. شكراً.

كان الصالون من خلفها معتماً تماماً. أغلقت الباب، واختفت. لم يجرؤ على العودة إلى الستارة والنافذة والقعود.. اختفى الهرير، والنحنحة، والهنهنة. عاد إلى التشكك بحواسه:

– لا بد أنه الكوكتيل اللعين. قالها وهو يرمق الكأس الفارغ.

عاد إلى مجلسه، إلى المخطوط، وهاجمه السؤال: فمن هى فاطمة إذن. فاطمة مداعبة الشعر وقبلة الجبين. وما هذا كله إلا خيال متسرب من ذاكرة لا يعرفها غيرى، فمن يعرف ملذات المشمش المجفف المسروق من خزانتها غيرى، وغيرها. تلك التى كانت تبتسم فى مكر حين تكتشف السرقة، والتى سأعرف فيما بعد أنها ما وضعتها ها هنا إلا لتسرق. من يعرف هذا غيرى. أفإن مت أو أصبت بفقد الذاكرة ماتت فاطمة الحوِّل يا غنام حوِّل. أهى حية ما دمت حياً، أحياتها إذن هى ذاكرتى، ولكن فاطمة الأوراق حياة أخرى.. إنها فاطمة أخرى، وحياة أخرى، وكأن المخلوقين لم يلتقيا يوماً. إن كل فاطمة فيهما لها حياة محفوظة فى شكل ذاكرة يختلف عن الآخر. كيف يمكن للكاتب التعامل مع فاطمة الأوراق دون إلحاق العار بفاطمة الذاكرة. فاطمة الذاكرة حوِّل يا غنام حوِّل. فاطمة الشجار مع الأب، فاطمة المشمش المجفف، ومربى الباذنجان الفاشل، فاطمة القديسة هذه، ما علاقتها بفاطمة الأوراق، الفنانة التى سافرت إلى السنغال، والتى لها علاقة ما مع معاوية وأوغستان وبلومبرغ. من هذه الفاطمة. أهى هى. أهى فاطمة الحوِّل يا غنام حوِّل نفسها.

كانت الحيرة أكبر من القدرة على الهضم. فجأة أحس بالجوع.. كان يعرف هذه الخصيصة لديه. يختفى الجوع ويُنسى، وفجأة وعند ارتباك الحواس يهرب إلى الجوع. مضى إلى البراد، صنع ساندويشاً صغيراً ابتلعه بلقمتي جائع. صب كأساً جديداً من برتقال وجن... نظر إلى المخطوط في رعب.. أيكمله..؟ مد يده

يريد أن يكمل القراءة، وفجأه السؤال المحير ثانية: لو لم يكن اسمى فاطمة.. هاه ها هى نفسها تشعر بالارتباك بين فاطمة الحقيقية، وفاطمة الاسم. أهما الشخص نفسه. المخلوق نفسه، أم أن لكل منهما حياة منفصلة.

أووف.. أشعل التلفزيون، واسترخى يتفرج حين أحس أصابعه تتسلل ثانية إلى المخطوط.. كان لا بد للحبكة من أن تعيش حياتها الخاصة. قلب المخطوط على الصفحة المفتوحة.. خاف.. قال: لا أريد قراءة المقروء.. قلب عدة صفحات وفجأة توقف. ما الذى أغرى هذه المرأة المسماة بفاطمة أن تكتب ما تحرص نساء الشرق على دفنه تحت عدة قبور؟ تجاوز مجموعة كبيرة من الصفحات، ثم فتح المخطوط.

الآن أدرك أن الحب وهم كبير، وهم اصطنعه الإنسان للتغلب على الموت، للتغلب على الملل. الآن فقط أدرك أن بعض من يسمون أنفسهم بالعشاق ليس الحب لهم إلا السلم يعبرون عليه إلى هدف آخر وضعوه أمامهم منذ البداية.. الآن.. آه.. لا بد أن النوبة التى اصابتنى بالأمس كانت حادة. رأيت ذلك فى وجه نجوى رغم أنا لا نتبادل الحديث، رأيت الرعب على وجه مسرة، ورأيت فرحة الصعداء على وجه نجيب. أفكانوا يعتقدونها النهاية.. هه.. عمر الشقى بقى.. الآن فقط أدرك أن ما كان يحرك معاوية ويدفعه إلى كل هذا التفانى لم يكن الحب، بل كان.. كان.. أعوذ بالله ما أصعبها!! قال فى لحظة بوح: كم أتمنى أن أسمعه يقولها. فسألته وأنا أرفع خصلة شعرى عن صدرى: ماذا.. قال: جملة قرأتها، وعشقتها، ولا أشتهى شيئاً فى الحياة إلا أن أسمعها. فكررت فى ملل أراقب ظهره العارى المنبطح إلى جوارى على السرير. قال: جملة كانوا يقولونها فى نهاية اللعبة: تفضل يا خوند.. لقد نلت العرش بسيفك.. انقلبت على جانبى حائرة. ماذا..؟ ولم يجب.. فكررت بحدة: ماذا.. ما معنى خوند، وأى عرش.. ولكنه كمن قبض عليه متلبساً بخطأة كبيرة هرب إلى التظاهر بالنوم العميق لا يسمع ولا يستجيب خوند؟ قالها فى حيرة. خوند؟ تنفس بصعوبة، ها هى فاطمة الأوراق تعترف بعلاقتها مع معاوية، وبسخرية لاحظ أنه لم يشعر بألم كبير.. فاطمة تعترف بأنها كانت على علاقة مع معاوية. ولكن لِمَ لم أشعر بالألم الكبير؟ ألأنها فاطمة أخرى، ليست فاطمة الحولِ يا غنام حولٍ.. ألأنها ليست فاطمة البزورية وأزرار

الورد وورق الغار، والآس، ومسحوق الصندل.. وتسللت برودة الكافور إلى قلبه. أحس بمتعة تقارب متعة حوِّل يا غنام حوِّل. تذكرها.. تذكرها.. يا إلهى. ما أغرب ألعاب الذاكرة. ما الذى أيقظها الآن. الطفل فى الصدرية السوداء والقبة البيضاء، والأم الشابة تمسكه من كفه الصغيرة تحدثه، ولا تبدى كبير اهتمام لفهمه ما تحدث به أو عدم فهمه، ولكنها كانت ربما تحدث نفسها. قلِّب خزان الذاكرة، لا.. لم تكن كاملة السفور فى حينها، ولكنها لم تكن المحجبة أيضاً. كانت تضع ذلك الإشارب الأزرق الخفيف، والمعطف البيج، تحاصرها العيون، والطفل مرتبك منزعج: لماذا تلاحقنا العيون.

البزورية.. صحيح. كان يسمع للمرة الأولى أسماء مثل ورق الآس المجفف، وزيت حبة البركة، ومسحوق الصندل، كانت تنتقل من دكان إلى أخرى، ثم تقول لى: احفظ المكان جيداً، احفظ الدكاكين.. حين تكبر قليلاً ستكون مهمتك شراء هذه المواد.. هل تعدنى؟ وكان يهز رأسه الصغير، فتقفز خصلة شعره الكستناوية على جبينه، وكان يضطر إلى رفعها بكفه حيناً، وبهزة عنيفة بالرأس إلى الخلف، فتعود إلى موقعها.. الفوِّه. ورق الجوز.. الزاج.. ما الذى كانت تصنع بها.

كان يعرف أن لديها مخبراً صغيراً تصطنع به عطورها الخاصة، وكريماتها الخاصة، ولكن.. هز سلمان رأسه: لا.. لم تكن هذه المواد لصنع العطور.. هاه.. أتراها كانت قد بدأت تركيب ألوانها الخاصة...

كنت أعرف.. قالها لى الطبيب بصراحة: أنت ترتكبين خطأً كبيراً. لماذا.؟. أجبته بلا مبالاة كبيرة: أبحث عن ألوان جديدة. ألوان العصَّارات والأنابيب لا تشفى الغليل. قال: أنت تخلطين الألوان بأصابعك.. أتعرفين ما معنى هذا.. أتعرفين كمية الرصاص والزئبق يتسرب إلى دمك.. وأخبرته أنى سأكون أكثر حرصاً. لن أخلطها بأصابعى العارية بعد اليوم. سأستخدم السكين والملوق الزجاجى والقفازات.

و.. لكن النوبة كانت قاسية. قالت لى مسرة: موتتينى من الرعب وأنت تنتفضين وتتشنجين.. فاطمة. ماذا فعلت بنفسك. كدت تقتلين نفسك. لماذا..

آه.. لماذا.. آه.. لماذا.. بدأ معاوية يتحدث عن ارتباط دائم، ولما ذكرته بفارق

السن بيننا قال إنه لا يكترث، فما يجمعنا أهم من العمر، وأحسست بإطراء كبير. كنت أقبله عاشقاً سرياً، وأتمناه زوجاً، وأعرف صعوبة ذلك، فبيننا زوج وأولاد، وارتباطات كثيرة والأهم من هذا كله فارق السن، كنت أكبره بعشر سنوات. وعشر سنوات أنا أعرف أنها ليست بالأمر السهل فى العلاقة بين الرجل والمرأة.

رفع سلمان رأسه: أكان هذا سبب الشجارات الطويلة بين ركنى وفاطمة، أكان هذا سبب الرغبة فى الطلاق والانفصال عن ركنى.. أكان هذا.. قلب الصفحات بسرعة يريد أن يعرف ما الذى منعها من الطلاق والزواج من معاوية.

.. آه.. وتتالت النوبات. وكان الرعب حين قال لى الطبيب فى بيروت: إنه الصرع.. الصرع؟ أنا؟.. قال: لقد تراكم الرصاص فى دمك. أعتقد أن أطباءك السابقين قد حذروك.. وبكيت أخبره بأنى قد توقفت عن مزج الألوان بأصابعى المباشرة منذ زمن طويل.. وهز رأسه فى أسف: ربما كان التوقف متأخراً يا سيدتى. دمك ملوث بالرصاص، وهذه النوبات ليست بشارة خير. عليك أن تحذرى أن تصابى بواحدة منها فى الطريق، أو فى المسبح.. فربما كانت القاتلة.

قال: أنا لا أكترث.. صرع.. أم غير صرع.. لا يهمنى. وعدتك بالزواج، وسأتزوجك ولو على فراش الموت.

كان الإطراء كبيراً.. كان الإطراء نعمة أكبر من احتمالى. وحين استعدت كلماته كاملة وحيدة فى البيت، استعدتها مستلقية على الصوفا فى الحديقة أتأمل الأوراق غير السوية والمتجعدة فى شجرة الليمون القريبة. كنت أعرف أن الحشرات ما جعدها، ولكنى كنت أتأملها مستغرقة. أكنت أتأملها، أم كنت أستعيد كلماته من خزان الذاكرة؟ كان الإغراء كبيراً. ما تبقى لى من العمر كما يبدو قليل، فلم أهدره مع هذا الخرتيت؟.. ما المكسب الذى سأكسبه من قضاء ما تبقى لى من أيام مع خرتيتى ساقط القرن؟.. كلام الناس.. هه.. ما تبقى من ايام لا يستحق الاكتراث بكلام الناس، غضب الأهل؟ ما تبقى من العمر لا يستحق الاكتراث بغضب الأهل، وإذن.. سأتزوج منه، ولو ليوم واحد.

تركَ سلمان المخطوط.. أتراها تزوجت منه ونحن لا ندرى.. ولكن كيف جرى كل هذا، ولا نعرف به.. هل استطاعت التكتم إلى هذه الدرجة، ولكنك كنت فى

موسكو غارقاً في دراستك، وأفلامك، وممثلاتك الصغيرات. أنسيت. كانت بعض الرسائل تصلك تتحدث عن سوء العلاقة بينهما، ولكن هذه المسرحية الكوميدية مألوفة. الشجار بين الزوجين الكهلين.. كهلين؟ فاطمة السنغال وأوغستان وبلومبرغ كما تسمي نفسها.. كهلة؟..

حدق في الستارة كأنه يرجوها الجواب، ولكنه كان يعرف أن الجواب هنا.. في هذه الأوراق.. وانحنى برأسه الثقيل ثانية فوق الأوراق

لست أدري إن كان نسيانه المخطوط قريباً من متناولي غلطة، أم أنه تعمد نسيانه حين تركني في البيت ومضى لشراء السكائر والصحف.. تركني وحيدة.. أكان يتوقع أن أسلي نفسي بالتقليب في أوراقه على المكتب، كان عليه أن يتوقع ذلك.. أف.. أكان تركها متعمداً؟.. أكان هذا انتقامه بعد شجارنا الكبير بالأمس حول تلصصه على نجوى؟. أكان هذا انتقامه بعد تنازلي عن كبريائي خيفة فقده. خاصة بعد أن أبلغت ركني قراري النهائي بالانفصال عنه، فحضرت بنفسي لمصالحته.. آه.. لماذا يعمد الرجل إلى إذلال المرأة بعد أن يخمد الحب.. أهو يريد الانتقام لما يذل من كرامة وتوسل حتى رضيت به. أهو شكل آخر من أشكال السادية.. أووف.. ربما لم يكن الأمر أمر فرد ينتقم.. أكان معاوية صوت المنتصرين الذين كتب عنهم في مخطوطته (ها هم قادمون من البوادي، من الجبال، من السهول، زحفاً باتجاه المدن. في عيونهم غضب، وعلى جباههم غبار ومجد منتظر، في الريح تخفق راياتهم، وأصواتهم الجليلة تملأ سمع العالم، الأرض ترتعش تحتهم، والأماني والغبطة تفعم نفوسهم يتقدمون بخطا واثقة كما الموج الغاضب نحو شواطئ مجهولة، يتقدمون ولواء زحفهم معقود وأنا الحادي وأغنية تفضل يا خوند فالعرس (العرس أم العرش كان الخط غير جلي) بانتظارك. معنا مسرة وبنادق، وكتب وسجلات فقر زحفاً باتجاه المدن التي سقطت تحت ضربات الطلائع الأولى(×).

٧

كان يوماً حافلاً، أصر على أن يحفله بكل ما يبعده عن التفكير، صحب يوسف وسائقي السيارتين اللذين اتفق معهما يوسف على أن يساعداهما مأجورين.. حمل سلمان آلة تسجيل صوتية ومضوا إلى المدينة الميتة، ترك يوسف يصور كما يشاء، تركه يصور سراديب، ويصور قبوراً عمودية، وأشار له أن يصور عواميد سامقة ما تزال ناعمة الملمس، ثم سجل على مسجلته الصوتية (كساق امرأة تستعد للحب) تركه يصور باحة المعبد المهجور، وتساءل مع مسجلته: ترى فيم يفكر آلهة هذا المعبد الذين طالما عُبدوا، ودُللوا، وقدمت لهم القرابين لحماً نضراً يشوى ويحرق تحت أقدامهم؟ فيم يفكرون وأحفاد أولئك العابدين يمرون بهم غير عابئين، أو مكترثين، بل إن منهم من لا يخجل من اصطحاب محبوبته أو معشوقته إلى خفايا جدران المعبد، ثم سجل: ترى، هل يغضب آلهة المعبد من هؤلاء المقتحمين، أم تسعد بهم على أنهم آخر العابدين.

أعطاه يوسف منديلاً يجفف عرقه، وأبدى ملاحظة مستغربة: أنت تتصبب عرقاً رغم أن الزمن خريف. قال: أنت ترهق نفسك، تتسلق عموداً محطوماً، وتقفز فوق درج متهدم، وتسجل. لا تنسى. نحن لن ننهي مهمتنا الاستطلاعية في يوم واحد. وانتبه سلمان إلى أنه يغرق نفسه عمداً في عمل يفوق طاقته.

أشار يوسف إلى أحد السائقين، فجاء بترمس قهوة وكؤوس من البلاستيك، وصبَّ. كانت أصابع الشاب نحيلة سمراء، نظيفة الأظافر، جيدة التدريم. راقب خط القهوة النازل من الترموس بطيئاً إلى الكأس، وتساءل: أتراهم حلَّوها قبل إحضارها، ثم أجاب بسرعة: لو حلَّوها فلن أشرب. سأصرخ، وأغضب.. فكيف يصنعون قهوة ولا يسألونني أنا رب عملهم عن الطريقة التي أفضل بها قهوتي. سأغضب وأثور، وأرمي بكؤوس القهوة وربما كسرت الترمس، و.. .. قدم له يوسف الكأس وحين لمس الكأس كفه ارتجف، وراجع أفكاره بسرعة. سلمان. ما

الذى تفعله؟ مم تهرب؟ وإلى أين؟ وما يفيدك هذا الإنكار؟ لقد عشت يوماً وليلة عجيبين، يوماً ساتيريكونياً، وليلة من ليالى جان جاك روسو. وقبل أن يجرع الجرعة الأولى واجه نفسه ثانية. سلمان. ها أنت تعود إلى التنميط.. ما علاقة ساتريكون بكابوس الأمس، واعترافات جان جاك روسو بمذكرات فاطمة التى ضاعت منك عند الصباح.

وضع الكأس على حجر قريب استعمله كمنضدة فقال يوسف: ماذا. ما الأمر؟.

أراد أن يحدثه عن ليلة الأمس الرهيبة ومذكرات فاطمة العجيبة التى لا يعرفها، عن المرأة التى كان يظن أنه يعرفها وما يعرف إلا الوجه المكشوف له فقط. تساءل: إن كانت امرأة. امرأة عادية، متوسطة استطاعت أن تعيش وما أعرف عنها إلا وجه الحوَّل يا غنَّام حوَّل تتكشف عن ذلك العالم الغنى لامرأة أخرى ما أظن أنى أستطيع تخيله، فكيف بمدينة!! أى غرور وصلف يحركنى حتى أزعم أنى مستطيع تحقيق فيلم عن مدينة ميتة لم تترك مذكرات، ولم تترك شرائط تسجيل صوتية، ولم تترك حتى كتابات، وكل ما تركت عواميد محطومة وقبوراً عليها وجوه بارزة منحوتة لأناس عاشوا فيها وماتوا فيها،.. عاشوا وماتوا. بهذه البساطة تختصر حياة مدينة، حياة شعب، أفراحه، غروره، صلفه، تحديه للسماء، إذعانه للآلهة، رغبته بالخلود عبر هذه الريليفات, إذعانه أمام الموت فى هذا الرماد فى التوابيت.

تنهد: كيف لك أن تزعم الدخول إلى عوالم هؤلاء الناس وما تملك إلا نثار حجر.

قال يوسف: وليس مطلوباً منا إلا تصوير هذا الحجر. إنَّ محاولة إحياء هؤلاء الناس لإنطاقهم أمر خاطئ بل.. تردد قليلاً قبل أن يبقَّها: ما تطلبه ليس من حقك. ما تطلبه تدنيس أو.. تزوير لأولئك الذين ماتوا، وحملوا معهم مدينتهم إلى الموت.

فكر سلمان: ربما كان فيما يقول يوسف بعض حق. هل ملك الموسيو غسان، أو ملكت الحق للدخول إلى خفايا تلك المرأة المسماة فاطمة، والتى سمت نفسها فاطمة السنغال وأوغستان وبلومبرغ.

كان قد غلبه النوم فى مجلسه فى الليلة الفائتة، غلبه النوم وهو يحدق فى الستارة السميكة يسائلها عن فاطمة التى عرفت أنَّ رصاص الأصباغ قد تسرب إلى دمها، وعرفت أن رصاص معاوية قد تسرب إلى دمها، وعرفت وإن متأخرة أن تلك الأصباغ التى زيَّن بها معاوية طريق الحب لم تكن إلا الرصاص المذاب يتسرب إلى الدم حاملاً السم والموت.

تنهد غير عابئ بعيون يوسف والشابين المرافقين المستغربة. فقد تذكر فجأة أنهم حين عثروا عليها مغمى عليها إغماء ظنوه الموت وجدوها وقد طلت جسمها كله بالأصباغ المشحونة بالرصاص والموت. صبغت نفسها من الداخل والخارج الصبغة الأخيرة مقررة أن تموت بيدها وعلى طريقتها، وبأصباغها.

انتصب يوسف. قال: عثرت بالأمس على قبر مغطى بآثار الرصاص. تعال لتراه وتحكم بنفسك: من الأحمق الذى يطلق الرصاص على قبر ميت منذ مئات إن لم يكن آلاف السنين؟ وتبعه سلمان.

كان مبنى منفصلاً أشبه ببيت صغير منفصل عن المبانى الأخرى.. كان يعرف انه قبر، فلقد شاهد مثيلاً له، ولكنه حين تأمله بعين تتشهى الدهشة دهش. المدخل المبلط بالرخام، إطار الباب المقوَّس، الباب الحجرى قطع من صخرة واحدة، القبور المدسوسة كالأدراج فى الجدران. وتوقف سلمان يصور آثار الرصاص على السقف الذى كان مزيناً بالفسيفساء.. كانت قطع من الفسيفساء قد تساقطت تحت تأثير الرصاص، وتناول سلمان كاميرا فيديو، وأخذ يصوِّر السقف الفسيفسائى بسكانه المتحلقين حول حورية ونهير وأشجار، صوَّر والتقط مشاهد مقربة بالزوم للرصاص الذى اخترق خصور الحوريات، ورؤوس المحتفلين، والنهير الوادع.

قال وعينه ما تزال على عدسة الكاميرا: أى أحمق يفعل هذا. أى مجنون يسلط سلاحه الراهن على أموات لم يبق منهم إلا أن يسخروا منك.

وسمع يوسف: ألا تعتقد أنها الحماقة نفسها التى تجعلنا نتطفل عليهم بكاميراتنا. وقبل أن يجيب سمع صوتاً آخر يقول: أنت على حق. إنها حماقة الإنسان.

التفت سلمان، وكان غسان إلى جانبه مباشرة، ففأفأ شبه مرعوب، أنت؟ متى وصلت؟

- منذ بدأت التصوير _ وأشار إلى السقف الفسيفسائى. ثم قال: تفضلوا، تفضلوا..

شبك ذراعه بذراع سلمان فى لطف قريب حميم، وقاده إلى عمق القبر ليفاجأ بدرج جديد عبراه إلى باب صخرى جديد، ورأى سلمان مظلة مشدودة كخيمة وقد نشر تحتها منضدة رحلات وكراسى ومائدة غداء.

قال: لن تستطيعوا الهرب من الغداء.. تفضلوا.

كان سلمان يختلس النظر إلى غسان.. من هو هذا الموسيو غسان، وما علاقته بفاطمة، وركنى، ومعاوية، وأوغستان، وبلومبرغ؟ هل سيجرؤ على سؤاله عن كل هذه الألغاز. هل سيجرؤ على الحديث إليه عن تفاصيل ما قرأ. هل سيجرؤ على مناقشته فى الحديث عن حياة فاطمة السرية. هل.. ولكن الموسيو غسان كان غارقاً تماماً فى صحنه. كان يأكل وكأن لا هدف ولا عمل له فى الحياة إلا أن يأكل، وكان.. يأكل.

أخذ سلمان يأكل فى شهية، ولكن ما حكاية هذه المدينة وكوابيسها، أيمكن للقعود الساتيريكونى أن يكون من البداية وحتى النهاية مجرد وهم أو هوس، أو كابوس، أو حلم يقظة، أو هذيان ثمل مفاجئ. هو يعرف أنه أصيب مرة بهذا الثمل المفاجئ، ولم يكن قد شرب إلا كأساً صغيراً، وإذا به يفقد كل تركيز، فيتشاجر ويضرب، ويُضرب ويشتم، ويُشتم وتمزق ثيابه، وحين صحا وعاتبوه كان لا يذكر شيئاً مما ألمَّ به.

أيكون ما رأى بالأمس واحداً من هذه الهذيانات.. ومذكرات فاطمة؟ وعرض غسان قراءة ما سماه بمشروع السيناريو؟ إنه لم يجده إلى جانبه عند الصباح، وحين فتش خبايا الغرفة لم يجد ورقة واحدة مما قرأ بالأمس. وحين بحث عن الموسيو غسان يسائله لم يجده. أفيمكن لكل أحداث الليلة الفائتة إذن أن تكون مجرد هذيان، أيمكن لكل ما حدث أن يكون مجرد ألاعيب خيال مريض، محموم،

هاذِ.

رمق الموسيو غسان، فوجده يدفع صحنه بعيداً إشارة إلى أنه شبع، فخجل سلمان، وأبعد صحنه، وما كاد يفعل حتى أبعد الجميع صحونهم، فانتصب غسان مودعاً:

– حسن. ألقاك فى البيت، أرجوك. لا تتأخر.. هناك حديث طويل يجب أن نتبادله..

وبسرعة مضى إلى عربته، وسارع اثنان من المعاونين بجمع كل شىء ووضعه فى مقطورة السيارة. كان كل شىء يتم بسرعة وآلية لاعبى السرك.

اختفوا وراقب سلمان الغبار الذى خلفوه ينجلى شيئاً فشيئاً حتى عادت الطريق إلى جلائها، وكأن سيارة لم تخرقها، ولا غبار علاها.

لم يجد سلمان فى نفسه شهوة لمتابعة التصوير، فاتجه إلى السيارة فى كسل.. وعلى الطريق أدركه نعاس ما بعد الغداء، وأراحه النوم من الثرثرة مع يوسف والآخرين.. وحين أفاق على توقف السيارة فوجئ بأنهم قد توقفوا عند باب منزل الموسيو غسان، وأنه استجاب إلى زمور السيارة المتقدمة، فوقف بالباب ينتظرهم.

لم يدعُ يوسف إلى الدخول. ولم يدعُ الآخرين، بل اكتفى بشبك ذراع سلمان والدخول به إلى البيت فى عادية.

أبدى سلمان رغبة فى المضى إلى الحمام، فقاده الخادم إلى غرفة الأمس ذات الستائر الثقيلة.

حين اتجه إلى الباب ماراً بمقعد الأمس فوجئ بالمخطوط فى مكانه السابق. صدم. لقد فتشت عنه كل زاوية فى الغرفة، كيف اختفى، وكيف أعيد، ولماذا.. انتصب. قال هذه مسألة لا يمكن السكوت عنها. لم لا أسأل الموسيو غسان عنها ببساطة.. لا بد أن لديه أجوبة ما.. نظر إلى المخطوط ثانية وقرأ العنوان)المدينة الميتة) شدَّه المخطوط ثانية رفعه ليقلّبه، وعلى الصفحة الثانية قرأ كما توقع العنوان الثانى لو لم يكن اسمها فاطمة. قلب الصفحات يبحث عن الصفحة حيث

توقف حين تجمد فجأة.. تذكر.. لو لم يكن اسمها فاطمة. عاد إلى الصفحة الثانية، وقرأ العنوان الصغير (لو لم يكن اسمها فاطمة).. إنه يذكر.. كان العنوان: لو لم يكن اسمى فاطمة، فكيف تغير. انتقل إلى الصفحة التالية، وقرأ لو لم يكن اسمها فاطمة. وهز رأسه: لقد تغيرت الصيغة. قلب المخطوط.. إنه المخطوط نفسه، الورق، والغلاف، والعنوان (المدينة الميتة) المكتوب بخط الرقع. ولكن العنوان الداخلى فقط تغير بتغيير الضمير: لو لم يكن اسمها فاطمة. تنهد.. من يمكن له أن يقول جملة كهذه؟.

قلب الصفحة الثانية.. حيث بداية المخطوط كما يذكر..

لو ما كان اسمها فاطمة. بس لو كان اسمها أى اسم غير هالاسم قديش كانت مشاكلى أقل، وتعبى أقل، وحياتى أريح.. آه.. لو ما كان اسمها فاطمة، وما كان لها هالعيون القاسية، الجارحة، الباردة، المكرسحة، يا الله.. من سنين، من يوم ما شفت فيلم جان دارك بسينما راديو، من يوم ما تطلعت على بهالعيون القاسية الباردة متل الرخام والجارحة متل القزاز. لأول مرة بحياتى بحس ركبى دابوا، وقلبى صار مىّ، حسيت حالى لازم أنزل قدامها على ركبى، على ركبى. أعمرينى انت الست، وأنا العبد. أعمرينى لاكون خدامك ليوم القيامة.. أعمرينى، ما بدى منك شى إلا أنك تحطى إيدك على راسى وتقولى لى: لك يا عكروت ما بدك تصير آدمى.. وإذا خبطتينى طيارة يا الله قديش بطير عقلى، و.. شعل الضو.. وراحت غريتا غاربو.. وتطلعت حوالىّ على هالوجوه اللى بتقرف وشميت هالروايح اللى بتقرف.. واحد عم يمسح تمه من آخر شفة من بطحة العرق اللى كان عم يمزمزها بالسينما، ريحة حشيش، ريحة.. أعوذ بالله.. شو هاد.. ملصت من بيناتهم متل السكين من اللحمة وطلعت.. بس ما قدرت.. الحفلة التانية كانت موعد بينى وبينها.. العيون القاسية والتطليعة الجارحة والإيد الحاملة سيف.. دخيل سيفها أنا.. والحفلة التالتة.. واليوم التانى والتالت.. ما عاد لى شغل غير أتفرج عليها واسمع حكيها.. كل اللى كان بدى ياه العيون اللى متل السكين والتطليعة اللى متل الكرباج، وسيفها اللى عم يشق صدور الناس يا ريتنى كنت بينهم وينشق صدرى بين هالصدور..

وخلص الفيلم.. سألت عنه بالسينما قالوا جبنا فيلم جديد.. ووين رح يعرضوا فيلمها.. قالوا ما منعرف.. دورت عليه من سينما لسينما.. خلص اختفى الفيلم.. تبخر.. راح.. متل ما بيصير فيك بعد ما بتفيق من النوم شو بيبقى من نسوان المنام، قلت لا.. شو اللى خلقها ما خلق غيرها! رحت على كرخانة حارة البدوى.. قلّبت نسوانها واحدة، واحدة. ولى عليهم وشوش بتخوف، وريحة متل ريحة الكلاب.. سافرت على حلب، وبوشى من الكراج على كرخانة بحسيتا قلبت نسوانها واحدة واحدة.. دخيلك يا الله شو بيطبعوهم طبع.. لك ما فيه واحدة منهم بتختلف عن نسوان كرخانة حارة البدوى.. لك أخوات.. الوشوش نفسها، والألعن الريحة نفسها. وصارت شغلتى.. عداد غنم بالقامشلى. أول شى باعمله بوشى على الكرخانة.. عندى سفرة على الدير أول شى باعمله بوشى على الكرخانة، على اللاذقية.. واحد قال لى ببيروت وضبّ شفافه، وعمل لى صوت هِمم. أنه يعنى شى رفع. رحنا على بيروت.. هه.. لك يا أخى.. هنه نفسهم نفس الطبعة، ونفس الريحة.

ونامت القصة.. نامت.. هيك اعتقدت. ما فيه أمل.. خلص.. حكاية.. متل حكايا المنامات لرجعت على البيت لقيت تنتين نسوان قاعدين مع أمى ومع أختى باكزة. سعلت، ورحت على أوضتى. باعرف العادة، وباعرف أنى رح اتخبى ورا البرداية واتلصص عليهم.. بس هنه ما خلونى، قبل ما أوصل على باب أوضتى. باكزة ندهت على وقالت لى: ما بدك تسلم.

ورجعت سلم.. ويا ريتنى لا رجعت، ولا سلمت، لأنه لما تطلعت عليهم لقيتها.. هيه نفسها، العيون الجارحة، والتطليعة البادرة، والجبين شايف حاله، ولما قربت لسلم عليهم شميت ريحة الفتايل. أعوذ بالله حدا بيصدق بنت كاملة مكملة وجه غريتا غاربو، والريحة ريحة الفتايل. الفتايل.. يا الله. فيه شى بالدنيا أطيب من الفتايل..

كان لحام الحارة بيعرف عادتى.. لما بكون بالحارة، ما بيبيعها لحدا، بيستتانى لأجى.. باجرمها بإيدى.. فيه شى بالدنيا ألذ من جرم الفتيلة من بطن الخاروف.. الفتيلة شرف اللحم.. سيد اللحم.. نور اللحم.، اللحم الطرى متل المرهم لأنه لا بيحمل تقل، ولا بيركد بالخروف، ولا بيتعب من شى.. مرهم بيسموه لحمة.. رش

عليه شوية ملح وشوية فلفل، وقطعه قطع، القطعة قد راس العصفور واعلك علكتين اللحمة دابت بالتم.. وابلع.. ابلع.. يا الله. على الفتايل، لو كانت أكبر شوى.. أكبر خاروف ما فيك تطالع منه وقية فتايل.. بس شو.. أكله.. كان اللحام يقول لى اشوى لك ياها؟ قل له: له له يا صاحبى، حدا بيحرق نور اللحم، الفتيلة.. بعد الفتيلة، كان عندى السلاسل.. سلاسل الظهر. كان اللحام يقيم لها إياها.. شلّحها أنا بايدى من جلدتها البيضة، شلحها بطرف السكين، على مهلى، رش عليها الملح.. هى ما بدها فلفل. بس ملح، وارفعها بالسكين الحادة عن الدف الخشب وحطها بتمك بتدوب لحالها.. سيد الأكل عندى كان الفتايل والسلاسل.. فاطمة كانت فتايل وسلاسل..

آخ.. لو ما كان اسمها فاطمة، وما كانت ريحتها فتايل وتطلعيتها غريتا غاربو كان صار فينى كل اللى صار.. تطلعت على ساخوا ركبى، قلبى صار مى.. ولقيت حالى أنا اللى أكبر منها على القليلى باتناعشر سنة رح بنخ قدامها على ركبى وقل لها أنت الست وأنا العبد قولى لى شو اعمل.

لاكن اللى قال كان باكزة بعد الغدا. قالت لى: عجبتك؟ قلت لها بتطير العقل.. قالت لى: يعنى تحط عقلك براسك لنجوزك ياها..

– جواز؟ لأول مرة بفكر بالجواز. قالت: ايه. صار عمرك تلاتين ولازم تتجوز.. أمى قالت صحيح يا ابنى.. لايمتى. وقلت لهم إيه.

حين قال ركنى لأمه وأخته باكزة _ نعم _ لم يكن يعرف أنه قد طوى مرحلة، ودخل أخرى مختلفة تماماً.

رفع سلمان رأسه المصاب بالدوار مما قرأ، فلقد انتبه إلى أن الأسلوب قد اختلف فجأة، وأن اللغة قد اختلفت. كان قد أحب ذلك الأسلوب المباشر الذى كتب به ركنى كيف تعرف على فاطمة، وبهدوء ضحك؛ ها هو يسميهما الآن ركنى وفاطمة، هل استطاع أخيراً الحياد.. هل استطاع التجرد.. هل وصل إلى التعامل معهما شخصيتين دراميتين ولا شيء آخر. شرد قليلاً يفكر: إذاً، فهذا هو ركنى البندقدار معاون وزير المالية، كبير هيئة الرقابة والتفتيش. الجلال والرعب والنظرة الباردة الجارحة والعصا تدب كدقات ناقوس بعيد. وفاطمة.. أهذه هى إذاً فاطمة؟

ولكن عن أى فاطمة يتحدث ركنى بيك؟ فاطمة الحوِّل يا غنام حوِّل، أم فاطمة السنغال ومعاوية وأوغستان وبلومبرغ.

قلب الصفحات التالية.. لقد تغيّر الخط من الفارسى إلى النسخ.. تغير الخط، وتغيّرت اللغة.. حدَّق ثانية فى الستارة السميكة.. من هو هذا الكاتب الذى مارس رقابته على ركنى، فترجم أسلوبه وغيّر خطه، بل استبدل مذكرات فاطمة بمذكرات ركنى.. من؟ أهو الموسيو غسان؟

وضع المخطوط جانباً. قال: هناك أمور يجب أن تحسم. لا يمكن أن أظل على هذه الحيرة.. انتصب يريد الاتجاه إلى الباب والبحث عن الموسيو غسان، ولكنه سمع الهرير والهمهمة والنحنحة، فقفَّ شعر بدنه. القعود الساتيريكونى؟ ثانية؟ اتجه إلى النافذة حيث الستارة السميكة.. أراد جذبها، ولكنه قال: أعرف المشهد.. لا جديد فيه.. صار مملاً، القعود المنتصب محمولاً على الخطاطيف والنَهَشَة من حوله ينهشون.

استرجع كفه، ولم يرفع الستارة، عاد إلى مقعده ناسياً الموسيو غسان والأسئلة الحاسمة، وارتمى على الكرسى كمن أنهكه سير طويل. أغمض عينيه، فتوقف الهرير والنحنحة والهمهمة، ولم ينتبه إلى توقفها، بل أمعن فى الضغط على أجفانه يطلب النوم!.. لا، فليس هكذا يطلب النوم.. يطلب الهرب من القعود الساتيريكونى؟ لا.. فهو حتى لم يعد يفكر فيه.. كل ما يعرف هو أنه كان يهرب.

طال إغماض العينين.. ولكنه بهدوء كان يسترخى، ومع الاسترخاء أصغى إلى الصمت الكثيف يحل على المكان.. الصمت السلام.. فتح عينيه. كانت الغرفة مضاءة بالمصابيح الكهربائية، والستارة السميكة كالعادة مسدلة، والمخطوط فى متناول يده.

قال: سأستخدم خبرتى فى الكتابة وقراءة النصوص. سأتقصى آثار الكاتبين من خلال كتابتهم، ومن الخط الذى يستخدمونه، ثم فى أسف تابع: لو كان المخطوط الأول فى يدى لعرفت إن كان كاتب المخطوط هو المتدخل على مخطوط ركنى والرقيب يصحح كتابته، أم أنه كاتب آخر؟ هه.. ولكن المخطوط اختفى.. حسن.. سأحاول الشغل على هذا المخطوط.

كتب على ورقة منفصلة.. هناك ثلاثة أنواع من الخطوط: النوع الأول للعنوان _ المدينة الميتة.. إنه خط الرقع، وهناك العنوان الثانى: لو لم يكن اسمها فاطمة _ وقلب الأوراق _ إنه الخط نفسه الذى كتب به صلب النص المصحح المراقَب.. إنه الخط الفارسى، وهناك ما كتب ركنى عن نفسه.. إنه مكتوب بخط النسخ.. إذن فلدينا كاتبان بالتأكيد، وثلاثة بالاحتمال، أى أن يكون كاتب عنوان المدينة الميتة كاتب آخر.

رفع رأسه.. السؤال يزداد تعقيداً.. أستطيع افتراض أن كاتب العنوان الرئيسى هو الموسيو غسان نفسه، وأستطيع افتراض أن كاتب نص ركنى هو ركنى نفسه.. حسن، فمن هو الرقيب المصحح. أهو غسان؟ فاطمة؟ شخص آخر.. قال: ستحل المسألة نفسها بنفسها عند حوارى مع الموسيو غسان.. سأقرأ الآن نص المصحِّح عن ركنى.

حين قال ركنى لأمه ولباكزة: نعم. أوافق على الزواج من فاطمة لم يكن يعرف أنه قد طوى إلى الأبد مرحلة من حياته، ودخل أخرى لن تشبه سابقتها بحال من الأحوال، كان قد طوى سنوات المواخير، والكباريهات.. كان قد طوى تلك السنوات الجْميلة التى حين كان يتعتعه السكر يحدثنى عنها.. سنوات مراهقته الأولى حين كان يتحيِّن خروج أمه وباكزة من البيت ليخلو مع ثيابهن وأدوات زينتهن، فيلبس ثياب أخته.. لماذا؟ لا يعرف، ولكنه كان يشعر بسعادة بالغة حين يلبس ثيابها.. ثم يقف أمام المرآة يتأمل جماله، وكان جميلاً. حتى فى أواخر ثلاثينياته كان جميلاً، ولكن ليس كما كان يتمنى كما يبدو.. وكان حين يأمن تماماً المفاجآت يعمد إلى أدوات زينتهن من حمرة وكحل ومراهم، فيتزين، ويبالغ.. وكان يضحك فى سكره وهو يحدثنى عن هذا..

كنت بيِّن بماكياجى المبهدل مثل بنات حارة البدوى..

وكان يطلق قهقهة غريبة المجون لم تكن تليق بمن كان له مثل هذين الشاربين والنظرة القاسية قبل السكر.. كان يعيد على هذه الحكاية فى كل سكرة يصل به السكر إلى التعتعة، وكنت أحياناً أتساءل: أتراه كان يتمنى لو كان امرأة.. ثم كنت أمعن فى التساؤل: ليس يتمنى أن يكون امرأة فقط، بل أن يكون من نساء حارة

البدوي.

حين قال ركني لباكزة: نعم.. أوافق على الزواج من فاطمة كان يعرف أنه سيطوي سنوات المواخير، تلك السنوات التي كان يصطحب فيها البنات إلى بيت الصيفية في داريا حيث يضع أمام البنت صورة غريتا غاربو وثيابها، ويأمرها بلبس لباسها الحربي في جان دارك.. ووضع الماكياج الذي يجعلها تبدو كغريتا غاربو، وحين كانت المسكينة ترفض خائفة أو معتذرة كان يتحول إلى وحش يضرب، ويعض، ويخمش ليجبرها على الطاعة.. ولكنها بعد أن تلبس ثياب جان دارك، وتلطخ وجهها بالماكياج كان يحس بالانحطاط والهزيمة.. والاشمئزاز، لا فهذه ليست جان دارك، وليست غريتا غاربو.. إنها مجرد عاهرة بلدية أمية، فقيرة من عاهرات حارة البدوي، وكان يعيدها إلى مصدرها مدفوعة الأجر.

كرر ركني هذه التجربة مع عاهرات من دمشق، ومع عاهرات من حلب، ومع عاهرات من بيروت، وكان بعضهن قارحة، فكانت تفاجئنه بالضرب والعض والخمش قبل أن يبدأهن بذلك، فكان يسعد بضربهن السعادة الكاملة، ولكنه لم يعثر أبداً على غريتا غاربوه، ولا على جان داركه.

كان يمكن لهذه التجربة أن تتطور لما هو أسوأ لو لم يمت أبوه فجأة، وتصبح العائلة دون معيل إلا من ركني الشاب ابن الثامنة عشرة والذي لم يتعلم مهنة، ولم يحز شهادة، ولكنه كان قد تعلم القراءة والخط الجميل على يد الشيخ البغجاتي سيد خطاطي المدينة، والدوبيا، ومسك دفاتر الحساب على يد الأستاذ ثروت، فكان أن عرض عليه العمل كاتب حسابات لدى أكثر من تاجر في سوق البزورية، وسوق الحميدية، ولكنه تحت إغراء أمه وخاله وافق على أن العمل لدى الحكومة أنبل وأشرف وأجدر بأبناء العائلات.. وهكذا التحق بالعمل لدى الحكومة تحصلدار، وعدّاد غنم، ومحصل ضرائب على رؤوس الغنم، حتى إذا ما سئم تعداد الغنم عمل تحصلدار لدى الإنتاج الزراعي يحصِّل الضريبة على كل صندوق عنب ينزل إلى المدينة، وعلى كل كيس باذنجان أو خضار، وكان له ضريبتان، واحدة نقدية للدولة، وأخرى عينية للتغاضي عن بعض مال الحكومة، ولاتقاء شره وأذاه، فقد كان الفلاحون مقتنعين تماماً بأن الحكومة وأولاد الحكومة شر عليك أن تتقيه بكافة

الوسائل، وكان ركنى كما حدثنى أكثر من مرة مسروراً (ابن حكومة حقيقى) فكنت تجد فى آخر كوخ الإنتاج الزراعى فى منتصف النهار دائماً عدة صناديق من أفضل العنب والمشمش والكمثرى، وعدة أكياس من مختلف أنواع الخضار.

كتب سلمان على ورقته الجانبية: مصحح النص صديق قديم لركنى.. من هو.. أهو.. غسان مثلاً؟

كان يكلف صبياً بإيصال بعضها إلى البيت على دراجته، وكانت أجرة الصبى ركوب الدراجة وما يستطيع أكله على الطريق، وكان يوصل بعضها بنفسه إلى صديقاته خارج حارة البدوى، وكان يبيع ما زاد عن كل هذه الخدمات اليومية إلى خضرى صديق.

فى أمسية أخرى وبعد سكرة ثقيلة سكرناها معا، وكان قد رجانى، وألح حتى أوقفت الغراموفون، فقد سئم هذه الدندنة بلا نهاية، فأوقفت الغراموفون، وأخرست بارتوك.

وتوقف سلمان.. بارتوك.. غراموفون، موسيقى.. الرقيب ثانية، الرقيب المثقف غريباً. أهو الموسيو غسان.. أيعقل أن يكون قد عرفه منذ تلك المرحلة المبكرة.

صببت لكلينا من ذلك الرم الذى كان يجلب إلى من بيروت، والذى رفض مدير الناحية تكرار شربه معى، ثم اعتذر رئيس الشرطة أيضاً، ثم سمعت أنهما قالا: هذا الشراب جدير بالبغال، لا بالبشر..

رفع سلمان رأسه ثانية.. كان الرجل قادراً على منادمة مدير الناحية ومدير الدرك، بل السخرية منهما.. من هو؟ من هو؟.

كانا على حق.. هذا الشراب لا يقدر عليه إلا البحارة، ولكن ركنى أحبه، وصمد أمامه، فكان نديمى الوحيد.. فى تلك الأمسية حدثنى أنها قالت: لا.. لا أريد الزواج.. لك حدا بيصدق.. حدا بيصدق.. أنا.. أنا ركنى ابن البندقدار أطلب بنت وانرفض؟ أنا اللى تلتين بنات البلد بيتمنوا منى إشارة. ينقال لى لأن.. أنا اللى نسوان العيلة كانوا يوقفوا بالدور ليورجونى بناتهم بركى بارضى، ومتل ما قالت أمى.. بركى الله بيتوب على، وباعقل. كانوا نسوان العيلة يقولوا لأمى: كل

الشباب الهم جهلة، وبعدين الله بيتوب عليهم. بس ابنك طولت جهلته، هه.. طولت؟ طيب.. هى بطلنا الجهلة.. شو صار.. شقفة بنت لسه ما فردت ضفايرها.. قالت لى لأ..

وأطلق ضحكته الماجنة، وحق له أن يطلقها فقد قارب القضاء على زجاجة الرم، ثم أكمل: قال لسه ما فردت ضفايرها!! لك هى فاطمة.. ريحة الفتايل وتطليعة غريتا غاربو.. ثم أضاف فى حزن: بس الرفض كان صعب.

وحتى لا يكون الرفض صعباً قرر تجاوز هذه الصعوبة.. كان يعرف عن الشبان المتبطلين الذين يطاردون الفتيات، فقرر أن يريها أنه يستطيع أن يكون غندوراً أكثر من كل هؤلاء الشبان، وحين قرر التصرف كغندور نظر إلى ثياب جابى الإنتاج الزراعى، وثياب زبون المواخير الدائم، البنطلون السوارى، والقميص المصوَّف شتاء والبوبلين صيفاً.. ليكتشف أنك لكى تكون غندوراً جيداً عليك أن تبذل بعض الجهد.. فأرسل البدلة الرصاصية ذات القطع الثلاثة والتى كانت محفوظة لزيارة مدير الجباية أو مدير المالية، والتى استقبله فيها مرة معاون وزير المالية.. أرسلها إلى الكواء، فنظفت، وكويت، فلبسها ومضى إلى الحارة يتمشى وينتظر خروج البنات من المدرسة، ولكنها حين مرت إلى جواره فى معطفها البيج والبونيه الأسود الشيفون انتظر أن يرى فى عينيها نظرة تعرّف.. نظرة رفض، نظرة رضا. أى نظرة.. ولكنها اكتفت بنظرة غاربو الجليدية المتكبرة التى جعلته يضؤل ويصغر، وينظر إلى بدلته بخزى حين مر غندوران آخران يلبسان البدلة الشاركسكين وربطة العنق الحمراء، فأحس أنه بلدى عجوز..

رجع إلى البيت، واستعرض مخزونه من الثياب ليكتشف أن الثياب لم تكن شاغله.. حتى ذلك الحين، فكل القمصان جميلة، وكل الأحذية مقبولة فى الماخور ما دمت تدفع جيداً، وحتى حين كان يقيم حفلة ما لصديق من حلب، أو الجزيرة، أو اللاذقية كان لا يلبس فى بيت الصيفية إلا الثياب شبه العسكرية البنطال السوارى والقميص المصوّف وفوقهما العباءة من وبر الجمل، أما إن كان الوقت شتاءً فالفروة المصنوعة من وبر الحملان والتى كان يفاخر بها دائماً: لقد صنعت من فراء مئة حمل انتزع من رحم أمه بعد ذبحها.. وكان يجعلهم يتحسسون نعومة

الفراء، ويستمتع بتأوهات إعجابهم..

أما الآن.. فقد اكتشف للمرة الأولة ريفية نوقه وجفاء ثيابه، فقرر أن يدخل العصر، وبذا تعرف للمرة الأولى إلى بدلة الشاركسكين البيضاء، وتعرف إلى جوخ الهيلد الأسود، ثم إلى معاطف التويد فوق البنطال الأسود والصدرية السوداء، ولما لم يحصل على نظرة رضا واحدة، فقد أخذ الحس بالقهر يطغى عليه، ثم اكتمل السعد بزيارة واحدة من القريبات لأمه تحدثها عن ركنى بيك فى كامل أناقته يقف عند مدرسة البنات بتظاهر بأنّ ماسح الأحذية ينظف حذاءه النظيف أصلاً، ولما عادت بعد نصف ساعة وجدته ما يزال ينظف حذاءه لكن عند منظف آخر، فقررت أن هذا لا يجوز، وأقرت أمه أن هذا لا يليق، ووافقت باكزة على أن هذا تطرف غير مألوف لدى بيت البندقدار، فركنى سيصبح مضغة أفواه الحارة.. و.. صبرنا على جهله كثيراً، و.. ألم يئن الأوان ليتوب الله عليه ويغفر له كاساته، وزياراته المشبوهة لحارة البدوى.. وقررت النساء جميعاً أن فاطمة قد تدللت أكثر مما يجب.

فى ذلك الوقت بالذات حدثت المعجزة..

أنا كنت مؤمن أنه الله ما بيقطع حدا.. مهما كانت المشكلة معقدة الحل بيجى لحاله.. و.. إجا.. مليت من دلالها، وبعد ما كانت تطليعتها الباردة تدوخنى صارت توجعنى، وبعدين صارت تذلنى.. وبعدين صارت تتطلع من بيناتى.. بطلت تشوفنى، تتطلع على وكأنها عم تتطلع على عمود الكهربا اللى ورايى، أنا مانى موجود.. بها الوقت هاد مرق أبو عبد الله على البيت وترك لى كرتونة.. كان له بالعادة يترك لى متلها، أنا أتصرف وبيعها.. أبو عبد الله جابى، وتحصلدار، وعداد غنم.. كان كثير بيحب السفر. يا مين سمعان أنه بمهمة، لوين؟.. على بصرى، لوين؟ على تدمر، لوين عالجزيرة.. بس كان أشطر منى، ما كان يجيب بس صوف وجبنة وسمنة.. لا.. كان يجيب شغلات غريبة، عملات فضة، برونز، روس تماثيل.. يعنى.. يترك لى ياهم.. أنا صرفهم، بيعهم، قيم حصتى وأعطيه حصته..

كان الطرد يحتوى على تمثال لرب الخصب السورى، تمثال كان يحلم به كل جامعى القطع الأثرية، والأثرية السورية تحديداً، فما تعرضت له المعابد الوثنية

السورية على يد البيزنطيين والمتدينيين الجدد من حملة ضد التماثيل والآثار الوثنية جعل العثور على تماثيل كاملة، أو غير مشوهة نادراً في سورية كارهة التماثيل والأصنام.. و.. كان.. التمثال المصنوع من البرونز نادراً، تمثال بارتفاع قدم لرب الخصب السوري بكامل عريه واستفزازه، الأمر الذي جعل ركني ينفجر من الضحك شي بيجاكر وبينومس.. وأطلق ضحكته الماجنة..

فكر ركني في من يستحق أن يشتري مثل هذا التمثال، وأخيراً قرر ألا يبيعه، سيدفع ثمنه لأبو عبد الله من جيبه الخاص، وسيحمله بنفسه هدية إلى المستشار الفرنسي في وزارة المال، وكانت هذه أذكى خطوة قام بها لأن المستشار الفرنسي ما إن مزق الغلاف الكرتوني، ورأى التمثال حتى أطلق ذلك الصفير المدهش. كان أمام تحفة فنية نادرة.. نظر إلى ركني طويلاً، وطلب له على الطريقة الشرقية فنجان قهوة، و.. كانت المفاجأة تعيين ركني كبيراً لعدادي الأغنام في البادية كلها، و.. بما أن عملاً كهذا عمل متعب، فقد خصصت له سيارة لإحسان القيام بمهمته و.. همس المستشار: والتقاط ما يمكن التقاطه من هذه القطع الأثرية.. ولا تهتم لثمنها..

وانفتح أمام ركني كنزان في يوم واحد، السيارة التي ستكون مفتاحه إلى قلب فاطمة، والجولات الطويلة على البادية يراقب عدادي الأغنام، ويسأل البدو عما لديهم من لقى وثنية لا يعرفون قيمتها.

لكن فاطمة التي ستتقلب صفاتها كثيراً فيما بعد، من فاطمة غاربو كما سيسميها ركني، إلى فاطمة السنغال، إلى.. المهم إن فاطمة غاربو التي فوجئت كما فوجئت رفيقاتها بالسيارة الفورد البيضاء تتوقف إلى جانب المدرسة، ووراء المقود يجلس ذلك الشاب الذي عرف البنات جميعاً أنه عاشق فاطمة، رأينه يجلس في بدلته الشاركسكين وربطة عنقه الحمراء، وشاربه المقصوص قصيراً ليبرم فوق ثلثي الشفة العليا.

ضحكت مسرة، وقالت لفاطمة: اليوم دور البدلة البيضا، ولكن فاطمة التي تعلمت النظرة المخترقة لركني، تعبره ولا تراه استطاعت هذه المرة اختراق السيارة الفورد بكاملها، وكان يمكن لسلسلة الثياب أن تكرّ وراء الدركسيون في

تبدلاتها يوماً إثر يوم كما حفظتها مسرة، وفاطمة، والبنات المتجاهلات لولا أن أم ركنى وباكزة ونساء البندقدار قد مضين جميعهن إلى بيت فاطمة لطلب يدها، واجتمعت العائلتان على رأى واحد.. الشاب لا يعاب، وهو لقطة والتعليم يمكن أن ينتظر سنة أو سنتين يتم فيهما العرس والزواج.. و تستطيع بعدئذ إكمال تعليمها، وكان عليها أن تنتظر هذا الإكمال لواحد وعشرين سنة، تنجب فيها ولدين وتقيم معرضين خارج دمشق. وتتعرف على ما ستسميه فيما بعد بعذابها وعقوبتها عن كل ذنب ارتكبته فى حياتها.. معاوية.

توقف المخطوط فى منتصف الصفحة بعد معاوية، ورفع سلمان رأسه: ها هو معاوية يرنُّ ثانية، ولاحظ ساخراً أنه أحس بكراهية صغيرة له.. واجه نفسه: سلمان.. أنت قارئ، مراقب، لست طرفاً ولكن فاطمة؟ فاطمة شخصية ورقية. ألم تصل إلى هذا من قبل.. ألم تصل إلى مرحلة التعامل مع فاطمة وركنى شخصيتين مخطوطيتين، لم تريد أن تتورط بعداواتهما وصداقاتهما؟.

أطلق تنهيدة، وقلب الورقة وكانت المفاجأة أن معيد كتابة النص قد اختار عنواناً جديداً.

فاطمة السنغال

٨

أنا بافهم الجواز حب، بافهمه طاعة، بافهمه طبخ ونفخ وأولاد، بس حرب؟..
حرب كل الأسلحة فيها مسموحة؟!!

كان زواجاً غريباً ما تم بين ركنى وفاطمة، فركنى المحصن بأمه وأخته باكزه، ونساء العائلة الأرامل والعوانس وما أكثرهن كان يعرف الزواج رجلاً عابساً يتنحنح داخلاً البيت، متبوعاً بصبى يحمل حاجات البيت، فتسرع الزوجة ونساء البيت إلى تناول ما يحمل الصبى، وباستقبال رجل البيت بالتأهيل والترحيب ونزع المعطف عنه، والسير بين يديه حتى كرسيه الكبير ذى الذراعين إلى جانب البحرة حيث يخلع حذاءه فى وقار، فلقد تخلى عن مسألة أن تخلع الزوجة حذاءه عن قدميه منذ أن تخلى أبو ركنى عن هذه العادة مبكراً، وتخلى عن حكاية صب الماء على يديه ليتوضأ، أو يتنظف، أو يغسل قدميه العرقانتين منذ أن تم تمديد شبكة المياه الداخلية للبيت، فصار بإمكان ركنى أن يقوم بمهام غسيل العرق عن جسده عند الحنفية إلى جانب البحرة، ولكنه أبداً لم يتخل عن وجوب أن يكون الغداء جاهزاً تماماً حالما ينتهى من مهام النظافة، ولبس البيجامة.

كان زواجاً غريباً أمام عينى ركنى، وأمان عينى باكزه، وأمام عينى أم ركنى، ففاطمة هذه الطفلة التى لم تكد تفرد ضفائرها استطاعت أن تفرض قوانينها على ركنى وعلى البيت فى عدم تقديم البيجامة لركنى، أو حمل المنشفة له بعد تنظفه، ولم تكتفِ بهذا، بل فرضت مجالسته على الطاولة المستحدثة فى البيت لتناول الغداء.

قاومت الأم، وقاومت باكزه، ولكن ركنى لم يقاوم، فصمت الجميع، وكان يمكن للمعركة أن تطول لولا أن باكزة خطبت وتزوجت بأسرع مما كان مقدراً، وبأسرع

مما كانت تتمنى فى التدخل فى حياة فاطمة وركنى. وهكذا اضطرت الأم إلى اللجوء إلى الصلاة، تهرب فيها من المواجهة مع هذه البنت المتمردة الطائشة التى ستقود البيت إلى الدمار، وحتى لا تصطدم مجدداً بفاطمة كانت تلجأ إلى الانشغال الكامل بنباتات زينتها، ونشأت مملكتان متحايدتان فى البيت، مملكة الاعتزال فى الصلاة ورعاية نباتات الزينة، ومملكة الاعتزال فى عالم من روايات وشعر وأحلام يقظة فى أيام أكثر سعادة اختطفت منها باسم الزواج.

فاطمة التى اعتادت على أن تكون الأولى فى المدرسة، صممت على أن تكون الأولى فى البيت، فتنازلت عن كل هم إلا أن تصبح الأولى، فأتقنت الطبخ حتى لم تترك لأم ركنى ملاحظة ولو ضئيلة عن جودة طبخها، أتقنت الخياطة التى كانت تعلمت معظمها فى بيت أهلها، وتعلمت التطريز، وتعلمت حفظ المونة حتى صارت بيت مونتها والذى كانت تحفظ فيه معظم ما كان يرمى سابقاً من فائض الإنتاج الزراعى.. صار الأغنى والأجمل والأكثر طمأنة على قادمات الأيام.. فكنت ترى فيه قطرميزات الزيتون والمكدوس ومربى المشمش والتين والتفاح و.. .. لكنك مهما ظننت أنك وصلت إلى الكمال، فلا بد أن تكتشف أن النقص سمة الفانين من بنى آدم، وهكذا واجهت فاطمة التحدى الذى سيجرها إلى تحد، ثم إلى تحد آخر حتى يواجهها السنغال باستفزازهم الدنىء.

كان ركنى قد عاد من إحدى جولاته فى البادية يراقب عدادى الغنم، ويسأل خفية، وبما يشبه الخفية عمن يمكن أن يكون قد عثر على بعض القطع الأثرية هنا أو هناك، من تلك القطع التى لا قيمة مادية لها، فهى ليست من قطع النقود الذهبية التى يمكن صهرها أو بيعها بسهولة، وليست من الفضة، فهو لا يطلب إلا النحاس أو البرونز أو الحجر.

فى تلك الجولة قدموا له فى حمص إفطاراً شهياً أخذ يتغنى به طيلة الطريق، ثم لم يكتف بهذا، بل واصل التغنى حتى امام فاطمة، ولما سألته عن المعجز فى ذلك الإفطار حدثها أن ذلك الإفطار لم يكن يحتوى على الأجبان والألبان والبيض المقلى والمسلوق والمشوى فقط، بل كان هنالك الزيتون - المكدوس، وسألت فاطمة فى براءة عما يعنى؟ زيتون، أو مكدوس؟ فقال: لا. بل زيتون مفرغ من البذر

ومحشو بحشوة المكدوس أى بالجوز والثوم والفليفلة الحمراء والـ.. وأخذ لعابه يتجرض، فأحست بالغيرة، ثم بالغضب حين رأت تلك البسمة الماكرة على وجه حماتها، تلك البسمة التى تعرفها وتحفظها والتى تعنى: وأخيراً استطعنا أن نكسر أنفك المترفع، فلن تستطيعى الوصول إلى هذا.. وقبل أن تسترسل فى أسئلتها تحاول معرفة أسرار هذا النوع الجديد من الطعام جاءت الضربة التى ستصل فى تتالياتها إلى.. السنغال. قال: أما مربى الباذنجان، فقالت فى تهكم: أعرفه. أعرفه.. ثم أضافت فى ترفع وهى ترفع بعض الأطباق الفارغة عن الطاولة: كانت أمى توزع القطرميزات منه على الفقراء فى رمضان.

ولكنه فى لؤم محسوب أضاف: ليس الباذنجان الذى تعرفينه، بل الباذنجان المحشو باللوز والفستق والمحلى بماء الورد.

كانت اللطمة قاسية، فهى تعرف أن مربى الباذنجان أصعب أنواع المربيات. وقليلات من النساء من يعرفن صنعه، أما أن يحشى باللوز والفستق، ويحلى بماء الورد!!..

فاطمة طبعاً لم تستسلم إذ أضافت وهى تمضى إلى المطبخ: إن كنت قد أعجبت بهذا الـ، الـ، باذنجان.. فستأكل منه فى قدمتك التالية، ولكن وحيداً، فأنا لا أحبه!!

وبدأ التحدى إذ كان عليها خلال غيبته القادمة أن تتعلم كيفية إعداد مربى الباذنجان، وعليها أن تتعلم كيف تحشوه بالفستق، وكيف تعطره بماء الورد و..

قررت أن تبدأ رحلة الألف ميل بالخطوة الأولى.. استحضار ماء الكلس من محل الدقر فى أول السوق الطويل لتغطس فيه الباذنجان المقشور قبل غليه بالسكر المذاب.

حسبت حساب كل شىء: الباذنجان المكوَّم إلى جانب البحرة، وابور الكاز المستعد لمهمة الغلى، السكر، ولم يبق إلا جلب ماء الكلس، حسبت حساب كل شىء حتى حساب ذلك السمان الأزعر الذى ما إن يراها تمر وهى فى حجابها حتى يبدأ بالتلطيش معلناً عن البندورة الريانة الحمراء، وعن الحليب مضاعف القشطة،

وعن.. .. كانت قد استطاعت جعل ركنى يمتنع عن التعامل معه، وشراء ولو علبة كبريت منه، ولم تستطع أن تفعل أكثر من هذا، ولكنه استمر فى زعرنته.. حسبت حساب كل شىء إلا أن تمر فى تلك الساعة وفى ذلك الشارع سيارة الدورية الفرنسية المشحونة بالجنود السنغال، ولما كان السنغال لا يعرفون من اسماء المسلمات إلا اسم فاطمة، فقد استفزتهم بمشيتها الغزلانية، كما كانوا يسمونها، وبالخصلة الشقراء الهاربة من البونيه ليهتفوا بصوت واحد: فاتيما، فاتيما..

ويلتقط السمان الإشارة ليضحك مقهقهاً مطلقاً نداءه: شقرا وريانة هالبندورة..

حاولت التماسك، والتجاهل، ولكن سيارة السنغال البطيئة فى سيرها فى الشارع الضيق لم تتوقف عن الصراخ والتصفيق: فاتيما، فاتيما..

أحست الأرض تسيخ بها. أحست العالم يضيق ويضيق ليصبح بحجم حنجرة سنغالى يهتف فاتيما فاتيما. أحست ذل العالم كله يتجسد بقهقهة عبد الغنى يصفق ويهتف: حمرا وريانة هالبندورة. تمنت لو كانت تحمل مترااليوزاً لقتلتهم برشة واحدة، تمنت لو كان لديها مدفع بحجم يكفى لإغلاق فم هذا الأزعر المسمى عبد الغنى.

حاصرتها القهقهات والهتافات والتصفيق. فجأة.. أحست أن مربى الباذنجان شىء سخيف، وأن إرضاء هذا الزوج المسمى ركنى وأمه أكثر سخافة، وأن هذه الانتصارات السخيفة فى معارك سخيفة كلها لا معنى لها.

استدارت على عقبها كزنبرك، ورجعت إلى البيت الكبير الواسع لترى أكياس الباذنجان المكوم إلى جانب البحرة، وترى الوابور المستعد للاشتعال وغلى كل هذا الباذنجان، رجعت لترى حماتها ساجدة منغمسة فى صلاة لا تنتهى..

أرادت أحداً تشكو إليه ما فعل السنغال، وعبد الغنى، ولكن العالم المجسد فى حماتها كان قد أدار مؤخرته لها منغمساً فى صلاة تستغفر لذنوب ليس من يعرفها. أرادت أن تعاقب السنغال، عبد الغنى، الزوج المسافر، الزمن الظالم، فلم تر أمامها إلا أصائص نباتات حماتها. فقررت أن توقظ العالم النائم، حملت الأصيص الفخارى الأول. رفعته عالياً تتمنى من يوقفها، ولكن أحداً لم يكترث

لغضبها، فضربت الأرض بالأصيص تتوقع هياج حماتها وبدء شجار يستنفد غضبها، ولكن حماتها لم تغادر سجادتهاولا سجودها الطويل، لم تكترث فاطمة للجذور البيضاء خرجت من وكرها الترابى، أما ما آلمها فهو أن أحداً لم يحتجّ لغضبها، فرفعت الأصيص الثانى والثالث، ومزقت كل ذلك الكنز الأخضر الذى أضاعت حماتها نصف عمرها تجمعه وتدلله وتخزنه، وظل العالم مجسداً فى الحماة مديراً قفاه الساجد لها.

عندئذ أطلقت نداءها الذى ستشتهر به، والذى سينتقل منها إلى صديقتها مسرة، ثم إلى خطيب مسرة الصحفى نجيب، ثم إلى الصحافة المحلية، فاللبنانية، فالعربية.

أقسمت فاطمة ألا تخرج من بيتها ما دام هناك سنغالى واحد فى سورية.

وضع سلمان رأسه بين يديه مثقلاً بعواطف متناقضة غريبة كان أبرزها هذا الحب الحنون الذى أفعم قلبه لهذه المرأة التى يكتشفها الآن.. هذا الطيش، هذه الطفولة، هذه الرغبة فى التحدى. قال: ولكنها ليست فاطمة الحوِّل يا غنام حوِّل. لا.. تنهد.. من.. أو.. ما الذى وأد كل هذه البراءة.

هز رأسه فى استسلام: ما اقل ما نعرف عمن نعايشهم عن قرب.. وبهدوء ذكر قول الصوفى: شدة القرب حجاب. أفكانت أمومتها حجابها؟ طفولتى كانت حكاية طويلة حكتها لى. فكيف لم تقص على قصة هذا القسم؟

هز رأسه بأسف ضاحكاً.

قال تجوزنا من شان ننستر. سقى الله أيام الفضيحة.. أنا شو دخلنى بكل هالعلاك. أنا شو دخلنى بالسياسة، وبفرنسة، وبالسنغال، وضراب السخن، بنص البرية لا إلى ولا على بتلحقنى سيارة بتفيقنى من عز نومى. قوم. مدير المالية بده ياك.

ما بدا نكتة أو تحدياً طفولياً، أو قسماً لن يهتم أحد بإبراره تحول فجأة إلى كابوس لأمين العاصمة، لمدير الشرطة، وكابوس للمستشارين الفرنسيين، ثم للمفوض العام الذى صرخ، فرددت دهاليز دار الحكومة، وأمانة العاصمة صرخته:

أليس لهذه المجنونة من زوج يكبحها.

أرسلوا رسولاً خاصاً بسيارة خاصة إلى قرية صدد فى البادية حيث يفترض أنه يفتش على عدادى الغنم..: هاتوا ركنى البندقدار ولو مخفوراً!

وجاء ركنى بك البندقدار غير مخفور.

***

حين سمع الأستاذ نجيب الصحفى غير المتفرغ، والذى كان يعمل معلماً فى مدرسة النجاح الابتدائية للبنين. حين سمع خطيبته مسرة تتفكه بأن صديقتها أقسمت بالأمس أنها لن تخرج من بيتها ما دام هناك سنغالى فى سورية، وأنها قد دخلت فعلاً حالة الإضراب عن الخروج من البيت أعجبته الفكرة، ولكنه حين كتبها فى خبر لجريدة الأضواء حورًها قليلاً مستفيداً من المعنى العام للقَسَم، فأرسل إلى الجريدة الصادرة ببيروت رسالته الصحفية عبر الهاتف، وتحدث فى آخر الرسالة عن المرأة التى تتحدى الرجال الذين رضخوا لمحاولات التهدئة الأنكلوفرنسية، فلا يجوز تعكير السلام الآن وألمانيا تغزو العالم، والديمقراطيات والنازيون قد كشروا عن أنيابهم.

تحدث الأستاذ نجيب بلغة خطابية عن المرأة التى أخذت دور الرجال، وقررت أن تضرب عن الخروج من منزلها حتى خروج الفرنسيين عن آخر شبر من أرض الوطن.

كانت صياغة الخبر وقد قرأته بنفسى فيما بعد فى أوراق فاطمة صياغة تنوس بين التحريض والخبر الطريف، بين الدعوة إلى الاقتداء بالنساء، وبين الخبر الفكه إعلامياً.

وحين لقيت السيد نجيب فيما بعد عند ملاحقته للموسيو دينارد وفاطمة، وسألته إن كان يتوقع لهذا الخبر أن يدوى ذلك الدوى، فأطرق حائراً، خائفاً كما أعتقد من أن يخسر الأهمية التى كسبها لدى إطلاقه هذا الخبر، ولما حثثته متنحنحاً على الكلام اضطر إلى الاعتراف: لا.

صحيفة الأضواء اللبنانية تلقت الخبر، ونشرته على الصفحة الأولى لتتلقفه الصحافة الوطنية اللبنانية، ثم الصحافة الدمشقية، فالحلبية، فالمصرية، وفى أقل من أسبوع كانت آلات البرق تنقل هذا الخبر متَّبلاً مبهراً.

وحين ألحت صحيفة الإسكندرية الصادرة بالفرنسية والمتهمة بموالاة فيشى، على مراسلها فى بيروت أن يرسل صورة لهذه السيدة وألا يهتم للثمن الذى يمكن دفعه لهذه الصورة، فالصورة مهمة جداً لتقوية الخبر، وكان إغراء جريدة الإسكندرية، والأجر المفتوح قوياً، فقد ألح نجيب على مسرة للبحث عن صورة، أى صورة لفاطمة، ورغم أن نشر صور النساء المسلمات المحجبات شبه مستحيل لكن إغراء التقدم فى العمل، والثمن المفتوح، وتعاون مسرة التى نقبت فى محفوظاتها لتجد صورة جماعية لطالبات الصف العاشر فى رحلة إلى بلودان، فأعطت مسرة الصورة إلى نجيب الذى تغلب على مراسل الإسكندرية، وحل محله مقرباً من الجريدة.

أعطت مسرة الصورة إلى نجيب الذى حملها إلى ستديو ديكران طالباً فصل صورة فاطمة عن بقية الصور، وتكبيرها، وحين عاد لاستلام الصورة فوجئ بأن وجه فاطمة المكبّر كان قريباً إلى حد المطابقة مع وجه غريتا غاربو. أكان الوجه مطابقاً فعلاً، أم أن المصور الذى لم تسعفه الصورة المغبشة بعد التكبير أجرى عليها بعض الرتوش، وحين تأمل الصورة بعد الرتوش اكتشف أنها نسخة من غريتا غاربو، فتركها على حالها.

أعجبت صحيفة الاسكندرية بهذا الشبه خاصة وأن نجيب أرسل إليها بالنسخة السلبية قبل الرتوش، وبنسخة عن الصورة الجماعية، فنشرت الصورة وإلى جانبها صورة غريتا غاربو فى فيلم جان دارك وهكذا ولدت جان دارك سورية أقسمت أن تحبس نفسها فى بيتها حتى زوال الاستعمار الفرنسى من سورية.

وضع المخطوط جانباً و.. تساءل: المصحح الرقيب أعاد كتابة نص ركنى ولكن، ما مدى الصدقية فى النص الجديد. من الملاحظ أن الرقيب _ المصحح _ المراجع لا يكنُّ وداً كبيراً لركنى. ولكن أيمكن أن تكون هذه فاطمة؟. أيمكن للصدقية الواقعية أن تقبل من امرأة مسلمة فى أربعينيات القرن لم تنه شهادتها الثانوية، من اسرة لم يعرف عنها نضالها ضد الاستعمار، كما من الواضح أن اسرة زوجها ليست من الأسر المهتمة بالنضال. أيمكن لامرأة كهذه أن تتحول إلى جان دارك سورية. ترى إلى أين يسير بنا هذا الكاتب الهاوى المتنكر وراء نص ركنى؟

كان لقاء عاصفاً بين ركنى الذى لم يسمح له بالمضى إلى بيته قبل لقاء مدير المال، ومعاون وزير المالية ومستشار وزارة المالية الفرنسى، لقاء أحسَّ فيه كم هو صغير لا يستطيع ضبط بيته. موظف. وابن حكومة، ثم يسمح لزوجته بإثارة الرأى العام ضد الحكومة، وضد فرنسا، وفى الزمن المتوتر للحرب مع الألمان.

وأخيراً واجهوه بالسؤال الامتحان: أنت مع الحكومة أم ضد الحكومة؟

مضى إلى البيت ليبدأ جولته الثانية..

فى البيت فوجئ ركنى بأن فاطمة لم تكن وحيدة، فقد التف حولها زميلاتها من الطالبات ممن اختصرن تعليمهن وتزوجن، وممن حصلن على البكالوريا وعملن فى التعليم، وممن التحق بالجامعة. التففن حولها يعلنَّ تأييدها، وعرف ركنى أن هذه مُؤامرة يراد منها الإساءة إليه فى عمله الوظيفى، وربما إحالته على التقاعد المبكر، أو تسريحه وحرمانه من كل منافع المشرف على عدٍّ الغنم، من السمن والجبن، والصوف، و.. اللقى الأثرية.. أعوذ بالله.. لو تم لأعدائه ما أرادوا.. فسيكون الموت أسهل.. يخرج من نعمة الحكومة، وإلى أين؟

تجمع الغضب والتعب والإرهاق والجوع والخوف من الخروج من خيمة الحكومة ليتحول إلى بركان متفجر لم تعرفه فاطمة فى ركنى من قبل، ولم تعرفه أم ركنى فى ركنى، ولم تعرفه صديقات فاطمة فى الزوج المهذب، غضب استخدمت فيه كل اللعنات وكل المصطلحات، وكل العنف المنزلى الممكن، و.. هربت الفتيات كما هو متوقع، ولكنهن لم يبعدن، فما إن خرجن من البيت حتى وجدن الصحفيين يستوقفونهن ويسألونهن، ويصورونهن فى حجبهن، وإشارباتهن، وبونيهاتهن، ويسجلون إجاباتهن الغريبة عن الزوج الغاضب، والمصر على الخروج بها الآن من البيت، وقالت واحدة وكأنها تتنبأ بما سيصل إليه الجدال: وقد هددها بالطلاق إن أصرت على العصيان!

تقاطر الأزواج، والإخوة، والفضوليون، وقارئو الصحف المعلقة على الجدران عند الباعة، تجمعوا ليصبحوا مظاهرة تحاصر البيت، وتمنع ركنى من تنفيذ وعده لمدير المال والمستشار الفرنسى فى إخراجها من البيت فى ذلك اليوم، أما ما لم يكن يعرفه المتجمعون المحاصرون المتظاهرون فهو أن ركنى وعد مدير المال

بالانضمام إليهم معها فى فندق فيكتوريا ليراها الجميع. ويكون المستشار ومعاون وزير المال باستقبالهما، ومعهم مصورو الصحف والصحفيون يعلنون نهاية الإضراب بطريقة حضارية.

كان لمسرة الصديقة المقربة من فاطمة مكانة خاصة دائمة عند ركنى وفاطمة، وهكذا انتظرت حتى لم يعد المتجمعون أمام الباب يسمعون صرخاتهما، فتجرأت، ودخلت عليهما لتجدهما وكل منهما حردان فى ركن من الغرفة لا يتكلم، ولا يسمع، ولا يتشاجر، فقد استنفدا كل طاقتهما على الشجار. تنحنحت تلفت انتباههما، ويبدو أن ركنى كان ينتظر تدخلاً ما، أحداً يكسر رقاقة الصمت الكئيب التى غلفتهما، فما إن تنحنحت مسرة تعلن دخولها حتى التفت إليها، وأخذ يشكو إليها صديقتها التى لا تهتم له، ولا لمستقبله المهنى، والتى لا تريد أن تغادر طفولتها التى تكاد تورط الجميع فى قضية هم فى غنى عنها. وأخيراً توجه إليها بالسؤال: هل يرضيك هذا يا ست مسرة؟.

وكان على مسرة التى عاشت فى الأسبوع الماضى مغامرة الفعل، مغامرة التأثير فى التاريخ كما كان نجيب يقول: مغامرة التحول بالمجتمع من مجتمع المفاوضات السلبية مع فرنسا وانتظار رحمتها لتنفيذ معاهدة الاستقلال، إلى مجتمع يفرض قراراته وطلباته، ويقول للفرنسيين: سنقاومكم المقاومة الكبرى. ها نساؤنا اللواتى لسن أقل من جان دارك يعلنَّ احتجاجهن عليكم.

كان على مسرة التى شهدت التجمعات الجماهيرية وحالة الغليان والحماسة والرغبة فى الفعل لدى المتجمهرين أن تلقى محاضرة على جمهور من رجل واحد لم يكن مكترثاً بكل هذا العلاك، فشعاره التاريخى الدائم كان: على العوام ألا يتدخلوا فى السياسة.. و.. لم تفعل مسرة إلا أن كسبت عداءه، وسيزداد هذا العداء حدة حين يقدِّم إليه المستشار الفرنسى لوزارة المالية فى اليوم التالى جريدة الاسكندرية وعلى صفحتها الأولى صورة غريتا غاربو فى ثياب جان دارك، والصورة المفترضة لزوجته، وهى تستعد للبس ثياب جان دارك.

صرخ المستشار الفرنسى: أنت تزعم أن زوجتك مسلمة. هل يسمح دينكم بعرض صور النساء فى الصحف؟.

وغضب ركنى الغضبة الكبرى.. ورغم أنه لم يتأكد من أن الصورة لزوجته، فالصورة مختلفة عن صورة زوجته إلى حد كبير، ولكن الاسم تحت الصورة كان قاطعاً لكل جدال، غضب ركنى غضباً لم يعرفه منذ زمن طويل، غضب على الصحيفة، وعلى زوجته، وكان فى سبيله إلى أن يرفع قضية على الصحيفة ومراسلها الذى نشر صورة زوجته دون علمه كما نصحه المستشار الفرنسى لولا أنه لم يجد محامياً واحداً يقبل الوكالة عنه، وإقامة مثل هذه الدعوى، فالتوكل فى قضية كهذه كان يعنى نهاية مستقبل المحامى المهنى.

ولكنه لم ييأس، وهمس له مدير المال: لم لا تستعين عليها بأقاربها، بالرجال من أهلها، أنت تعرف التقاليد، و.. مضى ركنى إلى عمها الذى رفض التعاون معه تماماً، بل كان فى جوابه ما يشبه التوبيخ، مضى إلى خالها الأول، فاعتذر أيضاً، أما خالها الثانى الأصغر، فقد أعجبته فكرة ممارسة دور كبير العائلة على البنت المتمردة، فاصطحب زوجته وابنتيه، والمختار وشيخ الحارة، ومضوا للقائها، فرفضت لقاء المختار وشيخ الحارة معتذرة بأنها لا تقابل الأغراب، ولم يستطيعوا محاججتها بأن صورتها منشورة فى الصحافة لأن اعتذارها كان سيكون اعتذار نسائهم وسيقبلونه، فدخل الخال وزوجته إليها وحيداً، ولما كان الخال خياطاً بسيطاً، فقد كان يشعر بنوع من الارتباك وهو يدخل غرفة الاستقبال الفخمة التى لم يدخلها إلا مرة واحدة من قبل. دخل الخال ليجدها مع صديقتها مسرة واثنتين من صديقاتها، فارتبك، وتلجلج فى حضور النساء السافرات اللواتى لم يألف سفورهنَّ من قبل، وكان هجومه الأضعف، وكان دفاعها عن موقفها من السنغال والفرنسيين الذين أدخلتهم الآن إلى قائمة من يجب خروجهم من البلد الأقوى، واضطر الخال إلى قبول دفاعها، وانسحب يلوم ركنى الذى لا يعرف قيمة الكنز الذى يملكه.

لم يستسلم ركنى، ولم يستسلم مدير المال، ولا المستشار الفرنسى، خاصة وأن الصحافة فى باريس بدأت تتساءل عما يجرى فى دمشق، فقرروا استخدام السلاح الأقوى، فهم لن يستسلموا أمام شابة ساذجة لا تعرف إلى أين يسوقها المهيجون والمحرضون.

سمع الهرير يبدأ خافتاً، حاول تجاهله، ولكن الهمهمة بدأت تتوتر وتتحول إلى زمزمة ودمدمة، ونحنحات. فقام إلى الستارة السميكة ينحيها ليرى إن كان ما يسمعه حقيقة، أم هو من بنات الوهم اللواتى يلاعبنه ويعبثن به منذ وطأ هذا البيت. نحّى الستارة، ورآه. كان ما يزال حياً بكامل هيبته بسنامه الصغير وقوائمه الطويلة، ورقبته المترنحة تحاول الخلاص من الخطاطيف تشده إلى الصقالة فوق أكوام الحطب التى لم تشتعل بعد.

وعلى مقربة رآهم يجلسون فى وقار ينتظرون الوليمة. كانوا ينتظرون فى صبر.. لا سكاكين، لا شوك، ولا صحون، فتساءل: كيف سيأكلونه إذن؟

اندفع إلى الباب، فالدهليز، فالباحة، ولكنه فوجئ بالباحة تغرقها شآبيب من مطر صحراوى عجيب، كانت السماء رصاصية قاتمة، عاتمة عتمة ما قبل الغروب الغائم، مطر كثيف ولا برق، ولا رعد، وكأن مهمة السماء اقتصرت على إفراغ حمولتها دون ضجيج. أغمض عينيه بقوة يستدعى ما كان يراه عبر النافذة، يستدعى القعود والخطاطيف، يستدعى النظارة المنتظرين لينقضوا ناهشين ولكن الباحة رملية ما بين البلاط، الممتصة لكل ماء دون تردد كانت صريحة الجواب. أصاخ يريد سماع الهرير، سماع الهمهمة والزمزمة، وربما رغاء الجمل الصغير الوجيع، ولكن الصوت الوحيد الذى سمعه كان حفيفاً ضعيفاً لنسمة ضلت طريقها بين جرائد النخيل.

عاد مستسلماً، حائراً، ضعيفاً عن الفهم، ولكنه عبر الدهليز عاد إلى الغرفة المعتّمة عمداً بإسدال الستائر السميكة والمضاءة بالمصابيح القوية. اتجه إلى البراد، صب لنفسه كأس عصير من البرتقال، أضاف إليه قليلاً من الجن، وعاد إلى مقعده.

رشف رشفة، وأغمض عينيه يستهضم ما قرأ، وبهدوء أحس أنه أخذ يعشق هذه الطائشة المتحدية الباحثة عن قدر ودَور والمسماة فاطمة. أحس أنها قريبة إليه. أعوذ بالله. إنها ليست فاطمة الحوّل يا غنام حوّل، ولا فاطمة، ماما رجعت. جوعان. إنها فاطمة أخرى. هز رأسه كمن يحاول الإفاقة، ولكن من منهما الحقيقية، أو.. أهما المرأة نفسها. انتبه إلى أنه يكرر الأسئلة نفسها، ولكن.. أعوذ

بالله.. طيب. سأدعى وأزعم أن فاطمة المخطوط امرأة لا أعرفها.. لم أرها، ولا علاقة بنوة بينى وبينها. لو كان الأمر كذلك، أفكنت أحبها، صدمه السؤال.. حين صدمه الجواب. ولكنك تحبها.. ألم تلحظ أنك لم تغضب لكراهيتك لركنى.. الذى يفترض أنه ركنى الأب. ولكنك لم تكره ركنى الأب.. أنت كرهت ركنى المخطوط منافسك عليها. ثم برز تساؤل جديد: ولكن، هذا الحب، وهذه الكراهية أأنت أوجدتهما، عشتهما، أم أن كاتب المخطوط الماكر ساقك إليهما.. ولكن.. طيب.. أنت الآن مقوِّم لنص يفترض أن تعمل عليه لإنجاز فيلم، ومنجز الفيلم عليه أن يكون محايداً بلا حب أو كره.. طيب.. ولكنى أحببت، وكرهت.. هه.. ما العمل.. أتخلى عن الفيلم؟

رفع رأسه وقد أدرك أن حياته كلها الآن متوقفة على هذا الفيلم وأنه لن يتخلى عنه، ولو رهن عمره مقابله.

أمسك المخطوط ليلاحظ مستغرباً أن المخطوط مطبق، مغلق، لم يكن له بذلك عادة، فهو يترك مقروءه دائماً مفتوحاً عند آخر ما قرأ حتى لا يخطئ مكان التواصل، وحتى لا يخضع لعادته الغريبة وهى القراءة من حيث ينفتح الكتاب، ولا أهمية إلى مكان الوصول، وكثيراً ما أضاع من وقت فى قراءة ما قرأ من قبل، أو فى قراءة منفصلة عن سياقها.. قلب المخطوط يحاول اكتشاف مكان توقفه عن القراءة، ولكن المخطوط لم يستجب إذ ارتد إلى الانغلاق، وكأنه لم ينفتح من قبل.

عاد إلى بداية المخطوط متشككاً ليكتشف فى غير يقين أن الخط مختلف.. إنه ليس الخط الفارسى. بل الخط النسخ.. ولكن.. المخطوط الذى كنت تقرأه قبل دقائق كان بالخط الفارسى، فكيف تحول إلى النسخ. تلفت من حوله متوتراً،.. متوتراً؟.. مرعوباً ربما.. هناك من يلاعبنى.. هناك من يعبث بى.. من.. من..؟ قام إلى الثريا الكبيرة فأضاءها، أضاء أنوار الغرفة كاملة، فقضى على كل ظل فيها. بحث عن مختبئ، عن متخف، عن معابث.. ولكن الغرفة كانت صامتة كالقبر.. القبر؟.. فال الله ولا فالك!! ما هذه الصيغة.. ولكن القبر: ألح. كالقبر.. فى الخارج كنت تسمع الدمدمة والهرير، ثم ترى القعود المعلق، ولكن الحقيقة الجارحة كالشمس والمطر كنست كل ما كنت ترى. أما هنا هنا فليس أمامك إلا القبر وهذا

المخطوط المتحدث عن.. أترى المخطوط هو القبر.. ولم لا.. كلنا في نهاية الأمر، أو المحظوظ فينا هو المقبور في الورق، أو الحجر كسكان المدينة الميتة، أما المتعوس ممن لا حجر ولا ورق يضمهم، فليس لهم إلا الرماد.

رشف رشفة جديدة هارباً من هذه الأفكار، فهو يعرف في نفسه أنه إذا ما انغمس فيها، فلن يتوقف. قال: أتابع سيرة هذه المرأة الورقية المسماة فاطمة. قلَّب المخطوط فلم يستجب ثانية. عاد إلى الصفحة الأولى يتأكد، وقرأ العنوان المدينة الميتة. همهم في رضا، فقلب الصفحة الثانية، وقرأ.. لو لم يكن اسمها فاطمة، وهمهم في سعادة: إذن فهو المخطوط نفسه.. وقرأ السطور الأولى يحاول استعادة ركني وأسفه على حظه في كون اسمها فاطمة. قرأ السطور الأولى يحاول استعادة نضارة الصياغة في لغة ركني. ولكنه فوجئ

لو لم يكن اسمها فاطمة. تنهدت وأنا اضغط على القماش الذي كان أبيض، ثم أكملت: لو لم تكن مسلمة، ولم يكن السنغال مسلمين، ويعرفون أن اسم فاطمة هو الاسم الذي يحبه المسلمون لبناتهم ما هذا. صرخ سلمان.. ما هذا.. نص جديد؟ قلب الصفحات ليتأكد.. إنه ليس نص ركني. نص من إذاً. نص من.. وصرخ بصوت عال: من يعابثني.. من يريد سوقي إلى الجنون، ولكن صوتاً لم يجب عليه ولا حتى الصدى، فقد كانت الجدران مغطاة بالستائر واللوحات.. كرر التمتمة: نص من؟ ولما لم يجد جواباً. انحنى على المخطوط يحاول اكتشاف النص وصاحب النص شهق عميقاً، عميقاً إلى عمق الصدر: ولو لم تكن فرنسا قد جندت السنغاليين، بل لو لم تكن فرنسا قد دخلت سورية أصلاً منتدبة عليها لتعليمها الديمقراطية، وفن بناء الدولة والحكومة، بل لو لم يقم القوميون العروبيون بالثورة على الأوتوقراطية الثيوقراطية المتعلمنة العثمانية ولو لم يطاردنا المغاربة في غرناطة يحطمون جمهوريتنا الوليدة، لأصبح مطارداً من الجمهوريين والملكيين وفرانكو والكنيسة.. يا إلهي لقد أصبح العالم كله ضدي.

قلب سلمان المخطوط في عصبية. ما هذا. ما الذي يجري.. من صاحب هذا النص.. ما علاقته بفاطمة.. قلَّب المخطوط.. الورق نفسه.. الحبر نفسه.. الخط نفسه.. وإذن.. عم يتحدث.. ما حكاية غرناطة.. وفرانكو وثيوقراطية.. من.. من..

ولما لم يجد جواباً إلا فى المخطوط عاد إلى المخطوط.

ضغطت الريشة باللون الرصاصى ثانية على القماش الأبيض: يا إلهى ما أجمل الولادة الثانية. تنهدت.. وضعت الفرشاة ثانية، وأغمضت عينىّ المتعبتين: "الفرقة الأجنبية، الليجيون ايترانجيه، جمعية الهاربين من الأحلام، هيئة المولودين من جديد بإرادتهم الشخصية، كتيبة مغيرى أسمائهم ودينهم وأوطانهم وماضيهم.

الفرقة الأجنبية جمعية المتعاقدين على بيع أرواحهم بقروش تحميهم من الماضى المطارد..

تأملت الكروكيه على القماش الملوث بالألوان لم تتضح، وأطلقت نفثة تهكم ضعيفة.. فى الماضى كانوا يقيمون نطاقاً حول المعابد من لجأ إليه.. احتمى فيه، فامتنعت مطاردته على الدائنين والواترين وقصاصى الدم. إنه حق الآلهة فى حماية من يلجأ إليها.

الفرقة الأجنبية نطاق حماية الآلهة الجديدة، آلهة الموت المشترى، الحامية من دَين وعشق، وقتل، وماض مهروب منه.

الفرقة الأجنبية ممحاة الماضى ومرآة الحاضر.. أما المستقبل، فمن يتَحدث عن المستقبل، والموت هو البضاعة المشتراة، والمباعة، والمتداولة، عملتها عملة تجاوزت الفرنك، والمارك، والباوند، والدولار، إنها الموت، فالبيع بالموت والشراء بالموت، والصفقة كلها هى الموت.

فى المعسكر الأول بعد الولادة الجديدة فى الفرقة الجديدة، رأيتهم واللحوم فى أفواههم ينهشون. كانوا يقيمون لهم حفل تكريس وتعميد جديدين، حفلاً شووا فيه الخنازير والعجول على السفود كاملة. وكانوا ينقضون وينهشون فى شهوة لم تكن تشبه شهوة الطعام. جرُّونى إلى مشاركتهم، لأكرِّس أخاً جديداً فى أخوية النهش، فى فرقة الموت. لحظت مزق اللحم بين أسنانهم، ولمعان الدهن على ذقونهم، فتساءلت: أى لحم يأكلون.

آه.. لو لم يكن اسمها فاطمة، ولم تكن مسلمة، ولم تكن زوجة لذلك المكّاس.. تأملت الصور ثانية على الجدران. لقد رسمته عدة مرات، وبأوضاع مختلفة.. كان

يشرب الروم، ويسترخى، ويتركنى أرسمه. ولكن يا إلهى حتى وهو فى عمق استرخائه لم تفارقه تلك النظرة فى العينين القاسيتين. من أين وصلت إليه هذه القسوة. هاتان العينان القاسيتان. لا يجب أن تكون لجاب، أو مكاس مثل هذه النظرة، كيف وصلت إليه؟ هذه القسوة التى لا يملكها إلا رجل عاش القسوة الكثيرة، ورأى الدماء الكثيرة، وأمر بالقتل الكثير، بل ربما مارس القتل بيده المباشرة الكثير.. آه.. حركت الفرشاة ثانية على المسطح المرعب الأبيض.. آه.. لو لم يكن اسمها فاطمة، ولم تكن على هذه الشكيمة الصارمة القادرة على فرض إرادتها على ذلك الغندور ذى العينين القاسيتين والكفين يفركهما فى طلب للرضا مثل لولو صغير يتقافز من حولك.

آه.. لو لم يكن اسمها فاطمة، ولم تكن النسخة الشرقية من غريتا غاربو..

حين رآها الكابتين فيليب قائد حامية مدينة دير الزور وقائد كتيبة الليحيون ايترانجيه التى نقلت إلى مدينة العمد المحطمة فى محاولة لضبط المتمردين البدو والمدعومين من انكلترا كما كانت القيادة فى دمشق تسميهم. حين رآها الكابيتين فيليب كان قد أنهى بناء شهرته فى البادية الشامية كلها على أنه الأقسى بين رجالات فرنسا.. كان قد استطاع بناء شهرته عبر غارات عنيفة على مواقع البدو، وعلى القرى البدائية المرتجلة من طين ولَبِن وقش، وعبر نهب خيولهم النادرة، ثم بيعها للجيش الفرنسى على أنها خيول حمولة وجر، ثم قبول افتدائها منهم بكل ما يملكون من ذهب أحمر.

.. لا أعرف لم يصرون على وصف الذهب بالأحمر مع أن لونه ذهبى، وفى أسوأ الحالات أصفر.

لم يرفع سلمان رأسه، ولم يحدق فى الستارة السميكة، ولم يصغ إلى الهرير والرغاء فى الباحة، بل ظل يحدق فى المخطوط الذى تحوَّل إلى أبيض تحت نظراته الغائمة، وأخذ يفكر: أصبح الأمر يقيناً. هناك مخطوطات ثلاثة. حين فقدت المخطوط الأول المبدوء بـ لو لم يكن اسمى فاطمة، وقرأت مخطوط ركنى المبدوء بـ: لو لم يكن اسمها فاطمة اعتقدت لبعض الوقت أنى ربما كنت مخطئاً وأن ليس هناك مخطوط باسم لو لم يكن اسمى فاطمة، ولكن حين اختفى مخطوط ركنى

وقدم لى مخطوط هذا الرجل المسمى بـ الكابيتين فيليب الذى يشاركنى كما يبدو الغيرة من ركنى والإعجاب.. الإعجاب؟ ربما بفاطمة أصبح على الآن أن أتساءل: أهى سيناريوهات أدبية ثلاثة. أهى رؤى ثلاثة يقصد منها تشكيل الصورة الكاملة لفاطمة.. لا.. لا.. لا.. المخطوط مسمى بالمدينة الميتة.. فاطمة مجرد خط من الخطوط. طيب.. لنقل تشكيل صورة فاطمة وعشاقها الثلاثة.. الثلاثة؟ وهل نسيت نفسك.. ولكنهم عشاق لفاطمة الحقيقية.. رأوها وعايشوها، فعشقوها، أما أنت فعاشق ورقى فقط؟ فقط؟ وهل تستطيع استحياءها لتعشقها إذن..

تنهد: طيب.. الأمر انتهى. فاطمة الحولّ يا غنّام حولٌ انتهت.. لم يعد لها وجود، لا أحد يذكرها أو يعرفها غيرك، وأنت لم تستطع، أو لم ترد تثبيتها على الورق، فهى لا تشبه ديزدمونه، ولا سونيا معشوقة راسكولنيكوف، ولا جولييت روميو. ولكنهم ثبتوها، أو ثبتها كاتب ومصحح ومراقب المخطوط، وها هى تتجسد لتصبح مركزاً للصراع.. تنهد ثانية.. لم يكن ينقصنا إلا الكابيتين فيليب، ولكن كيف عرفها. أين؟ أين؟ أليست من إشارة واحدة فى المخطوطين السابقين للقائهما. كيف إذن.. كيف.

حين رفعت فاطمة المنديل عن وجهها خفية، ربما لتطرد ذبابة تسللت لما تحت الحجاب، أو ربما لتجفف قطرة عرق آذت عينيها تحت ذلك الحجاب الذى لم يكن سميكاً كحجاب المسلمات المتشددات عادة، بل كان من ذلك النوع الرقيق الذى تضعه الشابات المودرن، والمستورد من فرنسا، والذى كانوا يسمونه بالجورجيت نصف الشاف.

أسدلت فاطمة الحجاب ثانية ربما استجابة لهمهمة الرجل الذى يصاحبها، والذى عرف فيليب فيما بعد أنه زوجها، وأنه مدير المال الجديد.. و.. عرف فيليب أن قدره سيشتبك ثانية مع انجليكا عذابه وعشقه وغريتا غاربوه..

أكانت فاطمة تضع البونيه إذاً؟ فكر سلمان.. أنا لم أعرفها إلا سافرة تمضى إلى معارض الرسم، وتصحبنى أحياناً، وتسلم، وتخالط الصحفيين والنقاد والفنانين.. أكانت تضع الحجاب.. كيف يمكن لمن تعوّد الحجاب أن يسفر.. فكّر: دون حرج؟

أخذ رئيس الشرطة الموسيو دالاتى يحدثه عن القادمين الجدد بتلك اللغة الفرنسية الحلقية الخشنة التى تميز سكان الجانب الآخر من البحر المتوسط حين يتحدثون الفرنسية. كانا يلعبان طاولة النرد بهدوء من ينتظر بقية أصدقاء السهرة ليلعبو اللعب الحقيقى. صحيح أنه لم يكن حقيقياً جداً.. فمراهناتهم لم تكن تزيد على بضع سنتيمات قليلة قد تصل إلى الفرنكات، ولكنهم كانوا حريصين على ألا يبالغوا فى الرهان، وكان هذا جزءاً من اتفاق لم يصرّح به، ولكنه كان صارماً لدرجة أن بعضهم كان ينسحب من اللعب إن حاول أحد اللاعبين زيادة مبلغ الرهان. كانوا مصممين على أن تستمر المجموعة، ويستمر اللعب.

وهتف رئيس المخفر دوشيش. هتف فى فرح حقيقى، وكأنه يعلن نصراً حقيقياً.. عجيب أمر اللعب. إنه يشبه الحرب، ففى الحرب لا يمكن أن تلعب بحياد، أو نصف لعب، فيما أنك قررت أن تلعب، فعليك أن تلعب حتى تغلب الطرف الآخر..

لاحظ رئيس الشرطة عدم تهيج فيليب ولا اعتراضه على غشه فى رمى النرد الذى اعتاده كلما لاحظ انشغال فيليب، فيحرز نصراً رخيصاً، فباخت حماسته، وقال: أتشرب كأساً؟

وهز فيليب رأسه إيجاباً فى ملل. أقفل رئيس المخفر الطاولة، وأشار بيده إلى الخادم، ثم أكمل وكأنما يتابع حديثاً بدأه: أرجو أن يكون مدير المال ابن حظ!

كان التعبير جديداً على فيليب، فسأله عما يعنى، وكان للموسيو دالاتى عادة ترجمة المصطلحات العربية إلى الفرنسية، فتبدو طريفة خارج سياقها اللغوى.

قال مرة: يا إلهى، لو كان لدى الوقت الكافى لدراسة التشبيهات والاستعارات، وتنقلهما بين العربية والفرنسية لأكشف مبلغ طرافة نقل تشبيه من لغة إلى أخرى، فقد سمعت مرة أن أحد الجنود الفرنسيين قد صفع وطرد من الحانة حين ترجم كلمة ما بتيت شو إلى العربية، فقال لجليسته: أنت كرنبية صغيرة!! وكانت نكتة الكتيبة لشهور.

سأل فيليب رئيس المخفر: هل قابلته؟ تمتم سلمان: كاتب محترف هذا المصحح

أو المراقب، أو الكاتب الثانى. إنه يتنقل بين الضمائر بسهولة وكان فيليب يريد أن يسأل الموسيو دالاتى إن كان قد قابل، أو لقى، أو عرف من سيعرف فيما بعد أنها فاطمة الشهيرة، ولكن الشرق المتظاهر بالخجل منعه من قول ما يريد قوله حقاً. كان لا بد من المداورة والمناورة. وكأن الموسيو دالاتى فهم مغزى سؤال فيليب، أو أنه أراد مفاجأته، فقال فى انشراح والخادم يضع الكؤوس على الطاولة: أتعرف من الغازى الجديد لمدينتنا.

لم يشأ فيليب جعله يستمتع كثيراً بنصره، فقال: أليس مدير المال الجديد. ولكن دالاتى تابع مستهتراً بمعلوماتى الضعيفة: فاطمة!

لم يفهم فيليب ما عنى دالاتى بكلمة فاطمة، فتابع: فاطمة، المرأة العربية التى شغلت الصحافة المحلية العربية، والفرنسية. ولما رأى عبوس عدم فهمه تابع: المرأة التى أقسمت أن تضرب عن الخروج من بيتها حتى يخرج الفرنسيون من سوريا.

أشرقت الذكرى فجأة، فتذكر الكتابات الكثيرة فى الصحف تتحدث عن المتمردة الوحيدة على فرنسا، المرأة التى ثارت لإهانة لم يستطع رئيس الوزراء، والسياسيون أن يثوروا لها. وأحسَّ بسعادة خفية: إذن فغريتا غاربو مدينتنا هى فاطمة. ثم تذكر: ولكن السنغال موجودون، والفرنسيون موجودون، وأشار إلى نفسه: والليجيون ايترانجيه موجودون، فكيف خرجت من بيتها؟

فوجئ الموسيو دالاتى رئيس المخفر بالسؤال، ولما لم يكن يملك جواباً، فقد أخذ يتلفت من حوله كمن يسعى وراء نجدة لم تخيبه إذ نفض الخادم المفرش الأخضر قريباً منهما إيذاناً بقدوم المجموعة التى ستلعب اللعب الحقيقى.

ضحك اللاعبون فى نهاية السهرة من حظ الكابيتين أوغستان.

توقف سلمان مصعوقاً: إذن فيليب هو أوغستان.. أعوذ بالله. ها هى الخطوط تتكشف. زوجة كبير عدادى الغنم، الصبية الجميلة الساذجة رغم كل مظاهر التحدى والتمرد.. فى مدينة واحدة مع الكوموندان فيليب أوغستان قائد كتيبة الليجيون ايترانجيه. هه.. قصة جميلة.. هاه ها هى تبتعد عن المألوف والعادى.. شرد يفكر.. هه.. مشروع سيناريو مدهش. و.. حضارى.. حوار شرقى المتوسط

وغربيه عبر فيليب وفاطمة.. وتوقف فجأة مرتبكاً. فاطمة. أنسيت من فاطمة؟ وأجاب بلا مبالاة: لا.. لم أنس، ولكنى أتحدث عن فاطمة الورقية.. فاطمة التى صنعها مصحح ومراقب المخطوط..

رغم كل الحيل التى أصر عليها فيليب لاستدعاء الحظ، ورغم إبعاده كل ما يبعث على التطير إلا أنه خسر كل رهان راهن عليه، ورغم ضآلة قيم المراهنات التى كانوا متفقين عليها، إلا أن الخسائر حين كانت كلها من نصيبه تراكمت لتصبح خسارة مزعجة..

كانت سخريتهم ممزوجة بالتساؤل، فكيف يخسر كل هذه الأشواط وهو اللاعب المحترف؟ إلا أن واحداً لم يستطع حدس سبب هذا الشرود، ونسيان حساب ومعرفة ما تبقى من الورق، وما يحمل الآخرون من ورق، والوحيد الذى كان يعرف سبب شرود أوغستان كان هو الكابيتين فيليب نفسه، فرغم كل الأحاديث والنكات والقفشات التى تبودلت إلا أن واحداً لم يستطع الإجابة عن سؤال لم يسأل مباشرة، وإن سئل مداورة: كيف استطاعوا جعل هذه المرأة تخرج من بيتها و.. إلى هذه المدينة البعيدة عن الكهرباء والسينما والبارات الحافلة بساقيات جمعن من معظم أقطار البحر المتوسط يلبسن التنانير القصيرة، ويكشفن عن مفترق الصدر، ولا تحمر وجوههن لسماع قفشة غزل، أو نكتة داعرة تقال عمداً لدى عبورهن.

فى البيت الكبير الواسع الذى اتفق مع الخادم على أن يتركه مع الغروب ليخلو فيليب فى مملكته الوحيدة مع فونوغرافه وذكريات ما قبل غرناطة صبٍّ لنفسه كأساً من البوردو الترف الوحيد الذى لم يتخل عنه أبداً رغم بعد المدينة عن الحضارة والمواصلات، ومن يحسنون تذوق مشروبه المترف.

فى البيت الكبير وقد أعمل الفونوغراف على بارتوك الحزين استدعاها.. من؟.. أنجيليكا.. غاربو؟.. أم فاطمة؟ ولكنهن اجتمعن ليواجههن بعد الكأس الثالث بسؤال: كيف خرجت فاطمة من بيتها وهى التى ملأت الصحافة المحلية والعربية والفرنسية صراخاً. كيف؟

ما لم يعرفه فيليب فى جلسته مع البوردو وبارتوك عرفه فى يومه التالى حين

مضى إلى حمص مع الضوء الأول لمقابلة الجنرال دانتز بناء على طلبه، وهناك عرف كيف خدعوها وتخادعت، فلم يكن أمامها إلا أن تنخدع.

حين يئس ركنى من تأثير الأهل عليها، وحين عرف مدير المال، ومعاون الوزير، والمستشار الفرنسى بخروج الخال من لقائها مقتنعاً بصواب موقفها وإعلانه بأنه سيرسل زوجته وابنتيه تنضمان إليها منذ الغد فى اعتصامها أدركوا أن الأمر سيفلت زمامه نهائياً، وأنهم قد يضطرون إلى استخدام عنف تكون عقابيله أكثر وخامة عليهم من الوضع الحالى، وأخيراً تقدم مدير المال. قال: لا حل إلا التجحيشة، وضحكوا قليلاً، ثم سأله المستشار الفرنسى عما يعنى بالتجحيشة، فقال: فتوى تبيح لها التحرر من قسمها دون أن تنكث به. وتنهى هذا الوضع غير المعقول.

تداولوا فى الأمر وأعجبتهم الفكرة، أعجبتهم حتى أنهم تخلوا عن أى تحفظ عليها، ومضوا إلى الشيخ الذى قدم لهم التجحيشة.

فى صباح اليوم التالى الباكر كان جدار البيت الخلفى يهدم، ذعرت فاطمة فى البدء، وأيقظت ركنى ليرى ما يفعل الجيران، ولكنه ما زاد على أن انقلب فى السرير على جنبه الآخر تاركاً فاطمة تواجه الجدار الخلفى يهدم، وأمه تغير موقع سجودها دون أن تستجيب لنداءات فاطمة، فقد غاضبتها منذ موقعة الأصص المحطمة.

هتفت، شتمت، لعنت. استدعت الصديقات اللواتى كن يؤيدنها، ولكنهن لم يكنّ قد استيقظن بعد، ومن استيقظت فوجئت بالدوريات تسد مداخل الشارع من كل مداخله مانعة المعتصمات من الانضمام إلى فاطمة فى اعتصامها.

رأت فاطمة نفسها وحيدة، زوج نائم، وحماة ساجدة لا ترفع رأسها، وجيران صم، وجدار يهدم.. لبست ثيابها مقررة أن تتجه إلى الجيران بنفسها تحتج وتستفهم، ولكنها ذكرت قسمها، فارتبكت. البيت يهدم، وعلى أحد ما فعل شيء، وقبل أن تصل إلى حل، كان الجدار يسقط بكامله لتفاجأ على الجانب الآخر بالمختار، وشيخ الحارة، ورئيس المخفر، ومعاون وزير المال، والشيخ صاحب الفتوى التجحيشية. وحين ارتبكت لمرآهم انتبهت إلى همهمة ركنى إلى جوارها، وقبل أن

تبادله الجدال رأت شيخ الفتوى - التجحيشة يعبر فوق ركام اللبن والحجر الساقط بصعوبة ليصل إلى الزوجين ويقول: برى بقسمك الطاهر يا ابنتى بألا تخرجى من بيتك إلا بعد رحيل السنغال. برى بقسمك يا ابنتى، واخرجى من بيت الجيران، ومن باب الجيران، وبذا لن تحنثى.

انفجر الهرير فجأة، لم يأت متسللاً، ولم يصل خافتاً، ولكنه انفجر كعاصفة، انفجر الهرير والهمهمة، والزمزمة، والدمدمة. أصاخ قليلاً، وسمع أصوات السكاكين والأنياب وفحيح النهش، فأرخى رأسه فى حزن: إنه زمن النهش. وتذكر ما فكر به منذ البداية. إنه الزمن القَرِم.

فكر فيليب: ها هو الذكاء الليفانتى يتغلب على المأزق الذى وضعته فيه امرأة اسمها فاطمة. هه. عرفوا أن فاطمة لن تستطيع حتى لو أرادت أن تنكث بقسمها. فالمعتصمون والصحافة سيمنعونها، وبذا لن تستطيع الخروج، والفرنسيون لن يخرجوا من سورية لأن امرأة طائشة أعلنت الحصار فى بيتها ما لم يخرج الفرنسيون، وإذن؟ نقسم البيدر إلى نصفين. ليس هذا فحسب، فها هو ركنى يخرج من المعمعة رابحاً، فلقد عينوه مديراً للمال فى البادية كلها بأصوافها، وسمونها، وأجبانها، ولقاها الأثرية.

أصم سلمان أذنيه عن الهرير فى الباحة، فهو يعرف أنه لو خرج لتفحصه، فلن يجد إلا الباحة الموحلة.. فكر: ها هو الكاتب المصحح المراقب. هل نقول القدر يعدٌ لهذا اللقاء العجيب بين المهزوم الإسبانى الهارب من الحرب البروفة لكل ما سيجرى فى العالم منذ ذلك الحين، والمتخفى فى الفرقة الأجنبية، والقاسى المنتقم من البدو البسطاء وكأنه يعاقب نفسه وهزيمته بأذاهم حين لم يستطع عقاب فرانكو ورجاله، وبين براءة المرأة الشابة تظن أنها بقسم تعاقب نفسها به فى احتباس نفسها فى البيت حتى لا تلتقى سنغالياً، ولكن كهولة الشرق وحكمته كما سماه المصحح المراقب (الليفانت)، خليط الفينيقيين، والآراميين، والعبريين، وتجار الزمان الذين لا يخرجون خاسرين حتى فى الجحيم. ها هو اللقاء الذى لا يمكن لمخيلة كاتب ترتيبه. ها هو القدر يرتبه. ترى إلام سيؤدى هذا اللقاء.. توقف قليلاً مصيخاً لهرير لم يعد يسمعه. ليفاجأ بالسؤال ثانية، ولكنك وصلت إلى الحيادية..

أتراك فصلتهما فعلاً، فاطمة الحوَل يا غنّام حوَل عن فاطمة السنغال ومعاوية وأوغستان.. انحنى فوق أوراق مخطوطه يريد المتابعة حين رأى أبو الشيما فى وزرته البيضاء المتسخة وهو يلقى الشعر فى مديح مدير الناحية وأمين الفرع وكبراء الزمان.

كان كل الأصدقاء من شلة لعب الورق وحتى رفاق الصيد يحاولون الدخول إلى بيت فيليب مساءً ضيوفاً، أو زواراً طارئين يعرضون استمرار اللعب أو متابعة الشراب، ولكنه كان صارم الرفض بحيث لم يكرروا المحاولة.. كان البيت الكبير أكبر سعة من حاجة عازب، ولكنه كان مملكته التى ورثها عن قائد الحامية السابق يخلو لنفسه فيه ليلاً يشعل الراديو الذى مدد له عشرات الأمتار من أسلاك الهوائى العمودية والأفقية حسب تعليمات كتيب الهوائى المفيد، ولكنه لم يحصل إلا على خشخشات كانت تنهزم أحياناً تحت أنغام موسيقية بعيدة تثير فيه رغبة فى البكاء، ولكنها سرعان ما تغيب تاركته يكمل النغمات واللحن من الذاكرة، ثم تبدأ رحلة التوليف المجنونة، والعبث بمفتاح المحطات، ومفتاح التنغيم، ثم فى إدارة عصا الهوائى العمودى العالية جداً، والتى كثيراً ما أسقطتها رياح الصحراء فيكون أول ما يفعله فى الصباح التالى هو استعادة تثبيتها، وزيادة رباطاتها، وإكثار الأسلاك الممتدة منها إلى أربعة أركان البيت، فلعله مستطيع يوماً اصطياد واحدة من المحطات البعيدة تربطه ثانية إلى غرناطة أو إشبيلية أو.. .. حتى باريس، ولكن الخيبة واحدة، والخشخشة واحدة، وتسرب نغمة موسيقية واحدة تثير لديه رغبة البكاء واحدة.

ولشهور سيظل يجرب التقاط نغمة موسيقية، أو صوت بشرى آخر دون فائدة، وأخيراً أصغى إلى نصيحة الأجوتان ميشو الذى ذكره بالمثل العربى: إذا لم يكن ما تريد، فأرد ما يكون. ولما سأله عما يعنى، ذكَّره بأن البطارية الضخمة إذا فشلت فى تشغيل الراديو فبإمكانها أن تشغل الغراموفون، وبذا سيستطيع سماع كل الأسطوانات التى يحبها وحسب مزاجه الشخصى. وهكذا استقدم فيليب مجموعة بارتوك، ثم ديبوسى، ثم الحبيب موزار، ولكنه لم يتوقف عن المحاولة والبحث، فلعل محطة ما من العالم القديم تتقدم، وتذكره بأنه ليس منفياً فى هذه

الصحراء إلى الأبد.

كانت الأسطوانة المدسوسة فى الفونوغراف لبارتوك، وكان يجب أن يكون قد سئمه بعد سماعه لثلاث ليال متتالية، ولكنه كان أكسل من أن يغير الأسطوانة، وأكسل من إعمال مخه بحثاً عن لحن جديد، فاسترخى، وترك الأسطوانة تدور، وتحمله إلى تأملات الحزن.. أووف هذا الحزن.. ولكن الوجه وجه غريتا غاربو.. يا إلهى لو أنه ليس فى هذه المدينة الملعونة المضطربة بالأعمدة المكسرة، والجدران الغارقة فى الرمل، والتماثيل مبتورة الرؤوس، والمعبد المهجور من عابديه لقرون لقال إنها غريتا غاربو شخصياً. أغمض عينيه، فارتفع المنديل عن الوجه زاده سواد المنديل بياضاً، العينان الجميلتان الجارحتان الزرقاوان، كيف وصلت مثل هذه العيون الشمالية إلى هذا المكان المنفى من العالم.. كيف..

تسلل بارتوك.. الولادة الثانية.. نعم.. إنها الولادة الثانية التى لم يذكر فيها مكان الولادة.. ها هى تسوقه إلى سورية حيث يضيع بين الناس فى ثيابه المدنية إن لم يتكلم. لقد تعلم بعض العربية المغربية، ثم السورية، ولكن من الأفضل ألا يتكلم لأنه حين يتكلم يكشف للناس أن ولادته الثانية غير مكتملة.

فى واحدة من مكاشفات ما بعد الشراب الطويل الذى لا يسكر.. آه.. كان الشراب الطويل يمرضه، ويقيئه، ويوقعه أرضاً، ولكنه أبداً لا يسكره، فيجعله ينسى، أو يضطرب فى الثرثرة بما لا يريد كما يفعل الآخرون. وحين كان الآخرون يغبطونه، بل يحسدونه، كان يصرخ: الوعى لعنة، ليت هذه اللعنة تتخلى عنى.. ولكنه كان محكوماً بلعنة الوعى الذى لا يغيِّبه الشراب.

كان قد قال للأجوتان ميشو الذى لم يكن ميشو، ولم يكن فرنسياً، بل كان جزائرياً هارباً من مذبحة دموية ثأرية سخيفة اعترف بها فى غيبة سكر، ولم يجد ملاذاً إلا فى الفرقة الأجنبية يختفى فيها عن الجميع، المطاردين والمطرودين، الواترين والموتورين. كان قد أجابه عن سبب هذه الدموية المرعبة فى قتل وحرق ونهب تلك العشيرة البدوية المسكينة التى هرب فرسانها الخمسون على خيولهم وأفراسهم الأصيلة أثمن ما يملكون، هربوا، فلقد كان درس القبائل الأخرى أكثر مرارة من أن ينسى. هربوا يظنون الليجيون ايترانجيه تشبه الجيوش الأخرى فى

الانضباط والشرف، فلن تُغصَب النساء، أو يؤسرن، ولن يقتل الأطفال، ولن تحرق الخيام، فلم يكونوا قد عرفوا بعد بوصول الكابيتين أوغستان ذلك الاسم الذى سيحرفونه كما سيعرف فيما بعد إلى ساتان وضحك كثيراً عند سماعه، فلم يخطر له ابداً الربط بين أوغستان وساتان، ولكنه لم يفهم أيضاً كيف استطاعوا معرفة أن ساتان هو الشيطان.

كان قد قال للأجوتان ميشو يفسر له سبب هذه الدموية التى اشتكى منها حتى ميشو. قال: لا أعرف، ولكن فىَّ شيئاً لا أعرف كيف يطغى، فيجعلنى لا أعرف التوقف عن القتل.

قال ميشو الذى لم يكن يوماً ملاكاً: ولكن المرء يحس وكأن لك ثأراً شخصياً مع هؤلاء المساكين.

وصمت فيليب.. وعلا بارتوك يبث حزنه. جرَّ نفساً من غليونه الضخم، ولكنه كان قد انطفأ. أراد إشعاله ثانية. نفضه فى مطفأة قريبة ليرى إن كان قد تبقى فيه شىء من التبغ، ولكن الغليون لم يسقط إلا الرماد.

أطلق نفثة تهكم.. كانوا قد أشبعوه بالحكايات الرومانسية عن الشرق، والبدو، والبدائى النبيل، ولكنه لقى وجهاً آخر، لقى البدوى المصاب بالسل، والبدوى الجائع، والبدوية التى تكدح عشرين ساعة فى اليوم ما بين حلب وخضٍ، وتجبين، وغسيل صوف، ونسيج خيام وبسط، لتشبع بطون أطفال سيموت أكثرهم قبل الخامسة، سيموتون بالزحار، وسيموتون بالسل، و.. بفقر الدم.

وقفزت العينان الزرقاوان تهربان به من بؤس البدوى الجائع، وشعر فجأة أن حياته ستظل ناقصة إلى الأبد إن لم يستطع الحديث إليها، ولكن ذلك المكَّاس الذى أصبح مديراً للمال ركنى البندقدار.. يجب أن يدخل عالمهم.. يجب.. كيف.. وتمنى لو أنه سأل رئيس المخفر إن كان ركنى يلعب الورق.

فى الصباح التالى أرسل وصيفه إلى حقل التيوليب الكبير، وهو لا يعرف كيف اكتشف ذلك الحقل العجيب المختفى وراء البستان الكبير، حقل ليس فيه إلا زهور التيوليب البرية. كانت زهوراً من جمال لا يمكنك أن تجده فى التيوليب الفرنسى أو

الهولندى، فقد كانت عطرة عطراً زخماً خاصاً، عطراً صنعته الكثافة والندرة وانتظار شهر فى العام، شهر واحد تزهر فيه بصلات التيوليب ثم تختفى.. الزهور، والأوراق، ولا يبقى إلا البصل الكامن فى التراب.

كان قد اعتاد فى صباحات الأرق، وحين يكون البدو ساكنين فى انتظار تمرد آخر أن يمضى إلى ذلك الحقل، فيكرِّم نفسه بباقة من تيوليب يختلف لونها حسب المزاج، فإن كان الرابح فى البوكر فى ليلته الفائتة، فله التيوليب الأحمر، وإن كان قد أرق أرق ما بعد غرناطة وفرانكو، فليس له إلا الأبيض، وإن كان قد عاد من واحدة من غزواته بين البدو يجر عدداً من الأصائل التى سيفتديها أصحابها منه بأغلى من ثمنها قبل أن يبيعها إلى سائقى الطنابر إذلالاً لها، ولهم، فله الأصفر.

عرف وصيفه بمزاجه هذا، فرأى اختصار الطريق والتقرب من الكابيتين كلما أراد إجازة، أو افتداء أسير قبض ثمن فدائه، فكان يصالحه بالباقة الكبيرة من زهور التيوليب.

كانت المفاجأة حين حمل عزيز إليه تلك الباقة العملاقة من التيوليب المقطوف. كان فيها شىء من ضيافة، وشىء من فروسية، وشىء من تحرش، وشىء من رغبة فى التعرف، وكان أن أمره بحملها إلى الوافد الجديد.. مدير المال.. ومضى عزيز إلى بيت مدير المال يحمل تلك الباقة التى لا يتصور العثور عليها فى هذا المكان الذى هجره الرب منذ أن سقطت أعمدته، وانهشمت رؤوس تماثيله، وسقطت قبة معبده، لكن المضحك كان أن رئيس المخفر سبقه إلى محاولة التعرف إلى غريتا غاربو المحجبة. حين حمل إلى بيت مدير المال الجديد لا باقة من تيوليب سيموت بعد ساعات، ويرمى فى الزبالة، كما لا يدرك هؤلاء الفرنسيون، ولكنه أرسل إليها غزالاً صيد منذ ساعات، وكان أن استقبلت هدية رئيس المخفر بكل الإعزاز الذى يستقبل به غزال مصيد مسلوخ، نظيف جاهز للشى، ولصنع الكبة التى سيتناولونها على مائدة مدير المال فى ليلة التعرف على مثيرة صحافة الشرق على فرنسا.. فاطمة التى ظل مصمماً على تسميتها بغريتا غاربو.

كان حفلاً ناجحاً بالمقاييس المحلية، فلقد استقبل مدير المال الجديد فى البيت الكبير المحجوز دائماً لمدير المال كبراء المدينة، وكبراء الموظفين. كان الحفل ناجحاً

قُدِّم فيه الشراب الكثير، والطعام الشرقى الكثير الذى عرف عن طريق عزيز أنه ليس من صنعها، فذلك الطبق الكبير الذى يسمونه المنسف لا يمكن لمدينية أن تتقن صنعه، بل كان نساء الكبراء وخادماتهن ومن أراد التعرف إلى الشامية الحسناء، وزوجات من أراد التقرب من مدير المال الذى يستطيع أن يخرب بيوتهم بالضرائب والغرامات والمكوس لو شاء، ويستطيع أن يفيد ويستفيد لو شاء، فبدأوا طريق التعرف صداقة وهدايا، ومساعدات لتكون الحفلة الأنجح فى تاريخ المدينة الضائعة عن رحمة الله منذ قرون.

كانوا، الحافلين والمحتفى بهم، المضيفين والضيوف مبتهجين، وكانت لفتة طيبة لم يألفها جفاة المدينة الضائعة رؤية التيوليب الموزع فى فازات مرتجلة بدءاً من قطرميزات لم تحتو الزيتون والمكدوس يوماً، وانتهاء بجرار صغيرة كانت قد أعدت لتبريد الماء حين توضع لترشح فى النوافذ ومسارى الريح.

كانت لفتة طيبة أعادت إليه بعض اعتزاز خاصة بعد أن سمع عن صفائح السمن وأكياس الرز والسكر التى حملت إلى بيت مدير المال، فأحس بأن الورود المقطوفة من البرية لن تعنى شيئاً لهؤلاء الجفاة، وكان اكثر ما يخيفه هو أن يصطدم بها مرمية أمام الباب، أو فى ركن مهمل من أركان البيت، ولكنها.. لم تكن.

كانت لفتة طيبة زاد فى طيبها رئيس المخفر الذى عرف ولا شك أن فيليب هو من أرسل بهذه الورود، فحمل واحدة تزين بها متشكلاً خلف أذنه، فجاراه بعض الموظفين، وسمعت قهقهة ناعمة صغيرة اشبه برنين أجراس صغيرة من فضة. هذه الضحكة الناعمة لم يسمعها سواه كما قدَّر حين لم ير أى انعكاس لها على وجوههم، ولكنه يعرف أنه سمعها، فاعتبرها مكافأة جيدة على تجشمَ وصيفه عناء قطفها فى الصباح الباكر، وقبل أن تسفعها الشمس فتجبرها على الانطواء على نفسها، وانتظار البرد لتنتعش ثانية.

أكلوا حتى تخموا، حيَّوا، وتقبلوا التحيات حتى تعبوا، ولكنه كان حفلاً ذكرياً مغلقاً. وما كان الحفل الذى يتوق إليه. كان يتمنى بطريقة غامضة أن يراها فى هذا الحفل، أن يرى كيف تبدو غريتا غاربو المحجبة تحت أضواء الشموع

والفوانيس، ولكنه حين لم يرها لم يفاجأ، بل كان يعرف، وعرف أنه كان يعرف أنه لن يراها، فهو فى الشرق حيث لكل شىء مجراه المحدد.

فيما بعد وحين كان يستمع إلى بارتوك، ذكر فجأة الأمبوبايا، أولئك النساء الجميلات، الرشيقات، المتطاولات بأذرعهن إلى السماء، الرافعات أقداماً صغيرة، خفيفة وردية عن الأرض، وكأنهن يطرن. تنبه كل عرق فى سلمان فجأة، كان يعرف أن الأمبوبايا كلمة كنعانية كانت تعنى فى حينها العازفات على الأنبوبة، على القصبة كان قد اشترى من أنطاكية مرة واحدة من تلك الجرار النحيلة المتطاولة. وكانت مدهونة بالفيروزى، أما تلك النساء، شبه المحلقات يصفقن ومن ورائهن صفوف الراقصين والراقصات المرحين والمرحات، فكن مدهونات بالوردى، بلون اللحم الحى.

سحرته الجرة، فجعلها صديقه اليومى تستند إلى قاعدتها أمام سريره فى كل تحولاتها. ولكنه أبداً لم يَلقَها على الأرض، لم يلقها تعزف، ولم يلقها تمسك بالناى، ولم يلق الفرح على وجهها الذى استعاره الفنان على سطح جرته، وكان فيليب يتساءل: أين اختفى كل ذلك الفرح الجميل من حياة هؤلاء الناس.

أعوذ بالله. إنه السؤال نفسه الذى سألته وأنا أتأملهن على جرة الأمفورا

فى إحدى الغزوات التأديبية المبكرة تجمد فى سيارته وهو يرى فى منظاره المقرب النساء فى ثيابهن وعمائمهن السود يرقصن ويؤرجحن مناديل سوداً بين أذرعهن، وحول رقابهن، تجمد، وسؤال سخيف سيعرف سخفه بعد أن تطول إقامته فى الشرق، وسيعرف أن مثل هذا السؤال لن يسأله إلا ضابط فى الليجيون ايترانجيه باع روحه لمن يشترى، وجعل عملته الموت. سأل: أهؤلاء هن حفيدات الأمبوبايا؟

كان الوقت شتاء ما يزال، وكانت الأرض مكسوة بعشب ناعم لم يسمق بعد، ولكنه كان الوعد بأرض مخملية الخضرة، وكانت زهرة خزامى مبكرة تتطاول هنا وهناك. كانت الطبيعة فى أوج استعدادها لفصل الخصب الجميل تستقبل نثيث المطر فى سعادة تحيلها إلى مخمل نضر، كان كل شىء جميلاً، الشمس الكسيرة تبعث الدفء، والريح الساكنة تترك للعشب أن ينشر رائحته، فيثير رغبات وشهوات

تتواشج مع شهوات العالم الذى يستيقظ من ليل الشتاء الطويل.

لم يكن على ثقة بأنه هو من أصمت أذنيه، وترك لبقية الحواس أن تتفتح، أم أنه الحسن المحيط به هو ما أصمت أذنيه عن الطلقة تنبثق من المخيم البائس. طارت الخوذة عن رأسه، وكان هذا أقصى ما استطاعت تلك الطلقة رائعة التصويب أن تفعل، وحين طارت الخوذة رآهن وهن يندفعن بثيابهن السود وعمائمهن السود، وضفائرهن المنفلتة من رباطاتها السود، فرأى ثياباً نسائية ملونة، وسراويل ملونة تلوح من تحت الثياب السود، وفجأة سمع العويل الذى استطاع اختراق حاجز الصمت مبدى جمال مخمل العشب، وظلٍ برعم الخزامى لم يتفتح.

استطاع العويل تنبيهه إلى أن الخوذة قد طارت عن رأسه، ورأى الجنود يجرون إليه يتوقعون الأذى الكبير أصابه، ولكنه وقد خرج من حالة السحر الذى غمره أدرك فجأة أن جريمة كبيرة جداً قد ارتكبت، وأن حظاً كبيراً ما أنقذه من الموت خاصة حين ارتمى السارجان عزيز عليه، فأسقطه عن حصانه.. كم استغرقت الإفاقة من حالة السحر تلك، كم استغرقت الطلقة فى انطلاقها من البندقية الصدئة فى الخيمة المهترئة حتى وصلت إليه. كم استغرقت انتباهة السارجان عزيز لما حصل، واندفاعه لإنقاذه من طلقة تالية.. كم.. كم.. هو يذكر.. كانت الأرض المغطاة بالمخمل الأخضر المبقع بالبراعم البيض القريب من عينيه طرياً ناعماً، و.. تسللت (سان انطونيو لاروسا).. الأرض الطرية الموحلة القريبة من العينين دون عشب أخضر، أو براعم بيض.. هو يذكر أنه رفع رأسه، ورأى سروالاً وردياً، وامرأة فى ثياب سود تقفز من فوقه. يا إلهى ما أعجب ألاعيب الذاكرة فى سقطة ما قبل الموت فى هذه البادية الملعونة. ما الذى جعله يذكر سان انطونيو لاروسا قبل غرناطة والمغاربة وفرانكو، والتشرد الطويل. ما الذى جعله يذكر الكيلوت الوردى المتخفى تحت الثوب الأسود الطويل.. ما الذى..

هجمت أصوات العويل والصراخ والندب فجأة مع يد السرجان عزيز القوية، وهى تحمله عن الأرض، واستطاع أخيراً سماع جملة: هل أنت بخير يا سيدى. وكانت أصابعه تتحسس الصدر والذراعين والساقين، فتمتم: لا. أنا بخير. وفجأة.

يا إلهى. لو أنَّ ما جرى حُسِبَ بالساعة الزمنية، لو أن الرحلة من البساط المخملى الأخضر إلى سهول غرناطة الموحلة، إلى هذه الأصوات المعولة الممطوطة تشبه أصوات بنات أوى، لو أنها حسبت بالساعة الزمنية لما تجاوزت الثوانى، ولكن.. فجأة وجد الكابيتين أوغستان يتحول إلى من سيسميه السكان المحليون بالكابيتين ساتان. وجد لسانه ينطق بما لم يفكر به من قبل: أحرقوا المخيم.

تمتم عزيز: المخيم؟ كله؟

وبصرامة قال: كله.. وبكل المختبئين فيه.

واندفعوا، كل أولئك المولودون ولادة ثانية حين التحقوا بالليجون ايترانجيه.. اندفعوا يشبعون رغبات فى اللهو لا يعرفها إلا المولودون ولادة ثانية بلا ماض.

وضع رئيس المخفر واحدة من زهرات التيوليب الحمر فوق أذن أوغستان هنالك فى الوادى المشعر بين الأذن، وبين الرأس، فانطلقت ضحكات التحية وأحدٌ أذنيه يريد سماع الأجراس الفضية تقهقه، ولكنها غرقت فى دوى القهقهات الذكرية المقعقعة.

١٠

حين تقلب فى سرير ما قبل اليقظة أدرك أنه يعرف هذا الرجل المسمى بركنى ولكن، كيف، كيف يعرفه وهو لم يعمل فى دمشق أبداً، وكان أطول وقت قضاه فيها ليلة ينامها، ثم يستقل سيارته إلى موقع كتيبته، وفى الحقيقة هو لم يحب هذه المدينة أبداً، ففيها شىء منفِّر دائماً، شىء يذكرك بأنك غريب، شىء متحفظ طارد يقول: حسن.. لقد هزمتنا.. وماذا بعد.. هزائم كثيرة تحيق بالمدن العتيقة، ولكن.. أين الهازمون.. لقد ابتلعناهم.. و.. بقينا..

نفض رأسه وفاجأه وجه ركنى ثانية، هاتان العينان البنيتان المائلتان قليلاً والشاربان المتطرفان القصيران المبرومان ما تحت فتحتى الأنف تذكران بوجه باشا عثمانى لقيه مرة فى باريس وكان يعمل متردوتيل فى مطعم (شيه سليمان) كان يقف فى ترفع، ويرمق الزبائن فى تحفظ، ويشير إلى الطاولات المحجوزة فى تنازل، وكان فى كل حركة من حركاته يلعن الزمان الذى أوصله إلى هذا الدرك.. كان الكراسين يبتسمون وهم يتلقون تعليماته، وكان الزبائن يقبلون اللعبة وهم يتلقون تنازلاته، كان جزءاً من مشهد المطعم، وكان جزءاً من سحر الإقبال عليه؛ أن ترى باشا عثمانياً بكل تفاخره وتعاظمه وهو يعمل ميتردوتيل.

حين أطال إقامته فى باريس متخفياً وقبل أن يولد الولادة الثانية لقى منهم الكثير فى بارات ومطاعم باريس، أمراء صغار من أسرة رومانوف، باشوات سابقون طردهم أتاتورك من استانبول، نبلاء صغار هاربون من ألمانيا ونمسا هابسبورغ، نبلاء اسبان طردتهم الجمهورية، وها هم يستعدون للعودة إلى إسبانيا وكأن الجمهورية لم تكن إلا غلطة تاريخية.

نفض رأسه يريد القيام من سريره، ولكنه كان على ثقة من أنه يعرفه، متى.. كيف.. لا يمكن أن يكون قد لقيه فى دمشق، فأين إذاً.. انسلٌ من سريره.. مضى إلى المطبخ يُعِدُّ قهوته، ولكن ركنى غلبها فى الحلول أمامه.. رأى ضحكته الحيية

المتزلفة.. لا.. عينيه البنيتين المائلتين.. والجفنين المتهدلين فوق العينين تكادان تخفيهما كلما ضحك أو عبس.. لا.. الشاربين العثمانيين.. لا.. فكيف لقيه إذاً..

أدرك القهوة قبل فورانها، ورآه، فعرفه.. يا إلهى.. أيمكن.. أيمكن.. حمل إناء القهوة وفنجانها، ومضى إلى مجلسه تحت الكرمة.. فجأة رآه، فعرفه.. مارسيليا.. دكان لبيع اللوحات الزيتية قال: أبيعه ما لدى.. وبالسعر الذى يعرض، فلن أحمل ماضيً معى إلى.. و.. ما يفعل بمثل هذه اللوحات مولود جديد فى الليجيون ايترانجيه، سيصبح سخرية الجيش. ضابط فى فرقة الموت المنذور، والموت المطلوب، والموت الحائم فوق الرأس ما حملت البزة العسكرية على كتفيك، و.. يحمل معه لوحات عن ريف غرناطة.. يا إلهى.. فعلاً كان الأمر سخيفاً، فكيف فعلها. آه.. تنهد وهو يذكر لياليه الطويلة فى الفندق الحقير فى باريس يستحيى ذكريات ما قبل الهزيمة، فيحيل تلك الذكريات إلى لوحات رعوية ترفض رؤية طائر الموت يحوم..

كان صاحب الدكان يقلب فى اللوحات بلا اهتمام، وكان فيليب يعرف هذا القناع الذى يضعه سماسرة اللوحات على وجوههم حين يقررون بخس البائعين ثمن ما يحملون: فما هذه القمامة التى تحملها؟ ما هذه اللوحات؟ من رسمها؟ من وقّعها؟ من يشترى مثل هذه التفاهات.. ويخجل البائع من حملها ثانية خارج المحل، وهو قد عرضها ولا شك على معظم بائعى اللوحات، ورفضوا الشراء، وبخسوا الثمن. وما عليك إلا أن ترأف بحاله، وتعطيه قروشاً سيقبلها شاكراً. كان يعرف هذا القناع، ويعرف فيم يفكر البائع. ويعرف أنه سيعطيها له ولو بالمجان، ولكن نظرة الازدراء أغاظته، فقرر أن ينتزعها من براثنه، ويحرقها أمام المحل مباشرة تحدياً وازدراء مضاداً حين.. رآه.. الحدقتان البنيتان.. والعينان المائلتان، والقسوة المتسربة، فترك بائع اللوحات وازدراءاته، واعتذاراته عن شراء مثل هذه التفاهات، ومضى.. اقترب منه.. أية قسوة، وأى توعد، وأى جلال.. كانت الرياش على العمامة، والسروال الضيق، والرمح المريّش تعلن أنها لوحة لجندى من الجانب الآخر، ولكنه ليس العثمانى، فهو يعرف العثمانيين ولباسهم. انحنى على اللوحة، وقرأ اسم رسام لم يسمع به من قبل.. بحث عن اسم اللوحة، وقرأ اسم السلطان

باركوك.

التفت إلى البائع: أهى أصلية؟

وهزَّ البائع رأسه فى لا اهتمام: طبعاً، أهناك من يزوِّر مثل هذه اللوحة؟!

وتابع حين أدرك أن البائع لم يفهم سؤاله: أقصد.. الموديل.. الشخص المرسوم.. أهو سلطان فعلاً؟

ورد البائع فى سخرية: بالطبع لا.

- كيف حصل على موديله الشرقى هذا إذاً؟

- أوه.. مارسيليا مملوءة منهم.. أبناء وأحفاد أولئك المصريين الذين قدموا مع نابليون.

كان خبراً جديداً.. وانتصر بائع اللوحات، ولم يحرق فيليب لوحاته الرعوية أمام الدكان، بل تناول القروش التى أعطاها له شاكراً مقابل أن يدله على حارة المصريين كما سماهم.

فى حارة المصريين رآهم، كانوا باعة صغاراً، وعتالين، وقوادين، ولكنهم لم يكونوا مصريين، وحين ألح فى تساؤله اكتشف أنهم كانوا من المماليك الذين هزمهم نابليون فى مصر، وحين رجع إلى فرنسا أراد مفاخرة ملوك أوروبة، فاصطحب معه عدداً من فرسانهم زيِّهم، وجمالهم، وجعلهم حرسه الخاص، فصحبوه من ألمانيا وحتى موسكو، وحين كانت الهزيمة فى واترلو رجعوا إلى مارسيليا، المكان الأقرب إلى مصر، ولكن فرنسيى ما بعد نابليون لم يغفروا لهم أنهم كانوا حراس الطاغية، فما زالوا يطاردونهم حتى نزلوا إلى قاع المدينة عتالين، وعاهرات، وقوادين.. ورأى الكثيرين ممن كان يمكن أن يكونوا نموذجاً لرسام يريد أن يرسم صورة لسلطان كان.. مملوكاً..

نفض رأسه ثانية، ورآه.. ركنى.. مدير المال، يا إلهى، لو قررت أن أرسم صورة لسلطان، فمن يمكن أن يكون موديلى خيراً من مدير المال هذا..

أنهى قهوته.. تمطى.. قال: سأحسِّن من علاقتى بركنى هذا.. سأرسمه فى ثياب السلطان.. قفز مترنِّضاً قفزتين وقال: فى البداية سأصحبه فى رحلة لصيد

الغزلان.

وحين قال جملته الأخيرة عرف أنه قد عرف مفتاحه إلى بيت ركنى بيك مدير المال الذى أقنع فاطمة السنغال أن تخرج من بيتها رغم بقاء السنغال فى البلد.

وضع المخطوط من يده حائراً مما قرأ. مضى إلى الحمام. اتجه إلى المرآة يراقب وجهه. لا.. إنه لا يشبه ركنى، وليست له العينان القاسيتان لسلطان لم يتبق له من السلطنة إلا النظرة فى العينين. أغمض عينيه يتذكر ركنى، ولكنه لا يعرفه إلا الكهل المتذمر، المشاجر.. غير الراضى عن شىء.. لا.. لا.. لم يكن فى عينيه تلك القدرة على القتل والدم، فكيف رآها هذا الفيليب أوغستان، جرر رجليه عائداً يتساءل: أيملك الغريب عيناً ترى ما لا يراه القريب المعايش، وفجأة صدمته الفكرة: ولكن هذا كلام منافس، غيور. إنه يحسد ركنى على فاطمة، ولذا فهو يبحث عما ينفر فيه. أطرق فى مقعده الدافئ ثانية: أهذا فعلاً ما تعتقده؟ لم يستطع الرد، فهذا الأوغستان أو الساتان، تاجر الموت.. أيمكن أن يكون القاضى، أو الحكم وهو الهارب من الموت إلى الموت، وركنى ليس إلا صورة لا يذكر منها إلا التذمر واللعن والصراع المتشاجر العاجز، وفجأة قفزت الفكرة: ولكن أين فاطمة. إن كل حديث هذا الفيليب أوغستان أو من سمى نفسه بهذا الاسم هو عن ماضيه، ومعاناياته، وقسوته فى قمع البدو، وها هو أخيراً يتحدث عن ركنى.. خصمه؟.. بهذا الازدراء والكره المسبق.. ثم كرر.. ولكن أين فاطمة.

اتجه بأذنه إلى الباحة، ولكن صوت المزاريب القوى لم يتوقف، فلم يسمع الهرير، ولم يسمع الرغاء. قال: لن يستطيع إهمال فاطمة وعاد إلى النص.

كان فيليب يتمنى، ولو أنه كان يعلم انها أمنية مضحكة، لو صحبتهم فى رحلة الصيد هذه، تلك الغريتا غاربو المتنكرة بحجاب من الجورجيت، ثم بسرعة أزاح هذه الأمنية إلى درج الكم الهائل من الأمنيات التى يعرف أنها باطلة ولن تتحقق، ولكنها النفس تتشهى، ثم تسخر من تشهيها حين تحيل اشتهاءاتها إلى خزان الطفولة.

نظر إلى سائقه وهو يعمل فى جد على تثبيت كرسى الحلاق إلى مكانه. نظر إلى مدير الشرطة. ثم إلى مساعده الأجوتان ميشو وإلى السرجان عزيز. كانوا

منشغلين فى تفحص أسلحتهم ومقارنة كلٍ سلاحه بسلاح الآخر، ومن تجهيز الطلقات الجيدة، ومن تلميع جزمهم الجلدية الطويلة. كانوا جميعاً قد تخلوا عن ثيابهم العسكرية، ولبسوا البنطال السوارى المريح فى رحلة الصيد، ولبسوا معاطف الصيد الشتوية السميكة كثيرة الجيوب.

طلب السائق من أحد المرافقين مساعدته فى شد العزقة الأخيرة، وكان لا بد أن يمسك أحد ما أسفل السيارة بالعزقة بينما يقوم السائق بشدٍ ساق الكرسى المزود بقاعدة مثقبة إلى العزقات أسفل السيارة، وبينما كان السائق والشرطى يتعاونان على شد الكرسى كان أوغستان يراقب اختراعه فى إعجاب.

كرسى حلاق دوّار يثبت فوق سيارة جيب بينما يثبت راكبه نفسه إليه بالأحزمة الجلدية، و.. تطارد السيارة الغزلان حتى تحاذيها، وما عليه إلا أن يطلق عليها النار آمناً من هربها، ومن مناورتها، فكرسى الحلاق كفيل باستدراك كل المناورات.

وصل ركنى، فأدهشهم بلباسه الفلاحى المناقض لبدلة الشاركسكين التى كان يمارس عمله مدير مال وهو يلبسها ولكنه حين لبس الفروة من جلد الحملان التى سيفاخرهم بها كثيراً والتى كان يحملها على ذراعه بدا مألوفاً.

انطلقوا بالسيارات الثلاث تتقدمهم سيارة الحلاق كما كان أوغستان يسميها. استدار أوغستان من مجلسه إلى جانب السائق يتأمل ركاب السيارتين الأخريين، ثم تمتم فى سخرية: من يستطيع أن يخمن أن هذه الحفنة من المتنكرين بثياب الصيادين والرعاة هم من يمسكون بمصائر كل هذه البادية الكبيرة، وأن لهم حق الحياة والموت، والفقر والثراء على كل سكان هذه الأصقاع.

هتف مدير الشرطة: شلعة.. ولم يحتج أوغستان إلى ترجمة حتى يفهم أن مدير الشرطة يشير إلى الغبار فى آخر الأفق الذى يثيره سرب من الغزلان التى سمعت صوت السيارات، فهربت.

نزل أوغستان من سيارته. وضع نظارات راكبى الدراجات النارية. تلثم جيداً، ثم ركب كرسى الحلاق، وثبت نفسه إليه بالأحزمة الجلدية، وأشار إلى السائقين بالتقدم.. بعد شهور ستروى فاطمة لفيليب كيف روى ركنى لها حديث تلك الرحلة

الفاشلة، وكيف أنقذها بحنكته وحسن تصرفه: لم أناقشه كثيراً، فقد كنت منشغلة بطحن اللحم لأصنع منه كبة يكون اللحم فيها أكثر من البرغل على غير العادة تاركة أم عبده التى تطوعت لمساعدتى تقلى اللحم فى القدر الكبيرة لصنع القاورما. ولكنه لم يأبه لتجاهلها بطولته التى جعلته يرجع إليها ومعه عشرة غزلان مصيدة، الأمر الذى لم يحلم به يوماً، ولكنه كان منتشياً بانتصاره وقالت فاطمة: الحكاية القديمة لبطولات الصيادين.

أكملت فاطمة روايته ضاحكة فى اعتذار. تصورى هذا الفرنسى الأحمق ـ هكذا سمّاك ـ يركب كرسى الحلاق ومعه بندقية حربية يمكن لطلقتها أن تخترق سيارة. ثم لا يفعل إلا أن يشير إلى سرب الغزلان ببندقيته، ونحبس أنفاسنا منتظرين سقوط التيس الكبير، ثم لا يفعل إلا أن يطلق بفمه صوت بوم بوم، وحين ينزل البندقية عن مجال تسديدها تستطيعين رؤية الفرح والنصر على وجهه وكأنه أردى تيسين بطلقة واحدة، وكان يستطيع فعلها ببندقيته الحربية لو شاء، ولكنه كان يكتفى ببوم بوم. اللعنة. لم جئت بكل هؤلاء الصيادين، والسيارات، والوعد بالصيد إذن؟ ألنكتفى ببوم بوم؟ لم يستطع ركنى احتمال هذا التلكؤ، فتطاول ببندقيته من نافذة السيارة يريد رمى واحد من الغزلان: أعوذ بالله.. إلى جوارنا.. لم تكن غزلاناً.. بل كانت اشبه بقطيع من الغنم فى سهولة صيدها. إنها لا تختلف عن الغنم إلا فى سرعة عدوها ولهاثها الحاد. لكن فيليب هجم بسيارته، فشكل حاجزاً بين سيارتى وسرب الغزلان.. ولما حاولت الاحتجاج نظر إلى ببرودة جعلتنى أنكس بندقيتى، وتابعت ضاحكة: طبعاً لا مصلحة له فى إغضاب الكابيتين أوغستان.

نظر فيليب إلى شلعة الغزلان تنحرف يساراً، قطيع كامل من التيوس والعنزات والخشوف تقفز مثيرة الغبار الخفيف، ليس فى خوف حقيقى، بل كانت تقفز عارفة أن الأمر لعب، وأن لها الحق فى اللعب. كانت تقفز قفزاً أقرب إلى الطيران، وبإمكانه أن يرى التماعة النصر، والفرح، والمعابثة فى عيونها. كان يرى التيس الكبير، يعرف أنه فحل الشلعة، ويعرف أن الصياد الماهر هو من يبدأ بقتله، فإذا ما قتله اضطرب أمر القطيع، وصار من السهل اصطياد ما يشاء منها، ولكن..

القطيع يبتعد، ولم يصيدوا غزالاً واحداً.. وفجأة وقبل أن تغيِّب البادية الشلعة بأكملها انطلقت من سيارة الحلاق طلقة تعثَّر على إثرها واحد من التيوس الشابة المتخلفة، وانتشى ركنى.. فها هو دورنا الآن فى الصيد قد حان، لقد افتتح التيس الكبير المهرجان، وأن أوان التيوس الشابة لتنزو، ولكن ما حصل كان مختلفاً، فقد توقفت سيارة التيس الكبير مستعرضة، قاطعة الطريق على السيارتين الأخريين عند جثة التيس الساقط تماماً.

أشار سائق أوغستان، فتوقفت السيارتان، ونزل المدعوون وحين أبدى ركنى احتجاجه، فالسرب سيهرب اكتفى أوغستان بنظرة باردة ترفض أى حوار حول الأمر. قفز سائقه إلى حيث الغزال الساقط، فذبحه على الطريقة الإسلامية، ثم بدأ سلخه مباشرة بينما عمد السائقان الآخران والمرافقون إلى إنزال الخيمة لتثبيتها، وتمتم ركنى فى انكسار: أهذه هى اللعبة كلها إذن؟

على الغداء، وكان السائقون والمرافقون يقدمون لحم الغزال المشوى والنبيذ الأحمر لم يكن ركنى سعيداً، ولكن السعادة التى غلبت على الجميع جعلته يستكين، وإن ظل شيطان صغير يلكزه بين الحين والآخر.. كما قال لفاطمة: كيف يتركون مثل هذه الغنيمة، مثل هذه الثروة تبتعد وكانت قيد اليد.

لم يستطع الفرح، فألقى الفروة عن ظهره، ومضى يتمشى على مقربة من الخيمة. كان يريد أن يخلو بنفسه قليلاً، أن يفهم لماذا فعل هذا الفرنسى الأحمق ما فعل، يترك قطيعاً كاملاً من الغزلان يفلت من أيديهم؟ ولماذا؟

تأمل فيليب حرده وهو يخطو تلك الخطوات النزقة، وسأذكر هذه الخطوات الحردانة وخاصة حين تحدثنى فاطمة عن إحساسه المروِّع بالخسارة، سأذكرها وأنا أعلِّمها كيف يكون اللون نظيفاً على القماش، وكيف يظلل دون أن يتسخ.

شهق سلمان.. ماذا؟ علمها التلوين؟ من.. من هذا المعلم؟ فيليب أوغستان؟.. لا.. لا يمكن، فالسارد، المصحح، المراقب متقن العربية بهذا المستوى لا يمكن أن يكون جندى الليجيون ايترانجيه، فمن هو هذا الراوى الذى يسرِّب للمرة الأولى أنه كان يعلم فاطمة اللون النظيف على القماش الأبيض.. تردد سلمان قليلاً: ولكن فيليب أوغستان رسام.. كان يتسلى فى ليالى باريس المنفية برسم رعويات

غرناطية.. أفيمكن أن يكون الرجل نفسه.. آه.. لو أنى أستطيع الوصول إلى غسان، فلعله يوضح لى بعضاً من هذه الأسرار.

سمع ركنى صوت مدير الشرطة يناديه، فعاد إلى الخيمة ليتقبل كأساً من النبيذ الأحمر نخب الصحبة الطيبة، والصحة الطويلة للكابيتين أوغستان. شرب معهم، فلم يكن يستطيع الخلوة بنفسه ثانية.

كيف يتلاعب هذا المصحح المراقب بالضمائر.. يا إلهى.. إنه يكاد يضيعنى وأنا الكاتب القارئ المحترف

قبل وسادة قدمها له أحد المرافقين، واضطجع كما اضطجعوا، ثم أكمل أوغستان حديثه مجيباً مدير الشرطة: وهذا ما أكرهه فيه. وردّ رئيس الشرطة مستنكراً أن يكون الصديق المخلص للإنسان؟ وقال أوغستان: بالضبط، فهو الحيوان الوحيد فى هذا العالم الذى استطاع الإنسان مسخه وتحويله إلى مخلوق شبه بشرى. انظر. إن فيه التزلف والتملق، والذلة البشرية. يستطيع صاحبه أن يرفسه، فيكسر له عظمة من عظامه، فبم يستجيب هذا المخلوق الذى صنعه الإنسان على شاكلته. إنه لا يفعل كالقط فى الهجوم على ضاربه، وإنشاب أظافره فيه. إنه لا يفعل كالثور، ولا حتى ككبش الغنم، أو تيس الماعز الذى يمكن له أن يصرع ضاربه، بل يتكور على نفسه، ويأخذ فى الأنين والاستعطاف حتى إذا ما رقّ له صاحبه، وأشار إليه إشارة رضا صغيرة رأيته يخفى ألمه وانكسار عظمه، ويركع تحت قدمى ضاربه مهرهراً طالباً مزيداً من الرضا والغفران لذنب لا يعرفه، ولا يعرف إن كان قد ارتكبه. ألم أقل لكم. لا.. هذا ليس تصرفاً حيوانياً. إنه تصرف كامل البشرية. لقد صنعه الإنسان على شاكلته، وأسبغ عليه أسوأ ما فيه. نظر إليهم فى انتصار بعد أن أنهى خطابه. نظر إليهم فى مواربة يتساءل: إن كانوا فهموا ما يعنى حقاً، ولكن السيد ركنى _ كما ستحدثنى فاطمة قال يتفاخر أمامها.. بالطريقة التى أفحم بها.. الموسيو أوغستان قال: ولكن كثيراً من الصيد سيضيع إن لم يكن لديك كلب لجمعه. وأطلق فيليب قهقهة دوّت، واستمرّت حتى أحرجت الجميع، فاضطروا إلى مجاراته حتى لا يبدو المقهقه الوحيد الأحمق.

تنهد سلمان أسفاً؛ لقد شفى مصحح النص ومراقبه غليله من خصمه ركنى،

ولكن.. ولكن.. الغـريب أنك لم تشـعـر بالغـضب لموقف فـيليب من ركنى.. لماذا..

لماذا.. فيليب الورقى ينافس ركنى الورقى على فاطمة الورقية، وأنت.. أنت.. وضع

رأسه بين كفيه يفكر.. أنا.. أنا..

١١

لو لم يكن اسمها فاطمة.. لو.. لم تكن زوجة لهذا الجشع الأحمق المسمى بالبندقدار.. لو.. آه.. صداع خُمار الأمس يقتلني.. يقتلني.. لو لم يكن اسمها أنجيلكا.. هه.. ماذا.. انتفض مذعوراً من مرقده.. من .. من ذكر أنجليكا.. وتلفت مذعوراً، وقد صفا رأسه من الخُمار.. حاول استدعاء سهرة البوكر بالأمس.. الربح العجيب لهذا البندقدار.. هل كان يغش.. لا.. لا أعتقد، وإلا للاحظ شركاء اللعبة، وكل واحد منهم خريج أسوأ مقامر البحر المتوسط. لا.. لا يمكن.. وإن كان قد غش فعلاً، فهو لا شك سيد غشاشي اللعب فى العالم.. لا.. تلك الملكة الكبة كيف ظهرت له فجأة وحين كان بأمسٍّ الحاجة إليها. الأمر صدفة؟ أم.. لا.. ورئيس الشرطة الموسيو دالاتى كيف استطاع تجميع الفول آس، والـ..

نفض رأسه: أنت تتهرب.. فيليب أنت تتهرب، ولكن مم؟.. نظر إلى النافذة قوسية السقف المحفورة عميقاً فى الجدار كى تستخدم أرضيتها خزانة للأشياء لا حاجة إلى حفظها بعيداً عن الأيدى. نظر إلى الستائر البيض المطرزة حفراً. ترى من طرزها. لقد استأجر البيت مفروشاً لا يعرف شيئاً عن أثاثه.

هه.. إشبيلية.. فى البيت شىء من اشبيلية.. الباحة.. النوافذ.. الستائر البيض.. وقفزت الجملة الآهة ثانية: لو لم يكن اسمها فاطمة! لو لم ترتكب ذلك الفعل الجرىء الذى لا يتوقع من محجبة مقموعة مثلها، ثم أكمل: ولو لم تكشف المنديل عن وجهها تمسح قطرة العرق المالحة تسربت إلى عينيها كما ستحدثه فيما بعد.. سمع طلقة نارية بعيدة بعض الشىء، فانتفض من مرقده.. ترنح قليلاً، فخمار الأمس كان أكثر مما اعتاده.. لماذا؟ أهو بسبب الخسارة المفاجئة لم يتوقعها من ابن المدينة الساذج الذى تكشف عن داهية فى اللعب.. طلقة أخرى. ثم طلقات.. أعرف ما سيجرى تنهد فى سأم: سيأتون إلى ليخبرونى، فأنا الحاكم العسكرى للمدينة التى نسيها التاريخ والمطر.

اتجه إلى الباب، ولكن الخمار أثقله ثانية، فاضطر إلى اقتعاد الكرسى الأقرب. وضع رأسه بين كفيه معذباً.. هذا الخمار، هذا الخمار. ما لى وللخمار، مالى ولهذا العرق المثلث اللعين.. أكان يجب أن تتظاهر بالصلابة، وتجاريهم بشراب كنت تعرف دائماً أنه يفوق روم بحارة الموانئ حدة.. ولكن.. أغمض عينيه ينتظر سماع طلقة أخرى، أو طرقة على الباب من الأجوتان ميشو، أو السارجان عزيز، أو واحد من الجند ينقل إليه ما جرى.. ولكن.. أكان يجب أن تكشف وجهها.. أغمض عينيه فرأى الوجه الأبيض يتبدى تحت المانتيلا، ورأى جسده يرتجف.. انجليكا، انجليكا.. ثم رأى المنديل يرتفع والأنامل الرقيقة تمسح قطرة مالحة أقذت العين، ولكن.. صرخ مندهشاً هذه ليست انجليكا.. إنها فاطمة.. زوجة البندقدار..

وسمع أخيراً الطرق المتعجل على الباب، فتلوى وجهه ألماً.. لقد قبضوا على أحدهم.. حاول القيام.. ولكن الخُمار والاشمئزاز وكراهية العالم أقعدته.. وشعر أنه لا يرغب بالحديث إلى أحد، ولا رؤية أحد، ولكن الطرق تكرر، وسمع صوت وصيفه يعلن أن معه مفتاحاً للباب الخارجى، وسمع استمهاله لهم ليحضر المفتاح، فجأة أراد حرمانهم من متعة مفاجأته طريح الخُمار، فخرج مَن غرفته واتجه إلى حيث مظلة الأمس، ثم أعمل الغرامفون، واتكأ على ظهر مقعده مسترخياً، وبينما كان الباب الخارجى يفتح كانت انجليكا تهمس ممازحة: ما زلت مغرماً بالمشاهد المسرحية.

كانت على حق، فالمفاجأة على وجوه الداخلين كانت أكبر من تصفيق طويل لجمهور بهره عرض أول لمسرحية غير متوقعة.

كانا عربيين فى ثياب بدوية وقد قبض عليهما متجهين إلى العراق.. ولا شك.. كان ذلك موسم القبض على المتسللين، كانا يلبسان الثياب البدوية، أو الفلاحية ككل من قبض عليهم فى الأسابيع الماضية، ما الذى يغريهم بالتخلى عن الثياب الغربية فى لحظة محاولة الإمساك بقرن الثور، ولكن نظرة واحدة إلى كفيهما كانت كافية ليعرف كما عرف من جلبوهما إليه أنهما حضريان متنكران فى ثياب بدوية فأيدى الحضريين الناعمة، والأظافر المقلمة كانت تعلن ألا علاقة لهما بكيس التبغ الذى يحملانه والذى سيدعيان أنهما كان فى طريقهما لتهريبه، فعقوبة تهريب

التبغ كانت دائماً أقل بكثير من تهمة التسلل إلى العراق للانضمام إلى الانقلابيين ضد الإنكليز.

نظر إليهما طويلاً، طالبان جامعيان تخليا عن جامعتهما، أو موظفان مدنيان في أولى درجات السلم الوظيفي تخليا عن السقف الظليل والأسرة الوادعة، وقررا الإمساك بقرني ثور التاريخ وتحويله باتجاههما.

استند ثانية إلى ظهر مقعده محتمياً بالظل تاركاً المجموعة كلها في الشمس. صحيح أنها شمس مبكرة، ولكنها المدينة الملعونة التي تبزغ جحيماً وتغرب جهنم. تمتم في اشمئزاز تهيّجه حموضة العرق في المعدة المتهيجة: أين..

وأسرع ميشو إلى الإعلان عن اجتيازهما الطريق نفسها، وعلت وجهه بسمة شريرة: الفخ القديم، والدليل الخائن، وبورجوازيان أبلهان يريدان لعب دور محرك التاريخ.

وأشار برأسه إلى الحراس، ففكوهما مندهشين، ولكنهم كانوا يحيطون بهما في حذر يتوقعون فعلاً جنونياً، ولكنهما كانا مستسلمين وادعين كحمامتين يئستا من الطيران.

أشار إلى وصيفه، فسارع يعد القهوة، وأخذ يحدق بهما، لحية لم تحلق ليومين أضفت على أحدهما مظهر رجولة قاسية بينما تركت الآخر ينوس على أبواب المراهقة.

تجرأ ميشو: هل أحملهما إلى السجن.؟

ولكن حموضة العرق في المعدة كانت جارحة، وصداع الخمار مربك، ولم يردّ، بل تناول فنجان القهوة الكبير من وصيفه، وتنحنح ميشو كأنه يكرر السؤال، ولكنه نظر إليه بغضب وردّ: لا.

لاحظ نقل عزيز ثقله من قدم إلى قدم، كانوا جميعاً منزعجين، صباح عطلة نهاية أسبوع لم ينعموا فيه بالنوم، وبعد سهرة الأمس الفظيعة وبورجوازيان تافهمان يريدان الوقوف في وجه التاريخ.

والتفت إلى ميشو: هل فتشتموهما.

وحنى ميشو رأسه إيجاباً: نعم يا سيدى.

وبسخرية حرضتها حموضة العرق قال: وطبعاً لم تجدوا معهما شيئاً؟

وقال عزيز: ولا حتى هوية شخصية.

ونظر إلى العربيين ثانية فى سخرية: مناضلان هه؟ ومستعدان للتضحية؟

رشف الرشفة الأخيرة من فنجانه، ثم أشار إلى وصيفه ليملأه ثانية، ثم التفت إلى ميشو: جردوهما من ثيابهما.

ورد ميشو: لقد جردناهما يا سيدى ليس معهما شىء.

وتابع فيليب: رسائل تعريف، توصية؟

– ميشو: أبداً.

– حسن.. جردوهما ثانية من ثيابهما.

وأخذ العربيان يحتجان فى فرنسية ركيكة استطاع أن يفهم منها أولاً أن هذا ليس سلوك أبناء الرابع عشر من تموز، ثم استطاع أن يفهم احتجاجهما على أن هذه ليست أخلاق فرنسة، وقال شبه المراهق منهما متملقاً: أين شعار الحرية والإخاء والمساواة.

أخذت حموضة العرق تتفاعل مع القهوة ولا شك. فلقد أحس اضطراباً جديداً فى معدته، ولكن ثرثرتهما لم تزد إلا من إحساسه بالسخرية المرورة من كل ما يجرى، كانا موثوقين بأيد قوية، بينما كانت أيد أخرى تجردهما من كل شىء حتى لم يبق عليهما إلا لباسهما الداخلى. قلب ميشو الثياب المخلوعة فى حرقية، لم يكن فيها جيوب سرية، لم يكن فيها شىء.. يدل على هويتهما، وتمتم لنفسه: الحماقة العالمية نفسها، الولادة الثانية. التخلى عن الماضى، ودخول التاريخ بهوية بيضاء.

رمى ميشو إليهما بالثياب ثانية مشيراً لهما أن يلبساها، ولكن فيليب أشار بيده أن لا، واستغرب ميشو: ولكن..

وتابع فيليب متجهاً إلى عزيز: ضعهما فى السيارة، وقيِّدهما إلى العمود فيها، وقال عزيز مرتبكاً: عراة؟

– نعم، وأنت من سيقود السيارة.

اكفهر وجه ميشو، فلقد فهم فجأة أن أوغستان فى واحدة من حالاته اللعينة التى يتحول فيها إلى جزار مجانى، فاقترب من فيليب يحتج همساً: ولكنهما مراهقان يكادان يكونان طفلين.. ثم لم يقاوما حين حاصرناهما. لم يجرحا، أو يؤذيا أحداً.. ولكن فيليب لم يعر بالاً لكلمات ميشو، بل انتصب، ومضى إلى غرفته يستكمل ثيابه.

أخذت السيارة تتهدهد خارجة من مدينة العمد المهمشة، وكان ينظر إليهما.. الآن وقد جردا من ثيابهما ليس البدوية فقط، بل البشرية. كانا دودتين بيضاوين عليهما بعض بقع حمرتها شمس رحلة اليومين الماضيين بلا شك.. نظر إليهما يغمضان عينيهما فى صبر مستسلم.. كانا منهكين تماماً بعد الاحتجاج والثورة والغضب، والباستيل، والرابع عشر من تموز، ونابليون.. وفكر ساخراً: لقد حفظا الدرس جيداً.

كانت الشمس قد امتطت قبة السماء صاهدة، وسمع الكبير يهمس لذى لحية المراهق شيئاً فانقلب جاعلاً وجهه بعيداً عن سهام الشمس الحادة، وما لبث الكبير أن انقلب أيضاً، وهكذا عرضا للأنظار أقفيتهما الصغيرة، صحيح أنها مستورة بلباس داخلى صغير، ولكنهما مكشوفتان تماماً للأنظار، هو يعرف حساسية الشرقيين لمسألة العورة والعيب، ولكن الشمس الحادة الصافعة لعيونهما حتى عبر الأجفان المغلقة جعلتهما يغضيان عن عيب كهذا.

وفجأة انتفضت السيارة بقوة، فقد كانت الحفرة كامنة تحت قليل من العشب، وكثير من الماء الذى تناثر ملوثاً زجاج السيارة الواقى، وتساقطت بعض المياه على الشادر، فأخذ فيليب يراقب تحركها بين ثنيات الشادر متسائلاً متى ستصل إلى الثقب الذى يسرب نور الشمس. تأمل مسقط القطرة إن سقطت، وعرف أنها ستسقط على بطن الفتى شبه المراهق، وأخذ ينتظر القطرة متوتراً متسائلاً كيف سينتفض الفتى المعصوب العينين للمسة القطرة.

أطلق عزيز زموره، فالتفت إلى الطريق، ورأى كلباً يركض فى جنون، وقال عزيز: حتى بين الحيوانات هنالك الحمقى، ما الذى يجعل كلباً يترك كل هذه

البرية، ثم ينام على الطريق العام.

ورد فيليب مازحاً: ربما لم يكن يقرأ الفرنسية، فلم يعرف أن هذا طريق سيارات.

وضحك عزيز، وتذكر فيليب القطرة، فالتفت، ليكتشف أن الفرصة لرؤية انتفاضة الفتى قد فاتته، فالقطرة تسربت، والفتى انتفض، ولم يستطع فيليب الاستمتاع بالمشهد.

وقال عزيز: والآن..

فقال فيليب: تابع.

فقال عزيز ملحاً: سنصل إلى المدينة. كيف ندخلها ومعنا هذان العاريان.

التفت فيليب إليهما مستاء، ثم سأل عزيز: كم تبقى لنا لنصل المدينة

- حوالى خمسة كيلو مترات، وصلنا تقريباً.

- طيب، أوقف السيارة.

تلكأ عزيز فى إيقافها، فلم يكن يعرف ما يدور فى رأس الكابيتين أوغستان، ولكنه توقع الأسوأ، وراقبه أوغستان يوقفها فى بطء، حتى إذا ما توقفت تماماً قفز فيليب من السيارة، وقفز عزيز متشائماً مما سيجرى. قال فيليب: أنزلهما من السيارة.

تجالد عزيز فأنزل واقى السيارة الحديدى الخلفى، وصرخ متظاهراً بالغضب: هيا.. انزلا..

تحامل الشابان على نفسيهما، ورأى فيليب الأكبر منهما يتمتم بصلوات أخيرة ولا شك، بينما رأى لباس الأصغر منهما وقطرات من بول شديد الصفرة تنساب متقطرة.

قال فيليب: انزع العصائب عنهما.

وتلكأ عزيز: ولكن.. لماذا.. ربما كان من الأفضل أن يظلا معصوبين.

فكرر فيليب فى حدة: فك قيودهما.

ثم انقض فيليب عليهما، فنزع العصابتين عن عيونهما. وحين فك عزيز القيدين ارتفعت يداهما بسرعة لتغطيا عيونهما من وهج الشمس الحارق.

وتمتم عزيز: ولكن.

اتكأ فيليب إلى جدار السيارة محتمياً بظلها يراقبهما وهما يباعدان بين أصابعهما شيئاً فشيئاً حتى اعتادت عيونهما الضوء الباذخ، وحين أنزلا أيديهما عن عيونهما كان ذعر متسائل يطغى عليهما، وقفا حائرين عاريين أعزلين فى الصحراء أمام فرنسيين مسلحين كاسيين يراقبانهما فى سخرية.

كانت يد عزيز المتوتر قريبة من مسدسه، كان خائفاً من لحظة جنون ما، خائفاً أن يعمد واحد منهما أو كلاهما يائساً إلى الانقضاض على أوغستان أو عليه.. لم يعجبه ما قام به أوغستان، أن ينزع عن محكومين بالموت قيودهما. يا إلهى كم لهؤلاء الفرنسيين من حماقات.. هل سيطلق عليهما النار مواجهة، أم يدعهما يهربان، ثم يطلق النار على ظهريهما معلناً قتلهما لمحاولتهما الفرار.. هل.. ولكن فيليب عاد إلى مقعده فى السيارة، وصدق حدس عزيز.. إنه يريدهما أن يهربا، ولكن الشابين المسكينين المنهكين الجائعين المتعبين لم يستطيعا الهرب بسوقهما المتشنجة من طول الرحلة موثقين.

كان ما قاما به محيراً فعلاً، فلقد انثنت ساقا الأكبر تعباً، وجلس مستسلماً إلى الأرض، نظر عزيز بجانب عينه إلى أوغستان، وفكر: لا بد أنه فوجئ بهذه الحركة غير المتوقعة، ولكنه ظل يحدق إلى الأمام، تبع الثانى الأول فى جلوسه المستسلم، وعندئذ فقط ضغط أوغستان على الزمور، فالتفت عزيز ليجد أوغستان يشير إليه أن يصعد إلى السيارة.

نظر عزيز إلى العربيين العاريين يجلسان على الأرض فى استسلام، وتساءل: أى فخ يهيء لهما أوغستان الآن.

تكرر الضغط على الزمور، فاتجه عزيز مستسلماً إلى مقعده.. كانت الأدوار كلها معدة مسبقاً.. .. فكر، والكل يقوم بأداء دوره فى كفاءة ودون اعتراض، جلس وراء المقود، أعاد تشغيل السيارة، وانتظر تعليمات أوغستان.. هل سيطلب إليه

العودة بالسيارة وصدمهما من الخلف، ولكن فيليب قال في نفاذ صبر: هيا، تحرك.. ماذا تنتظر؟

- إلى أين؟

- إلى حمص.

والـ.. وأشار بعينيه إلى العربيين العاريين يقتعدان الاسفلت شققته، ومزقته الأمطار والريح.

وضحك أوغستان في جلال: سنكتفي بهذه العقوبة، سندعهما يعودان إلى حمص عاريين، صدقني. لن يكررا المحاولة.

- ولكن.

- سنكتب أنهما هربا، وهما قد هربا فعلاً، ولكن عاريين حافيين، إن خزى تسول ما يستران به نفسيهما من أقرب بيت سيجعلهما يفكران عشرين مرة قبل محاولة الإمساك بقرني ثور التاريخ وتحويله مرة أخرى. هـ.. هيا.

انطلقت السيارة، ورأى أوغستان عبر المرآة العاكسة العربيين وهما يتضاءلان، ويصغران في مجلسهما منارين بآخر أشعة الشمس الغاربة، يضؤلان، ويضؤلان حتى صارا نقطتين، ثم نقطة ما لبثت الصحراء والغبار والسراب أن ابتلعهما.

كانت العتمة قد أسدلت ظلالها الأولى، ولكن أوغستان الغاضب، والذى أمر بوصيفه المعترف بجرمه، فرمى فى السجن قد قرر استخدام صلاحياته كحاكم عسكرى للمنطقة حتى حدودها القصوى، فقرر معاقبة مدير المال ركنى البندقدار ورميه فى السجن على لصوصيته، وإحالته للمحكمة العرفية سارقاً لأملاك الجيش. كان قد قرر إهانة هذا الغشاش فى البوكر، والجشع فى الصيد، واللص لسيارات الدولة.

فكر أولاً فى إهانة علنية فى تسليط عدد من الجند عليه.. وتجريده من ثيابه فى باحة المدينة، وضربه ضرباً مبرحاً لا يترك آثاراً يمكن الاستدلال عليها فى المحكمة، ثم فكر فى تجريده من ثيابه ودهنه بالعسل، وربطه تحت الشمس تاركاً للنحل والزنابير مهمة معاقبته، ثم فكر فى تجريده من ثيابه ورميه فى زريبة الخيل يقضى بضع ليال أو حتى ليلة واحدة ينام على فراش من روث الخيل.. وحين يراجع نفسه فى ما بعد ساخراً من كل هذه الأفكار التى ما كان لرجل متحضر أن يفكر فيها صدمه إصراره فى كل العقوبات التى اختارها له على تجريده من ثيابه وإهانته عارياً، وحين يتذكر كل هذا سيقرر ساخراً أن الأمر لم يكن بعيداً جداً عن التفكير بفاطمة.

كان قد غضب غضباً حقيقياً حين عاد إلى المدينة، فقد قضى ليلته وحيداً، فصديقته التى لم يبلغها بقدومه كانت قد سافرت إلى بيروت لبضعة أيام، وهكذا عاد صباح اليوم التالى ليفاجأ بأن وصيفه قد أجّر سيارة الحلاق لمدير المال، وصرخ مجنوناً بالغضب: هل صار اختراعى سيارة أجرة. يستطيع كل من يملك بضع ليرات استئجارها وتدنيسها.

أمر بالوصيف فسجن، وبعد انتظار ممض حتى وقت الغداء المتأخر، أمر فصيلة من الجند بالانتظار خارج طريق العمد المهشمة، وانتظار اللص العائد،

والقبض عليه فوراً، وإحضاره أمامه فى ثياب الصيد والغبار، وسيرى كيف يحاكمه ويعاقبه، ولكن الغداء انقضى، والعصر انقضى، والغروب قارب على الأزوف، ولم يصل اللص، فأرسل عزيز إلى بيت مدير المال يتقصى من السيدة زوجته إن كانت تعرف أين يمكن أن يكون، ولكن عودة عزيز كانت محملة بعجيبة أكبر.. لقد صحبها الأحمق الجشع اللص ركنى البندقدار إلى الصحراء تصيد معه الغزلان، وصرخ فيليب مصدوماً بدهشة لم يعرفها من قبل، صرخ فى ميشو وعزيز والموسيو دالاتى غير مصدق: هل تتخيلون.. لقد صحبها معه إلى الصحراء..

الموسيو دالاتى، أو الأجوتان دالاتى مدير الشرطة، والذى يصر أوغستان على تسميته بالموسيو، وكأنه لا يعترف برتبته التى هى فى النهاية رتبة شرطية، وليست عسكرية، كما أنه مواطن محلى، والمواطن المحلى موظف عند الحكومة المحلية و.. هذه أمور تؤخذ كلها فى الحسبان، المهم الموسيو دالاتى حين رأى الغضب المجنون لأوغستان، والذى تخلى فيه عن كل احتشام أو تهذيب، فقد انثالت الشتائم المقذعة بكل لغات الأرض التى فهم د\لاتى بعضها، ولم يفهم البعض، ولكنه عرف أنها شتائم. الموسيو دالاتى حين رأى الوصيف المدلل عند أوغستان وقد رمى فى زنزانة منفردة دون طعام أو بطانيات، أدرك أن مشكلة كبيرة ستتم لدى وصول البندقدار. لذا قرر التصرف.

صحيح أنه لم يحب ذلك الواوى لص ورق اللعب ذا العينين الزئبقيّتين اللتين لا تمكنانك من قراءة ما يفكر فيه، وصحيح أنه زوج تلك المرأة التى قررت الاعتصام وحيدة فى بيتها إلا إن خرج السنغال وهى تعنى خروج الفرنسيين، وصحيح أن كثيرات قلدنها، بل اعتصمن معها فى البيت، ولكنهما _ فكّر الموسيو دالاتى وكما آمن دائماً الكابيتين أوغستان، فكر كمواطن محلى مهمته حماية المواطنين المحليين لذا سارع بإرسال عدد من الدوريات فى سيارتين تابعتين للشرطة، ودوريات على الخيل تجوب مواقع الصيد القريبة من المدينة لتحذير البندقدار من الغضب المحتمل لأوغستان، وأن عليه التفكير فى طريقة ينقذ فيها نفسه، أو أن يغادر إلى حمص لبضعة أيام، ويترك لهم السيارة يعيدونها إلى مدينة العمد المهشمة لتهدئة فيليب، وسيرى كيف يحلون هذا الخلاف، ولكن الدوريات عادت

كلها دون أن تعثر على السيد ركنى، أو على السيارة، أو على زوجته، وهكذا أخذ القلق يعترى أفراد شلة البوكر وسهرات النميمة، فما الذى يمكن أن يجرى لركنى وزوجته، وتساءل عزيز إن كان ركنى سائقاً جيداً، ولما عرف أنه من أبرع السائقين تساءل إن كان يحسن الصيد، ثم تساءل وتساءلوا، وكانوا يبعدون السؤال المخيف وهو إن كان قد تعرض لحادث فى البادية و.. معه زوجته الجميلة التى صنعت الصحافة منها أسطورة.. أعوذ بالله أى فضيحة يمكن أن تقع، وأخيراً وصلوا إلى اتفاق: القيام بحملة تفتيش مكثفة فى الصباح الباكر، وما كانوا يصلون إلى هذا الاتفاق حتى أشار أحد الشرطة من البدو إلى الأفق، وقال: أضواء سيارة..

حدقوا وركّزوا، وصرخ آخر بأنه يرى ضوءاً يلوح ويختفى، وهكذا قرروا الانتظار قليلاً، فلعل السيارة القادمة تكون سيارة أوغستان التى استعارها ركنى وزوجته.

كان الانتظار الطويل، ومراجعة أوغستان لنفسه، ومعرفته بأن ركنى يصطحب زوجته معه إلى الصيد، وخوفهم جميعاً من أن يكونا قد تعرضا لحادث، وما يمكن للصحافة أن تصنع من خبر مقتل أو إصابة شخصية مشهورة بعدائها لفرنسا كفاطمة التى صارت أسطورة الصحافة فى اعتصامها الفردى، وما يمكن لهذه الصحافة وخاصة الأجيرة لبريطانيا منها أن تشهِّر بفرنسا، وتتهم السلطات العسكرية بتدبير مقتلها خاصة وأنها ستكون فى سيارة فرنسية و.. أوه.. لا.. لا.. يا سلام.. وعليها كرسى حلاقة ربط خصيصاً إليها.. أية فضيحة ستصيبه شخصياً.. كانت الأفكار والتخمينات والتساؤلات تنتابه، فتطفئ غضبه ليتحول شيئاً فشيئاً إلى قلق على السيدة الجميلة التى رفعت منديلها لتمسح قطرة عرق مالحة أقذت عينها، فجعلته يرى غريتا غاربو محجبة بالمنديل فى مدينة العمد المهشمة والتماثيل منزوعة الرؤوس التى لم تر امرأة سافرة منذ قرون وقرون.

كان الشرطى البدوى على حق، فما كان على الطريق يلوح ويختفى، كان سيارة، ولكن أهى سيارة أوغستان، وتمتم دالاتى لنفسه: وأية سيارة ستجرؤ على القدوم من الشرق إلا سيارة أوغستان.

حملوا أنفسهم على الصبر، وكانت الجائزة تستحق، فلقد صرخ الشرطى

البدوى مع اقتراب السيارة رغم أنهم لم يميزوا منها إلا الكشافين الأماميين الذين صارا عينين متوهجتين عملاقتين تخترقان الظلمة المهيمنة صرخ: إنها سيارة الحلاق، سيارة الشيطان..

تحرج الجميع خوفاً من غضب أوغستان، فلقد تجرأ شرطى على تسميته وفى حضوره بالشيطان، ولكن أوغستان الذى انفثأ غضبه، ثم قلقه لم يكن يتمنى فى تلك اللحظة إلا أن يرا.. هما سالمين.

اقتربت العينان العملاقتان، وكانتا فعلاً لسيارة الحلاق. كانوا يقفون فى الظلمة وفى ظلال البوابات الحجرية لمدينة العمد المهشمة، فلم يكن لسائق السيارة أن يراهم، وأمر أوغستان عزيز بإنارة أضواء السيارات ليراهم ركنى، ويتوقف.

كان ضوء السيارات الأربع التى اتقدت فجأة مرعباً لسائق السيارة، فلقد ضغط الكابح بقوة جعلت السيارة تنزلق على الرمل الخفيف المغطى لاسفلت الطريق، تنزلق وتنزلق ولا تتوقف إلا قريباً من المجموعة المنتظرة وحين وجه دالاتى كشافه إلى السيارة فوجئ الجميع بأن السائق كان.. فاطمة، وأنها كانت حاسرة الوجه مكشوفة الشعر، وأنها متعبة حتى ما قبل الانهيار إذ لم تستطع النزول من السيارة إلا بمساعدة الأجوتان دالاتى والسارجان عزيز، وسيلاحظ أوغستان فيما بعد كيف انقسم المنتظرون فجأة إلى أقارب محارم يستطيعون الاقتراب من المرأة السافرة، وإسنادها، ومساعدتها على النزول من السيارة، وإلى أغراب أجانب لا يحق لهم الاقتراب من المرأة الحاسرة السافرة، وحين وضعت قدمها الأولى على الأرض أشارت إلى داخل السيارة ليروا من كادوا ينسونه ركنى البندقدار معصوب الرأس بمنديل فاطمة والدماء تنزف منه مشكلة بركة أثارت ذعر كل من تطاول برأسه ليرى، فقد كانت خلفية السيارة تموج ببركة من دماء تجلطت، ومصمص الكبار شفاههم أسفاً، فما لركنى بعد هذا النزف من فرصة للحياة.

لكن ما لم يروه فى لحظة الروع تلك، ورآه السارجان عزيز عند تنظيف السيارة صباحاً مع السائق هو تلك الكاميرا الثمينة المهشمة، وقبعة الطيار الألمانى التى كانت ما تزال تحمل رتبته.

حمل عزيز ما عثر عليه إلى الكابيتين فيليب أوغستان الذى أعاد الكاميرا إلى

السيدة فاطمة وحاول الاستفهام عن قبعة الطيار الألمانى، ولكنه لم يحظ بجواب، فطوى الأمر إلى أن جاء أخيراً إلى مدينة العمد المهشمة الموسيو دينارد الصحفى الكبير، ورئيس تحرير جريدة ليه دوموند السابق.

١٣

آه بس لو ما كان اسمها غريتا غاربو، ما كان لهاهديك التطليعة التطليعة الباردة، تطليعة الأم لما بتكمشك عم تلعب بحالك، التطليعة اللى بتخليك تحس أنك صغير، صغير، واطى، وأنك ولد محتاج لكفين لترجع أدمى. صغير وبتعرف أنك من شان توصل لها المعبودة البعيدة عن كل حلم، وكل رغبة، وكل إمكانية.

آه. بس لو ما كان اسمها غريتا غاربو، لو ما اسمها الملكة كريستينا، وآنا كارنينا، ولو ما فيَّقت فيي شهوة خلتني لوب ودوِّر عليها بين مواخير بيروت وكرخانات حيفا، دوِّر على هالشقرا المعمولة من بوظ، الشقرا اللى بترعب وبتضرب كف بتطليعة.. إيه.. أعوذ بالله. شو اللى خلانى هلق أتذكر ضرب الكفوف. شو اللى خلانى أتذكر تطليعة الأم اللى متل ضرب الكفوف بيوم شتى لما كشفتنى عم ألعب بحالى، وخلتنى أهرب على بيت المونة، وسكر على حالى النهار كله بين العتمة، وريحة العفنة، والخوف من الفيران..

ضغط دعسة الفرام بقوة جعلت السيارة تنزلق إلى الرمل، ثم تنزلق فى الرمل حتى حجزها الرمل، فتوقفت، وصرخت فاطمة مرعوبة، فالتفت إليها معاتباً، مرعوباً، مؤنباً، مثاراً بمنظر الذعر الحقيقى فى عينيها. أعوذ بالله. إنها المرة الأولى يرى فى عينيها الذعر.. أيمكن.. أيمكن لفاطمة المتكبرة التى جعلت رئيس الوزراء، ووزير الداخلية، ووزير المال، والمفوض الفرنسى يرجونها أن تنهى اعتصامها السخيف فى منزلها لا تغادره قبل خروج السنغال من الشام، ذلك الاعتصام الذى جعل أحد الصحفيين الماجنين يقدم حلاً تجحيشياً كما سماه حين جعل عنوان الصفحة الأولى: فليخرج السنغال، وليبق الفرنسيون، فهيَّج الناس، وتحركت المظاهرات، وصار الناس يسلِّمون على فى الشارع يطلبون منى الصمود.. العينان المذعورتان الصارختان فى هستيريا واللتان تحولتا بعد انطفاء السيارة ووقوفها فى الرمل إلى العينين الغاضبتين تنزَّان بالعنف والغضب. أنا

أعرف أني لو فهت بكلمة واحدة في هذه اللحظة فستنقض على لاكمة صافعة.

انزلق منسلاً من السيارة شاعراً بأنه نجا بنفسه، وما إن لمست قدماه الأرض حتى أحس بشهوة نضرة ما عرفها منذ سنوات حارة البدوي وفتيات روبير.

نظر إليها وكان يتمنى لو تستجيب لكانت واحدة من أحلى لحظات الحب، ولكنه يعرفها، ويعرف نظرة الازدراء التي سترمقه بها لو حاوله ستقول: ألم تشف بعد من العاهرات؟ ألم تتعلم بعد طريقة التعامل مع بنات العائلات، وسينهزم، ويتصاغر، وتختفي كل شهوة.

قفزت من السيارة بخفة ما كان يتخيلها من امرأة ملفوفة بكل هذا السواد، ولكنها.. فاطمة.. رمقت العجلات الغائرة في الرمل وسألت: والآن؟

فهز رأسه في استهانة: ليس الأمر خطيراً.

فقالت: طيب.. والصيد؟

قال وقد أبعدت فوقيتها الطبيعية كل شهوة لديه: أشم رائحة بركة قريبة.. هل تشمين؟

فرفعت أنفها الصغير المخنوس قليلاً إلى الهواء، وأخذت تتشمم ثم قالت: لا.

قال: أنا اشمه، وسأمضي، فلعلي أن أجد بعض الغزلان هناك، فقالت فيما يشبه الصراخ: وتتركني هنا؟

– بل تأتين معي.

– في هذا الرمل.

– فما أفعل.

– أخرج السيارة من ورطتها.

كان ركني قد دفع مبلغاً طيباً لوصيف أوغستان حتى سمح له باستعارة سيارة الحلاق واثقين من أن أوغستان لن يعود قبل ثلاثة أيام إن لم يزد، فهذه عادته التي يعرفها الجميع، ما إن ينزل إلى المدينة حتى يمضي إلى صديقة له يعرفها الجميع، فيقضيان أيام إجازته معاً يتنقلان ما بين دور القمار السرية،

والبارات غير السرية، وحين عرف ركنى بغياب أوغستان مع أسيريه العربيين قرر اغتنام الفرصة، وجعل فاطمة ترى الوجه الآخر منه، وجه الصياد لا يشق له غبار.

قالت: لو جعلتنى أسوق لما انزلقنا إلى الرمل.

قال يطمئنها: ستسوقين، ستسوقين حالما نرى سرب الغزلان الأول، فأنا لن أستطيع أن أصيد وأسوق فى الآن نفسه.

أخرج عدداً من الألواح الخشبية المعدّة لمأزق كهذا، وأدهش فاطمة بعمليته التى ما كانت تعرفها عنه إذ سرعان ما أخرج السيارة من ورطتها عائداً بها إلى الطريق المعبّد، ولكنها أصرت على أن تسوق بنفسها هذه المرة، وكان قد علّمها قيادة السيارة قريباً من بيت الصيفية فى داريا.

تجاوز الزمن الظهر، ولم يريا سرباً واحداً من الغزلان، ولم يجرؤ أن يطلب إليها أن تسوق فى الرمل، فالغزلان لن تحضر بنفسها إلى طريق السيارات.. قال: سأتركها تستنفد متعة القيادة، ثم سأتولى القيادة بنفسى.

صح ما توقع إذ أبطأت السيارة، ثم أوقفتها، وقالت فى خيبة أمل: أين أسراب الغزال التى حدثتنى عنها.

فأشار بيده متعباً إلى البادية عميقاً: هناك.

نزلت من خلف المقود مستسلمة، وأشارت له أن يستلم القيادة.

فى رحلة الصيد تلك رأت فاطمة فى ركنى وجهاً جديداً لم تكن تعرفه، الضغط على الأضراس، واللعن البذىء إذا ما نجا غزال من رصاصاته، كانت ترى عبر مرآتها فى السيارة التى عادت إلى قيادتها صفاً من جثث الغزلان، كان يقتل، ويقتل حتى سئمت رؤية قفزة الرعب الأخيرة للغزال حين يصاب، أعجبها المشهد فى البدء، فما إن يحس المسكين بألم الإصابة حتى يقفز قفزة أشبه بمحاولة طيران أخيرة، ولكن الأرض تعود إلى شدّه إليها، فيستسلم ضعيفاً لا ينتفض، بل يلوّن الأرض من حوله بورود من دم. هذا المشهد الذى سيعلق بذاكرتها وسترسمه كثيراً فى لوحات الأيام القادمة، مشهد الغزال يقفز قفزته الأخيرة متطاولاً إلى سماء لم يبلغها، ولكن. أهى فعلاً الرغبة بالطيران، أم لذعة الألم غير المتوقعة ما

يجعله يقفز تلك القفزة العجيبة.

فيما بعد وحين تخلو حياتها إلا من المسطح القماشى الأبيض، وأنابيب الألوان ستتذكر ذلك المشهد كثيراً، حين يحيط بها حزن خيبة الحب المتأخرة، والاستنكار، والاشمئزاز.. امرأة فى الخمسينيات وتعشق. حين تحيط بها كل هذه الأحزان وليس من متنفس أمامها إلا مسطح اللوحة الأبيض. عندئذ ستبدأ رسم سلسلة لوحاتها الشهيرة. المليئة بالمرارة والوجع.. تلك اللوحات التى ستكتشف أنها فى لا وعيها كانت قد وحَّدت بينها وبين الغزال فى قفزته الأخيرة تلك. سترسم غزالاً هرب من الصيادين والفخاخ وكلاب الصيد، ولجأ إلى مستنقع يتخفى فيه عن عيون الصيادين، والكلاب، ولكنه فى لحظة الأمان تلك يرفع رأسه ليرى البنادق وقد أحاطت به مشرعة، والكلاب وقد أشهرت أنيابها مهددة.

كانت فاطمة قد رأت الصيادين والكلاب تحيط بها فى اللحظة نفسها التى آمنت فيها بأنها نجت.

فحَّ ركنى أخيراً، فلقد نفدت طلقاته كلها قال: لنعد ونجمعها، ودارت بالسيارة مثقلة برغبة بالقىء لم تعرف لها سبباً، ولكنها حين رأت يديه بعد إيداعه الغزلان الأربعة الأولى فى خلفية السيارة مثقلة بالدم ستبدأ قيئاً لا تعرف كيف تشبث بها، ولكنها لن تتوقف عن القىء حتى الحادث الذى كاد يودى بركنى، صحيح أنه لم يكترث لقيئها كثيراً، وصمم على جمع كل الغزلان التى صادها إلا أن أنينها وقد أفرغت معدتها تماماً حتى من السوائل التى كانت تشربها، وتئن، وقطع الليمون التى كانت تزدردها وتئن، جعله يتنازل عما بقى على الأرض من جثث ويعود وكان يمكن لها أن تقىء حتى تموت فقد صار قيئاً عصبياً غير مكترث بما يخرج من الأعماق لو لم يحاول ركنى تفادى كلب شارد ظهر على الطريق، فيهرب منه إلى جانب الطريق ويصدم صخرة جعلته يقفز من مقعده، ويضرب الزجاج الأمامى برأسه. هذا الحادث الذى سيجعل فاطمة تقول لى فيما بعد إنه انتقام الصحراء لنفسها من قاتل أبنائها.

كان الأمر محيِّراً لفاطمة تماماً، وقد حدثتنى عن ذلك وهى تتنفس بارتياح، فلقد رآها الجميع حاسرة الشعر مكشوفة الوجه، ورآها الجميع فى تلك الصورة

فى الجريدة، ولم تنطبق السماء على الأرض، ولم يطعن أحد فى شرفها، ولم تطاردها الحجارة فى الطريق، بل تقاطر أهل المدينة، الموظفون المحليون والفرنسيون وكبراء المدينة يطمئنون على السيد ركنى، ويحيُّون موواربة المرأة الجريئة التى أنقذت نفسها وزوجها من الذئاب والضباع والليل.

كانت فعلتها هذه المرة أشد إدهاشاً من فعلتها الأولى حين أقسمت ألا تخرج من بيتها وفى البلد سنغالى، فلقد قادت السيارة فى الصحراء، وأنقذت زوجها من حادث كان يجب أن يودى بحياته.

غسلت الجرح فى رأسه، وغمرته برمل الصحراء الجاف طهرته الشمس، فمنعت عنه النزف، ثم ربطته بمنديلها ووشاحها، كانت تحدث نساء المدينة عن مغامرتها، فيبدين آهات الإعجاب، وينتظرن أن تكمل الحديث عن فعلتها الخارقة فى قيادة السيارة فى الصحراء عائدة بها وبزوجها إلى المدينة، فلم تحدثهم عن القيادة، فالقيادة كما فهموا منها أمر عادى، أما إخراج السيارة من الرمال بوضع الدفوف الخشبية تحت العجلات لتخرجها من ورطتها، فهذا هو الأمر الصعب، حدثتهن أنها ما كادت تصل بالعجلتين الأماميتين إلى الطريق المسفلت حتى رأت أسراباً من كلاب تحوم من حول السيارة، فلقد جذبتها _ ولا شك _ رائحة الغزلان المكوَّمة فى السيارة، والدماء المتسربة إلى الأرض. قالت: لم أر فى حياتى كلاباً بهذا العدد، ولم أشمَّ رائحة لكلاب بهذه النتانة!. وصمت الجميع، فلم يريدوا إذعارها بالقول إن ما رأته وشمَّته لم يكن لكلاب، بل كان لضباع جذبتها رائحة الجثث. قالت: وقفزت السيارة كالمجنونة بعد ضغطتى المرعوبة على دعسة البنزين، فابتعدت الكلاب قليلاً، ويبدو أن القفزة قد زعزعت رصف الغزلان فى السيارة، فسقطت واحدة منها انقضت الكلاب عليها، فانشغلت عنى مما مكننى من وضع السيارة على مسارها الصحيح والانطلاق مع الطريق المزفت، فقد قلت لنفسى. إنه طريق سيارات، وطريق السيارات لن يقود إلا إلى مدينة.

لكن ما لم يسألوه، ولم تملك عنه إجابة هو أن جثث الغزلان المكدسة فى الخلف وقد تزعزع رصفها أخذت تتساقط واحدة إثر الأخرى حتى لم يجد المنتظرون عند بوابة المدينة مهشمة الأعمدة إلا ركنى البندقدار الغارق فى بركة من دماء، فقالوا

إن من ينزف كل هذا الدم لا يمكن أن ينجو. غير عارفين أن هذه البركة لم تكن دمه، بل كانت دماء الغزلان التى تساقطت على الطريق جاعلة من الطريق الدموى دليلاً للضباع إلى مدينة لم تعرف الضباع منذ عقود، فصارت منذ ذلك اليوم محطة لزيارات لا تتوقف، وصار على أوغستان أن يضيف إلى واجباته فى تسكين ثائرة البدو فى الصحراء العمل على تسكين جوع ضباع عرفت أخيراً طريق المدينة.

كان الأمر محيراً بعد أيام الزيارات والاطمئنانات، وعودة ركنى إلى عمله معصوب الرأس، ولكنه محطُ الأنظار والتحيات، وكانت المفاجأة فى وصول صحيفة محلية مع أحد المسافرين ليقرأوا فيها أخبار مغامرات فاطمة مع الضباع والصحراء، وتغلبها عليهما، وإنقاذها لزوجها، وكان أن تجددت أسطورة فاطمة على غير رغبة منها، أو من ركنى أو حتى من ضلع المثلث القادم فيليب أوغستان، ولكن حين نشرت صحيفة ناطقة بالفرنسية تصدر فى بيروت خبر مغامرة فاطمة مذكرة بأنها المرأة التى كانت قد أقسمت أن تعتزل فى بيتها حتى خروج آخر سنغالى من البلد، ثم ينتقل الخبر كالعادة من الصحيفة البيروتية إلى الصحيفة الاسكندرانية الناطقة بالفرنسية، ثم إلى الصحافة الفرنسية، وهكذا أصبحت فاطمة رمزاً لامرأة ما كان الإعلام الغربى يتوقعها، أو يريدها، ثم تكتمل الحكاية فى تقاطر الصحفيين من دمشق وبيروت يريدون مزيداً من الأخبار عن قاهرة الصحراء والضباع، وكان لا بد من صور جديدة.

١٤

كانت مفاجأة غير متوقعة أبداً المفوض الفرنسي في دمشق، فأن يتلقى برقية من بيروت تعلن وصول الموسيو جاك بينارد الصحفي الأكثر شهرة والأكثر شغباً إلى دمشق، وعن وجوب تقديم كل المساعدات له. كان وصول هذا الصحفي صداعاً، وللأ في القفا غير متوقع، فالمفوض الفرنسي لم يستطع إلا بجهود مضنية تهدئة الصحافة المحلية، وتخويفها من الحرب القائمة مع ألمانيا، وعن وجوب توحيد الصفوف، وتسكين الأوجاع والهموم الصغيرة، فالعدو النازي العنصري كاره العرب، ومحتقرهم ومقيّمهم بما لا يزيد عن القردة أو اليهود بالكثير.

كان قد استطاع تجنيد عدد لا بأس به من الصحفيين المحليين لشرح النظرية الآرية، وعن رؤيتها للشعوب، وعن سلم تقدم الشعوب في معارج الإنسانية. كان قد أعاد نشر مقالات جوليان هكسلي المعادية للعنصرية والنازية، وكان قد استعان بالعقاد المصري، وبتوينبي البيتاني، ولكن ما أرعبه أن كثيراً من السوريين رغم معرفتهم بما يعدُّ النازيون لهم كانوا قد علقوا آمالهم على المحرر النازي أبو علي هتلر، فبمعادلة صغيرة اعتادوا عليها في تفكيرهم السياسي كما سيحدِّث الموسيو بينارد عند لقائه: تفكير القبائل التي لا تفهم السياسة إلا على أنها حلفاء وأعداء الآن، وفي هذه اللحظة، هذه النظرية جعلتهم يقرأون عداوة هتلر للديمقراطيات الغربية على مبدأ أن عدو عدوي يجب أن يكون صديقي.

كان المفوض السامي يريد أن يسمع تأييداً من الموسيو بينارد، يريد أن يجنِّد قراءته السياسية لخَرْق بعض النخب السياسية السورية، بل الشارع السوري في توزيعه المنشورات المعادية لفرنسا، وانتظارها الفرج على يد هتلر، ولكن الموسيو بينارد رشف رشفة صغيرة جداً من فنجان قهوته، وقال:

– أريد حديثاً معها، وصوراً جديدة.

وهزَّ المفوض رأسه فى عدم فهم: فعمن يتحدث صديقى العزيز الموسيو دينارد، وسيرد الموسيو دينارد ببرود من يعطى الحقيقة كلها فى كلمة واحدة.

- فاتيما.

وسيعيد المفوض الفرنسى هزَّ رأسه فى حيرة، فعن أى فاتيما يتحدث، وما للموسيو دينارد وللفاتيمات، ونظر إليه مواربة، ودون أن يعلن فكر: الرجل كهل أقرب إلى الشيخوخة، فهل يعقل أن زمن النزوات ما يزال ممتداً لديه حتى الآن، ولكن الموسيو دينارد اختصر الأمر، ونشر أمامه صورة لفاطمة، صورة الطالبة المقتطفة من صورة جماعية لفاطمة وصديقاتها زمن المدرسة، وقرأ المفوض حديثاً عن مغامرة لامرأة بين الضباع لإنقاذ زوجها.

رفع المفوض رأسه مندهشاً: وما يعنى هذا؟ مغامرة تتم يومياً فى كل أصقاع الأرض، وقد تجد فيها بعض صحف الإثارة مادة للكتابة عن المغامرات والمفاجآت والمدهشات و..

ولم يستجب الصحافى الكبير لاستنكارات الدهشة لدى المفوض الفرنسى، بل قال: أريد لقاءها و.. صوراً لها..

حاول المفوض أن يصل إلى حل ما، تفسير ما من الصحفى، ولكن دينارد رفض الإجابة عن أيٍ من الأسئلة مركزاً على وجوب لقائها فقط.

استأذن المفوض من موسيو دينارد، واتجه إلى غرفة الاجتماعات ليطلب من سكرتيره أن يقدم له ملف السيدة فاتيما، وقدم له الصحيفة التى نشرت مقالاً استقاه كاتبه الصحفى من أفواه قادمين من مدينة العمد المهشمة، ومن صورة استعارها من صديقة لها، ثم أمر بتقديم قهوة جديدة للموسيو دينارد، وعاد إلى لقائه.

كان الحديث متكلِّفاً، ولو لم يكن هاتف المندوب السامى صريحاً فى وجوب التعاون مع الموسيو دينارد، فربما كان أهمله وحوَّله إلى بعض صغار الموظفين يماطلونه فى احترام، ويروغون منه فى تهذيب عالٍ اعتادوا عليه حتى يسأم، وينصرف، ولكن هاتف المندوب السامى كان صريحاً وقبل أن ينهى فنجانه الجديد،

دخل السكرتير يحمل إليه ملف فاتيما والبندقدار.. قرأ الملف بسرعة تحت أنظار الموسيو دينارد المترفعة الباردة، وكان كلما تقدم في قراءة الملف زاد دهشة، فما لمثل هذا الصحفي الكبير وهذه المرأة المشاغبة التي تحدت فرنسا.. واعتصمت في بيتها معلنة أنها لن تغادره إلا برحيل فرنسا، ولكنها _ سيضيف موضحاً للموسيو دينارد - أرجو ألا يكونوا خدعوك، فأوهموك أنك ستلتقي جان دارك. إنها مجرد عربية ساذجة لم تستطع الصمود في بيتها حتى الموت كما أعلنت.

بتر الموسيو دينارد تدفق المفوض، وقال: أعرف كل شيء، وأعرف أنكم خدعتموها ببعض المناورات اللفظية والضغوط، فجعلتموها تتراجع معتقدة أنها لم تتراجع. أعرف. أعرف كل شيء ولكني أريد لقاءها.

ولما كان المفوض منشغلاً بأمور سياسية مع السياسيين المحليين هذه الأيام، ولما كانت برقية المندوب السامي صريحة، فلم يجد من خيار إلا أن يأمر بإرسال برقية إلى محافظ حمص الذي كان قد تلقى برقية مماثلة من بيروت، ولذا فقد كرس كل اهتمامه وتسهيلاته لهذا الموسيو القادم من باريس، والمسمى الموسيو جاك دينارد، وبينما كان المحافظ يعطي تعليماته إلى مساعديه وسكرتيريه للتحضير للقاء والتعاون مع الموسيو دينارد، كانت هنالك دودة سخرية صغيرة تنغل في قلبه أسفاً على الحظ السيء الذي جعله يستمع ويصغي إلى رجال كالمندوب السامي، والمفوض يضيعان وقتهما ووقت الدولة لاستقبال صحفي كان عليه أن يجلس ساعات في صالونه حتى يسمح له بلقاء من خمس دقائق، وتمتم في غضب كظيم: ولكنه الانتداب!

١٥

كان الأمر محيراً لفاطمة؛ محيراً حتى الإذهال، فالمطلوب كان ببساطة أن تتخلى عن الأوامر والنواهي التي علموها لها خلال العشرين عاماً الماضية. المطلوب كان أن تقوم بكل ما علموها وصبّوا في آذانها بأن القيام به عيب وكفر، ولا أخلاقي.. المطلوب كان أن تجالس رجالاً أجانب ليسوا حتى سوريين أو مسلمين، والمطلوب كان أن تقبل أن يصوروها سافرة الشعر حاسرة عن وجهها تماماً مثل بنات المجلات والكاباريهات، واللواتي كشف الله عنهن ستره.

كان الأمر محيراً، فوصول هذا العدد من الصحفيين والمصورين من دمشق وحلب وبيروت، وصلوا مؤمنين بأنهم أخيراً قد حلوا اللغز.. فالمرأة التي تحدت فرنسا واعتصمت في بيتها معلنة أنها لن تغادره إلا بعد خروج فرنسا، ثم تهجر البيت وتختفي، وتنقطع أخبارها حتى اعتقد البعض أنها سجنت أو اغتيلت، فلا يعقل أن امرأة كفاطمة تختفي دون أن تترك أثراً، وحتى حين حاصروا زميلهم الأستاذ نجيب زوج الشاعرة الصاعدة مسرة لم يستطيعوا الحصول على معلومة واحدة منه. ليس لأنه يرفض، بل لأنه ببساطة لا يعرف.. ثم فجأة ينكشف كل شيء، فالمرأة البطلة كانت قد نفيت نفياً سلمياً هادئاً إلى المدينة الصحراوية البعيدة عن السياسة والناس والصحافة.. فجأة تصل أخبارها، فهذه المرأة نفسها ها هي تتكشف عن مغامرة حقيقية تخوض مغامرة مع الضباع، فتنقذ زوجها الجريح حتى ما قبل الموت، وتنقذ نفسها، ثم تعود إلى العزلة من جديد، وهكذا تحولت فاطمة مرة ثانية إلى مادة إعلامية جديدة للصحف الدمشقية، والحلبية، والبيروتية، صحيح أنها كلها مواد إنشائية الكتابة والصياغة، فلم يكلف صحفي نفسه مغبة الرحلة إلى مدينة التماثيل بلا رؤوس والشوارع المبلطة بالرخام المكسر، ولكنهم جميعاً استطاعوا الإفادة من مخزون لغوي إنشائي عن البطولة والصمود والأصالة والرغبة في الاستقلال، ولكن واحداً منهم لم يكلف نفسه تقديم صورة واحدة لتلك المرأة، بل تجرأ بعضهم ووضع صورة لامرأة شامية أي امرأة تلبس

الملامة حاجبة وجهها و.. كفى.

لكن الصحف المصرية الأكثر مهنية طالبت مراسليها بصورة واضحة، للمرأة، للمدينة، للزوج، وللسيارة.. وأكمل رئيس تحرير المقطم: القراء يلحون، وعليك أن تكون أكثر حرفية.. ثم أضاف: وستكون تكاليف الرحلة كلها على حساب الصحيفة.

كانت خطيئة الأستاذ منير فاضل مراسل المقطم أن أرى البرقية إلى صديقه مراسل الأضواء البيروتية متفاخراً ظاناً أنه يسارُّه وأن مراسل الأضواء سيكتم السر، ولكنه فى صباح اليوم التالى حين اتجه إلى باص حمص، وفوجئ بمراسلى الصحف، ومندوبيها معه فى الباص نفسه. وعضَّ على شفته أسفاً، فلقد فقد التفرد الذى كان رئيس تحرير المقطم يسعى وراءه. ولكن فاطمة قالت فى صرامة: لا.. لا صور.

كانوا قد صوروا سيارة الحلاق، وأخذوا صورة مقربة لمقدمتها التى لم تصلح بعد، وصوراً لكرسى الحلاق الدوار، فقد كان شيئاً طريفاً. وهذه الصورة ستكون نموذجاً لكل صيادى الغزلان فى البادية الشامية، وستكون هذه الصورة المشؤومة السبب فى مقتل مئات الآلاف إن لم يكن الملايين من الغزلان، وستكون السبب فى انقراض الغزلان تماماً من البادية الشامية فى أقل من ثلاثة عقود، ولكن المصور الذى صورها لم يكن ليعرف أنه سيكون السبب فى انقراض الغزلان والمها، والحياة البرية النباتية التابعة لهما بسبب صورة تافهة لم يقبض ثمناً لها، فقد سخر منها صاحب الجريدة، قائلاً: ما لنا ولكرسى حلاق على سيارة. ثم تابع غاضباً: بل ما علاقة هذا كله بقصة المرأة المغامرة فاطمة.

كانوا قد سعدوا بتعاون السيد ركنى البندقدار الذى سمح سعيداً بتصويره وراء المقود فى السيارة، وسمح لهم بتصويره معصوب الرأس الدامى مستلقياً على المقعد الآخر. كان قد سمح لهم، بل لنقل إنه رجاهم أن يصوروا جلود الغزلان المعلقة على الجدران، ورؤوس الغزلان الضخمة المحنطة بطريقة بدائية ستتهاوى خلال شهور، فلا يبقى له من دليل على تلك المغامرات التى أقلع عنها إلا تلك الصور فى الصحيفة.

وأخيراً تجرأ مصور، فكمن آخر الليل عند بوابة المدينة محطومة القوس، ونال جائزة الجرأة حين استطاع تصوير سرب من ضباع وصلت متشممة أسوار المدينة، ولكن كل هذه الصور لم يكن لها من قيمة إلى جانب صورة المرأة التى اعتزلت فى بيتها للمرة الثانية تاركة الآخرين يتبادلون مأثرتيها.. وتجرأ زوجها أخيراً تحت تأثير إلحاح الصحفيين وتملقاتهم، فرجاها القبول بتصويرها، ونظرت إليه مفتوحة العينين كليرة فضية، لا تصدق!! ابن البندقدار يطلب إليها الخروج لمجالسة الأجانب، والسماح لهم بتصويرها، ولكنه كرر كلمة سمعها من واحد من الصحفيين، وكان للكلمة إيقاع دينى جليل، قال: الضرورات تبيح المحظورات.

لم تفهم فاطمة الجملة رغم إيقاعها الجليل، وظلت على رفضها، وقالت: إنه يملك حقوقاً كثيرة عليها، ولكن ليس منها الوقوف أمام الأجانب سافرة ليصوروها.. ولما ألح تابعت مكررة جملة كانت قد حفظتها منذ أيام المدرسة فقالت: لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

وهكذا أقفلت المبارزة الفقهية، وعاد السيد ركنى البندقدار إلى الصحافيين يبلغهم بأنها ترفض الصور رفضاً تاماً، ولما كان الصحفيون أنفسهم يعرفون بأنهم هم أنفسهم لن يسمحوا لأخواتهم أو بناتهم بالظهور فى صور فى الصحف، فلقد تفهموا الأمر. ولكن البرقيات استمرت فى إلحاحها باستمرار المحاولات.

١٦

بعد يومين من المحاولات الفاشلة والصور الفائضة لأسراب الغزلان، ولعمد محطومة، ولبوابة منكوسة الأقواس، ولطرقات مهشّمة البلاط الرخامى، ولتماثيل منزوعة الرؤوس وصل المحافظ ومعه موكب من راكبى السيارات والموتوسيكلات والخيالة، فنشروا الضجة فى المدينة، والرعب لدى مدير المال، ومدير الشرطة، ومدير الجمارك، ومدير الناحية، فحضور المحافظ كان يعنى دائماً شيئاً واحداً، كارثة للموظفين، وفضيحة لاختلاسات لم تكشف، ومخالفات لم يعلن عنها، وقروض من الخزينة لم تسدد.

وكانت المفاجأة فى أن المحافظ لم يرض باستقبال مدير الشرطة ولا مدير الجمارك.. ولا شيوخ العشائر، أو كبراء المدينة، بل مضى مباشرة إلى مكتب مدير الناحية، ومعه الصحفى الفرنسى الذى اصفرّ الأستاذ منير حين رآه يتقدم المحافظ الذى أشار إليه مجاملة أن يتقدمه، فلم يفهم الأمر، فتقدّم. اصفرّ الأستاذ منير، فلقد عرف الصحفى الفرنسى، وهاجمه السؤال كحشرة عث: ما الذى جاء بمندوب الفيغارو، ورئيس تحرير لوموند السابق. ما الذى يمكن أن يأتى برجل على هذه الأهمية الصحفية و.. مع المحافظ الذى طلب إغلاق باب مديرية الناحية، وعدم السماح لأىٍ كان بالدخول عليهم.

كان الأستاذ منير قد أفلح فى اختلاس صورتين للمحافظ، وما كان يريد المحافظ الذى ابتسم فى سعادة سرية، بل كان يريد صورة توثيقية للموسيو دينارد فى مدينة الأصنام بلا رؤوس، ولم يكترث دينارد، فلم يخطر له أن هناك من يهتم بتصويره، ولا لماذا، ولكن حين أغلق الباب فى وجوه الصحفيين، والفضوليين بدأت عثة السؤال تلح على منير. ما الذى يطبخونه.

أما مدير الشرطة، ورئيس الهجانة الذى حضر بسرعة من البادية ما إن شم الخبر، فقد رحبا فى حماسة مصطنعة بمدير الدرك، وبينما كانت القهوة جيدة

الهيل والتوابل تقدم فى الفناجين الصينية التى لا تقدم القهوة فيها إلا لعزيزى الضيوف. حاول رئيس الهجانة بغمزة من مدير الشرطة معرفة ضحية المحافظ الذى كلَّف خاطره، وترك حمص، ووثارة مجالسها، وبرودة مراوحها من أجله.. حاولا مداورين ومصارحين، حاولا معاً، وكلٌ على حدة، ثم انضم إليهما مدير المال المرعوب من حكاية سيارة الحلاق المستعارة من الحكومة الفرنسية بدون إذن خطى. حاول كلٌ على حدة معرفة الضحية القادمة، والعقوبة المقررة لذنب لا يقرون به، ولكن كلاً منهم يكتمه فى قلبه راجياً الله ألا يفضحه ويعلنه ويعاقب عليه.

اكتفى مدير الدرك الذى لم يكن يعرف ما يحومون حوله بالتلذذ بشرب قهوة لم يشرب مثلها منذ أمد طويل، وحين ضاق بالأسئلة والحذر والحومان حول ما لا يعرفه سأل فى براءة خبيثة: على من سيكون الدور اليوم فى الذبح وإعداد الغداء.

فجأة استيقظ الجميع من سباتهم، وعرفوا أن الاعتذار الأكبر والتقرب الأشد حميمية هو فى إظهار الحد الأقصى من الكرم وهكذا اندفع الشرطة، والهجانة يجمعون من المدينة الخراف الأشد سمنة، والغزلان المحبوسة فى البيوت، فلا وقت للصيد، وبالغ شيخ العشيرة التى تحضرت منذ عقود بإظهار كرم كان يريد منه إخفاء القوافل التى تنقل التبغ والحشيش إلى الجانب الآخر من الحدود، فاستدعى قعوداً بحجم جمل ثنى.

انتشرت رائحة الدم ورائحة الحطب ورائحة السمن العربى، وكانوا كلما زكت الروائح زكت سعادتهم راجين أن يشمها المحافظ وضيوفه جيداً، ولكن طمأنينتهم لم تطل إذ سرعان ما قدم سكرتير مدير الناحية يطلب مدير المال للقاء المحافظ، وهنا ساخت ركبتا مدير المال، فلقد عرف أن فضيحة سيارة الحلاق قد وصلت إلى المحافظ، وأن مصيبة كبيرة على الطريق.

مضى السيد ركنى بقدمين مثقلتين بالذنب، وعينين أخفى الرعب بريقهما، وركبتين تتماسكان بصعوبة، ونظر إليه الجميع [illegible] مودِّعين يظهرون الأسف والشفقة ويضمرون قليلاً من ارتياح داخلى وشماتة: الحمد لله إذن فهو الضحية.

فيليب أو أوغستان كان يراقب الاجتماعات الجانبية والاضطرابات فى أوساط النخبة من الموظفين والإداريين، كان يراقب تعاطفهم وتجمعهم حول بعضهم

البعض مثل فراخ دجاجة ابتعدت أمها، ورأت ظل صقر فى السماء فهى تتجمع مشكلة كتلة واحدة آملة ألا يميز الصقر ضعفها وتفتتها وخوفها.

كان فيليب أوغستان يراقب، وكان مخبروه قد شكلوا سلسلة تتناوب فى مسيرتها بين دار البلدية حيث الاجتماعات الصغرى، وبين مكتب مدير الناحية حيث يجتمع المحافظ مع مدير المال. لم يدرك مغزى الاجتماعات رغم إدراكه لذعر كبار الموظفين، وحتى لا يقلق قلقهم نشر أمامه ورق اللعب، وأخذ يلعب لعبة الصبر، ويراهن نفسه حول إدراكه لمغزى زيارة المحافظ مصحوباً بالموسيو دينارد الذى ارتكب عيباً بروتوكولياً حين لم يطلب لقاء السلطة الفرنسية الأكبر فى المدينة، واكتفى بصحبة المحافظ العربى.

نضج اللحم، وأبلغ الشرطى المكلف بالإشراف على اللحم بذلك مدير الشرطة فرحاً بإنجاز المهمة، ولكنهم كانوا منشغلين بشىء آخر ألا وهو مضى السيد ركنى البندقدار إلى بيته دون أن يمر بهم ليفصل لهم سبب استدعاء المحافظ له. أرسلوا إليه الرسل، ولكنه رفض فتح الباب لهم، فازداد قلق المجتمعين بدار البلدية.

عرف فيليب أوغستان بمضى ركنى البندقدار إلى بيته، وفجأة أشرقت الفكرة. مجىء الصحفى الكبير مع المحافظ، عدم زيارة الصحفى للسلطة الفرنسية الأعلى فى المدينة، مضى مدير المال إلى بيته وحيداً، عدم استقباله رسل مدير الشرطة، ورئيس الهجانة ونخبة الموظفين فى المدينة. يا إلهى. ليس لهذا إلا معنى واحد. إنه الموسيو دينارد إذن. إنه يريد السيدة بندقدار. فاطمة. لا. إنه لا يريد السيد بندقدار، ولا يريد مدير الدرك، ولا مدير الناحية، ولا رئيس البلدية، ولكن. أيعقل أن المحافظ بنفسه يأتى مع الصحفى لإقناعها بمقابلة الصحفى، وربما تصويرها.

أصبح الأمر مسلياً الآن، أصبح مسلياً تماماً، وما على أوغستان إلا الانتظار ومراقبة هذه اللعبة الغريبة. المرأة ترفض الاستجابة لزوجها الذى يريد إقناعها بالإسفار عن وجهها إرضاء لرؤسائه، والقبول بتصويرها، والقبول بشفاعة المحافظ، ونخبة الهيئة الوظيفية بالمدينة.

نضج اللحم وهو فى طريقه إلى الاهتراء، ولكن باب مدير المال لم يفتح، أنزلوا اللحم عن النار بناء على طلب رئيس الشرطة، وغطيت حلل البرغل والرز جيداً

لتحافظ على حرارتها، ولم ينفتح الباب. هزم فيليب أوغستان نفسه مرتين، وانتصر ثلاثاً في لعبة الصبر، ولم ينفتح الباب عن فاطمة. تتالت الرسل من المحافظ وهزّ مدير المال رأسه لهم، وتتالت عودتهم الخائبة إلى المحافظ، وتتالى مخبرو أوغستان ينقلون إليه الأخبار أولاً بأول، وكان لا بد من مفاجأة تغير المعادلة، ولم يطل انتظار أوغستان، فسرعان ما كانت المفاجأة وإن متأخرة، فقد قرر المحافظ أن يتناول الغداء المتأخر في بيت مدير المال، ووصلت رسالة المحافظ إلى فاطمة أن المحافظ قد سمع عن مطبخ السيدة فاطمة الجليلة الفاخر، ويتمنى أن يكون واحداً من مدعويها، ووجد السيد بندقدار في هذا الاقتراح مخرجاً جيداً، فوافق عليه دون استشارتها، وحين مضى الرسول دخل ركنى إلى فاطمة يبشرها بأن هذه فرصته الكبرى للترقي الوظيفي، وربما الانتقال إلى حمص، وسيتركون هذه المدينة التي غضب الله عليها والشمس. وربما يصبح مديراً للمال ليس في هذا الجحر لم يسمع به أحد، بل هناك في حمص، حمص المقاصف والعاصي، حمص الخضار الطازجة والأسواق المليئة بمنتجات باريس والقاهرة، حمص الحضارة والسهرات العائلية.

أدركت فاطمة أنها لن تستطيع مخالفة زوجها هذه المرة، فقامت لتعد الغداء ولكن الباب طرق، والحجاب وصلوا يحملون الغداء الذي أعده الموسيو دالاتي وكبراء البلد.

كان إدخال الطعام المعدّ إلى البيت غلطة كبرى في عرف سيدة البيت، فأن تُعِدّ الطعام للمحافظ شرف، وأن تستقبله وضيوفه في بيتها شرف أكبر، ولكن أن يستخدم البيت مكاناً محايداً لطعام لا يد لها فيه كان استغلالاً لن تقبله.

راقبت دخول المناسف، وراقبت المنسف الكبير يحمل عالياً فوق سور البيت، فقد كان منسف القاعود، وليس من باب يتسع لمروره، و.. رفضت الدخول للسلام على ضيوف.. ها.

قهقهة الموسيو دينارد، قهقه قهقهة هزت أركان غرفة الضيوف في بيت السيد ركنى البندقدار. قهقهة لم يحطم فيها الحرج الذي شعر به الجميع، بل حطم أيضاً الخوف الذي بثه في الجميع منذ وصوله محمولاً على أكف التوصيات التي كان

للتدوب السامي، ووزارة الخارجية بلاحقاته، ويحيطانه بها. قهقه، فحطم الهالة التي صنعها صمته وتحوله وصفرته، ونظرته الثاقبة المروزة. فاضطروا بعد تردد إلى الضحك الجامل لا يعرفون لم يضحكون، ولكنهم ضحكوا، فليس من المعقول ترك ضيفهم الكبير يقهقه وحيداً، وليس من المعقول التحديق به وإربالكه وهو يضحك، فهو ممثل التدوب السامي، وأخيراً هدأت نوبة قهقهته، فتمالك وقال: الدالم على حق. نحن من كنا قليلي الذوق.

استفهم ركني في خجل عما يعني فقال: الدام تفهم البروتوكول خيراً منا جميعاً، فليس من المعقول لسيدة محترمة أن تقبل في بيتها ضيوفاً يصحبون معهم طعامهم.

ثم همس للمحافظ ببضع كلمات، فهمس المحافظ لمدير الناحية التي همس بدوره للموسيو دالاتي، وسرعان ما اندفع الشرطيون يحملون المقاسف والطعام خارج بيت ركني البندقدار.

قال الموسيو دينار: ستكون ضيوف الدالم، وهي الوحيدة التي يحق لها اختيار الطعام الذي ستقدمه لنا.

كانت فاطمة تقف وراء الباب تسمع ما يقال.. لذلك أجابت ركني بسرعة دون أن تنتظر ملاحظته: ولكن وقت الغداء قد فات، وأنا لم أعدّ طعاماً بعد. أخبرهم بأنني أدعوهم على العشاء.

ركني البندقدار الذي أفقده اليوم الطويل من القلق والترقب والانفراج كل تركيز، أو قدرة على المقاومة، أو التحليل اكتفى بالعودة إليهم وإبلاغهم برسالة السيدة فاطمة البندقدار.

ولما لم يكن من المعقول البقاء في البيت ينتظرون إعداد العشاء، فقد تصرف الموسيو دينارد الذي اتضح أنه صاحب الكلمة الأولى في المجموعة على الرغم من وجود المحافظ ومدير الناحية والمدراء والكبراء الآخرين، فقد حدقوا فيه ينتظرون قراره، فقال وهو ينظر إلى ساعته: لقد ارتكبت اليوم خطأين بروتوكوليين الأول، وأشار إلى الداخل حيث الدام بندقدار وها نحن في سبيلنا إلى إصلاحه، أما

الخطأ الآخر _ وتنهد _ فهو أننا لم نزر الحاكم العسكرى للمنطقة، ما رأيكم لو نشرب القهوة لدى الموسيو.. الموسيو.. وسارع مدير الشرطة إلى نجدته: أوغستان سيدى.. أوغستان.

وهزّ الموسيو دينارد رأسه شاكراً على نجدته ثم تابع: بعض القهوة. والثرثرة، وفى هذه الأثناء يكون العشاء قد أُعدّ. انتصب، فانتصبوا فى تكاسل: هيا بنا.

ومضوا يتقدمهم الموسيو دينارد الصحفى المحاط بتوصيات وزارة الخارجية والمندوب السامى.

ابتسم فيليب فى مكر حين أخبره الشرطى بقدوم الزوار لشرب القهوة لديه، ولم تكن الغرفة الكبيرة المعدة لاستقبال الضيوف قد استقبلت ضيوفاً من قبل، فلم يكن من المعروف عن فيليب حب الضيوف، أو حب استقبالهم فى بيته، ولكنه وخضوعاً لتقليد قديم كان قد أعد غرفة ضيوف كبيرة لم يستقبل فيها إلا لوحاته وذكرياته ما قبل الغرناطية، تلك اللوحات الرعوية والحنينية إلى حقول الجيرانيوم واللافاند البرى.

أمر وصيفه، فرفع بسرعة الفناجين والكئوس، وبقايا جلسات تأمله مع ديبوسى فى أيام ما قبل الفرقة الأجنبية، وما كاد الوصيف ينهى عمله حتى سمع الطرق على الباب، فمضى فيليب لاستقبالهم فى زيه العسكرى الكامل والأنيق والذى لا يلبسه إلا فى زياراته لحمص، أو لبيروت.

كان الاستقبال رسمياً، وكان البوردو والقهوة رسميين، وكان فيليب ودينارد يتبادلان نظرات خفية يروز فيها كل منهما الآخر متخفياً تحت كلمات الترحيب الرسمية حين وقعت أنظار دينارد فجأة على القبعة القتالية الألمانية المعلقة على مشجب قريب، فتغيّر كل شىء فيه فجأة.

انتصب من جلسته فى خرق، ومضى إلى حيث القبعة، ثم تمالك نفسه مستجيباً إلى لياقة صارت من طبعه.. فنظر إلى أوغستان مستأذناً، فمضى أوغستان ليقدمها له بنفسه. قال مفسراً وجودها..

- وجدوها فى الصحراء.

- وجدوها؟ من؟

بهذا السؤال الصغير المحدود دخلت فاطمة دائرة الأضواء ثانية، ولكن الأضواء الخفية إذ سيحرص دينارد، والمندوب السامي، والمحافظ، والمفوض الفرنسي، والعليمون جميعاً على التكتم على ما قامت به فاطمة، وعلى تحويل أنظار الصحافة والصحافيين المنتشرين في المدينة إلى فاطمة المغامرة التي أنقذت نفسها وزوجها من الضباع.

تنفس عميقاً وقد اضطربت اليقينيات أمامه: إلام يقوده هذا المراقب المصحح، واضع السيناريو؟ هل سينتقل بفاطمة الآن من فاطمة السنغال، والضباع إلى فاطمة.. ماتاهاري.؟.. وضحك، ضحك في انكسار، ضحك في سخف، ضحك في حيرة: لا. لم يعد الأمر بيدك. لا. ففاطمة المخطوط، فاطمة الورقية لا علاقة حقيقية تربط بينها، وبين فاطمة الحول يا غنام حول، ولا بفاطمة جوعان يدى آكل.. إنها فاطمة أخرى، فاطمة روائية، وهذا من حق واضع المخطوط، من حقه الأدبى والفكرى. فها هو الكاتب فى لعبة لا أدرى مدى خطورتها حتى الآن يحاول إدخالها فى دائرة خارج دائرة الطيش والعفرتة والتمرد الممكن لصبية فى سنها، تنهد وقد أعجبته التحولات التى ما كان يقدر أنه سيقاد إليها، ولكنه _ فكر _ سيعطى للسيناريو زخماً أكبر.

فى ذلك الحين كان الصراع محتدماً حتى حدوده القصوى بين القوى العالمية على من ستكون له القطعة الأكبر من الكعكة المحلاة المسماة بالعالم، ففرنسة، فرنسة روسو ومونتسكيو وروبسبير والكومونة كانت قد وقعت تحت يد ألمانيا النازية، وكان الماريشال العظيم بيتان قد عقد معها الاتفاقيات، وأقام حكومته المتحالفة معها حلف الثعلب والأسد، وفى الوقت نفسه قام جنرال شاب لا حول كبيراً له بإقامة ما سماه حكومة فرنسا الحرة، وكان اسم هذا الجنرال ديغول.

كان فيليب يسمع عن هذه الأمور كلها، ولكنه وهو الهارب من طاعون حرب الأفكار، والمولود ثانية فى الفرقة الأجنبية قرر ألا يصغى لأى من طرفى الصراع فيشياً كان أم ديغولياً، فوجوده فى المدينة المحطمة كان أكثر من مريح. لكن أحزان أوربا والعالم القديم لم تتخليا عنه، فها هى طفلة بريئة تخرج للصيد مرة

واحدة فى حياتها، مرة كانت تكون الأخيرة لولا أن أنقذتها شجاعتها وديناميكية ندر أن توجد لدى الشرقيات. ها هى تحمل له أحزان أوروبا مجسدة فى قبعة حربية لطيار ألمانى أطلقت النار عليه مازحة يوم بوم، ولا شىء آخر، وإذا بالطيار الذى كان يصورها فى سفورها وبندقية صيدها مازحاً يصاب، ويسقط كاميرته على مقربة من السيارة التى كان ركتى قد نزل منها لجمع جثث الغزلان التى شكلت خطاً طويلاً يقود من عمق البادية إلى السيارة. قفزت فاطمة إلى حيث الكاميرا، فقد اعتبرتها هدية من السماء، ولكنها ما كانت ترفعها عن الأرض حتى سمعت وسمع ركتى الذى عاد إلى السيارة منزعجاً من هذه الطائرة التى حامت حولهما طويلاً صوت السقوط العظيم، لقد سقطت الطيارة وراء كثيب قريب، وهكذا اشتعل فضول ركتى، فانطلق بالسيارة إلى حيث صوت السقوط المدوى، وهناك فوجئا بالطيار يتعثر مغطى بدمائه باتجاههما هارباً من الطائرة التى كانت تستعد للانفجار بعد سقوطها المدوى.

عرف ركتى بأن الطائرة ستنفجر، فقد كانت رائحة البنزين تغطى المكان، فصرخ بالطيار أن يبتعد، ولم يكن الطيار فى حاجة إلى مثل هذه النصيحة، فقد كان يتعثر هارباً، ولكنه لم يستطع الهرب تماماً إذ انفجرت الطائرة، وقذف الانفجار به بعيداً ليسقط عند قدمى فاطمة تماماً ملطخاً بالدم وقد أسلم الروح تاركاً قبعته ذات السماعات والأسلاك عند قدميها.

أعولت فاطمة، وارتدّت إلى الوراء، مذعورة من الطيار الذى سقط عند قدميها وهى تولول: أنا قتلته.. أنا قتلته، ويحار ركتى فى تهدئتها، وتهدئة نفسه فقد كانت جثة الطيار القتيل عند قدميها أكثر إرعاباً له منها، ولم يفده شيئاً تصريحه لها بأن من المستحيل أن تكون قد قتلته، فبندقيته التى أشارت إليه بها وهى تهتف: بوم بوم لم تكن تحتوى على طلقات، فلقد نفدت كلها قبل نزوله من السيارة لجمع جثث الغزلان، ولكنها لن تتوقف عن عويلها الهستيرى حتى بعد حملها إلى السيارة بعيداً عن جثة الطيار القتيل.

حاول الابتعاد بالسيارة هارباً من الأمر كله، ولكنها أخذت تصرخ: هل تتركه؟

هل تتركه للوحوش تأكله، وعندئذ ستخطر له الفكرة التى سيعتبرها واحدة من التماعاته الكبرى. سيدفن القتيل، والبادية كبيرة لن تدل عليه، وسيستولى على القبعة الجميلة، ويخفيها إلى يوم يمكن له أن يستفيد منها.

نزل من السيارة، وتركها تخفى وجهها بيديها شبه مغمى عليها، ثم قام بدفن الطيار تحت كومة من الحجارة بعد أن حمل القبعة إلى تابلوه السيارة، وحين يشغِّل السيارة مبتعداً عن القبر المرتجل ستخطر له الفكرة: سيأتى يوم تستفيد فيه من هذه القبعة. ستحدث أولادك عن الطيار المستعمر الذى قتلته.

سيتخلى عن بقية الغزلان، وسيطير بالسيارة إلى مدينة العمد المحطمة عائداً، ولكن رحلته لن تطول، فسرعان ما يقع ضحية الحادث الذى كاد يودى به وبفاطمة لولا جرأتها التى ستجعلها حديث الصحف لزمن طويل، فاطمة الضباع ومنقذة زوجها من الموت فى الصحراء.

هاه.. ما هذا.. ما هذا.. ما الذى يحصل. بدأ الأمر يتحول إلى ما يشبه القصة البوليسية، أو إلى لعبة تجميع القطع لصنع لوحة. ما هذا؟ كان السيناريو أكثر معقولية ومنطقية قبل هذا التحول المفاجئ، فما الذى حرفه بهذا الاتجاه. السيناريو يقول إنها أشارت إليه مازحة وهو يصوِّرها سافرة فى السيارة تهتف مثل الكابتن فيليب: بوم بوم. فهل تكفى هذه البوم بوم لإسقاط طائرة وطيار؟ حسن. فإن لم تكن من قتله. فمن قتله؟ والبادية مكشوفة لهما، ولا طائرة، ولا طيارين، ولا قوات دفاع جوى قريبة.. أف.. أكاد أصاب بالدوار. هذا الكاتب يتلاعب بى. السيناريو يفلت منى. يجب أن أعود إلى السيناريوهات الثلاثة الأخرى لأرى إن كان هناك ما يشير إلى مثل هذا التحول. إن كل الإشارات لا تزيد عن الحديث عن علاقتها بشخص اسمه بلومبرغ، أعوذ بالله، أيمكن إذن أنها قتلت هذا الطيار؟ وأن حكاية البندقية نافدة الطلقات كذبة؟ أيعقل أنها قتلت هذا البلومبرغ؟.. آه.. لا.. كان كل ما قرأت يمكن قبوله وعقلنته وتصديقه عن فاطمة الحوِّل يا غنام حوِّل. كان يمكن لها أن تقوم بكل ما سبق. يمكن لها وهى الصبية المتمردة المدللة أن تعلن الإضراب عن الخروج من البيت ما دام فى البلد سنغالى.

ويمكن لها أن تَعشق وتُعشق من هذا المسمى معاوية، ويمكن لها أن تقود

السيارة بركنى وتنقذه من الضباع، ولكن طيار، وقبعة حربية، وكاميرا، وموسيو دينارد، ومحافظ.. أعوذ بالله.. يبدو أنَّ الخيال ينجرف كثيراً بهذا المصحح _ المراقب _ الكاتب الذى لا بد أن يعلن عن نفسه أخيراً.. هل أبقى على هذا الجزء إن أردت تنفيذ السيناريو فيلماً يتحدث عن المدينة الميتة مخلِّداً ذكرى أيام السلام العالمى الهلنتستية؟ أم أسقطه من حسابى.. ماذا أفعل.. ماذا أفعل؟.

لم يفاجأ فيليب كثيراً بمعرفة الموسيو دينارد بوجود القبعة الحربية. لكن المفاجأة كانت لدينارد إذ لم يخطر له أبداً بأنها كانت لدى فيليب، ولم يبلغ عنها، فقد رأى القبعة فى الصور التى صوَّرها الأجوتان ميشو للسيارة، ولركنى الجريح، وللسيارة مهشمة المقدمة، وكان الأجوتان ميشو الذى كان يعمل سراً للمكتب الثانى قد أرسل بهذه الصور كاملة، فلما وصلت صورة السيارة لاحظ خبراء المكتب الثانى بعد تكبير الصور فى وزارة الدفاع القبعة الحربية الألمانية، وكان الفون بلومبرغ ابن ماريشال الجو الألمانى فى رحلة من مطار حلب إلى بغداد لتقييم نوع وكمية المساعدات الواجب إرسالها إلى الثوار العراقيين ضد الإنكليز، الكيلانى والصباغ ومجموعتهما، ولكنه وصل بطائرته إلى بغداد فى نزعه الأخير، وما إن حط بطائرته حتى أسلم الروح. وقد اختلف الباحثون والمراقبون طويلاً فيمن قتله. فلما وصلت صورة سيارة الحلاق وفيها ركنى وفاطمة أيقنوا أن هذه القبعة للفون بلومبرغ، فكان أن أرسلوا بالموسيو دينارد الصحفى الكبير والمتعاون مع المكتب الثانى الفيشى للتحقق من الأمر والتغطية عليه قبل وقوع الأزمة مع الحلفاء الألمان.

أعوذ بالله. يبدو أن فى الأمر شيئاً من منطق.. منطق داخلى خاص ولكن.. لا.. هل يمكن للقلب الإنسانى أن يحفظ كل هذه الأسرار والخفايا.. هل يمكن لهذا الكهل المتجهم المتأنى فى مشيه خيفة السقوط والكسر، فقد كان أشد ما يخافه أن ينكسر حوضه الكهل، ويقعد كما حدث لعمه، وجدته، أيمكن لمثل هذا الرجل أن يكون له مثل هذه الحياة الحافلة والتأثير حتى فى التاريخ العالمى.. أيمكن لمثل هذه المرأة الحنون التى لا يذكر منها إلا شعرها الطويل تمشطه فيغطى وجهها مشكلاً حجاباً من شعر، ثم تمازحه مدعية أنها الغول، وبينما يتماسك رعباً تفاجئه

بصرخة: يدى آكالك... وقبل أن يهرب تكون قد انقضت عليه عاطفةٌ ومداعبة فى بطنه. أيمكن لمثل هذه المرأة أن تكون قد مرت بمثل هذه التجربة؟ أعوذ بالله. ها أنذا أكرر نفسي: ما أقل ما نعرف عمن نحب.. ترى أيمكنني أن أعيد صياغة مقولة الصوفي: شدة القرب حجاب، شدة الحب حجاب.

احتجَّ فيليب بأن القبعة لم يكن بها ما يدل على هوية صاحبها، وفجأة سأل دينارد: والكاميرا؟.. فوجئ فيليب، فوجئ حتى الصعق، فهو لم يجد كاميرا، ولم يعرف بوجود كاميرا، ولكن دينارد الذى صحبه إلى غرفة مكتبه الصغيرة المعتزلة أراه صورة السيارة، والقبعة، والكاميرا على التابلوه الأمامي. قلقاً فيليب: لم أعرف بوجود الكاميرا.. و... ربما ظننت أنها لزكى أو لفاطمة.

ولكن دينارد قدَّم له صورة مكبرة للكاميرا. كانت كاميرا متطورة مزودة بعدسات زوم خاصة غير موجودة فى الأسواق. قال إنهم يريدون الكاميرا. وهنا فهم فيليب سبب الإصرار على لقاء فاطمة، وسبب الإصرار على اللقاء الودى معها، فقد خاف أن تخفيها، أو تنكرها. قال الموسيو دينارد: كيف ترى. هل ستعطينا الكاميرا؟ فقال فيليب فى ثقة: ما قمت به حتى الآن معقول.. عشاء، ولقاء، وصور.. وعطل مفاجئ فى الكاميرا، وسؤال إن كان لديهم كاميرا بديلة. وستعيرنا الكاميرا إن كانت لديها، فهذا حق الضيف على المضيف فى هذه البلاد.

أعجب دينارد بالفكرة ثم تذكر: ترى.. هل حمضت أو طبعت الفيلم. ولكن فيليب نفى إمكانية ذلك، فليس فى المدينة ستوديو للتحميض والطبع كما لم يسافرا خارج مدينة العمد المحطمة منذ يوم الحادث.

سمعا صوت المحافظ ومدير الناحية يتذمران فى لطف يتشكيان من إهمالهم فى طريقة شكرهم الصارخة للوصيف الذى قدم لهم القهوة، فعادا إليهم، وأنصتا فى لطف إلى عبارات الإعجاب باللوحات والمفاجأة بأن صديقنا الكابتن رسام أيضاً.

كان تقديم العشاء تحدياً حقيقياً لفاطمة استعانت لإعداده بكل الجارات اللواتى كنَّ على استعداد لتقديم كل مساعدة ممكنة لإنجاح هذا العشاء الامتحان لكرم، وحسن ضيافة المدينة، واستعانت بمخزونها من القاورما، فلم يكن هنالك

وقت للنبح وإعداد اللحم الجديد، استعانت بالبرغل المخزون، وبالخضار المخزونة مجففة ومكبوسة، وهكذا حين دعا ركني الضيوف إلى العشاء بعد أذان العشاء مباشرة كان العشاء مفاجأة غير متوقعة للمحافظ أو لمدير الناحية، ولا حتى لركني البنبقدار، أو الموسيو دينلرد، كان هناك الكبب بأنواعها، والمحاشي على اختلاف أصنافها، واللحوم المشوية والسلطات والشوربات.

وقال المحافظ لمدير الناحية ضاحكا: أعتقد أن المدينة ستؤرخ أحداثها منذ اليوم بعشاء الشامية، وضحكوا، وكان هذا الضحك المكافأة الكبرى لفاطمة التي كانت تتنصت وراء الباب.. رفع العشاء، وكان على ركني إقناع فاطمة بالظهور أمامهم.. كان الأمر مفاجئة فقد كان الاتفاق على العشاء، ولكن.. رجاها، فهم ينتظرونها والصحفي الفرنسي الكبير يصر على سماع تفاصيل مغامرتها في البادية، والمحافظ ينتظر، ومدير الناحية و.. فيما بعد ستحدثني متنهدة: لست أدري كيف واتتني فكرة هذا التحدي. أكانت رغبة دفينة قديمة، أم أنها تحدي اللحظة؟. قالت: إن أسفرت أمامهم بناء على طلبك، فلن أحتجب إلى الأبد.. تردد قليلاً، ثم قال: المهم أن يرضوا الآن.. ثم تذكر: نحن لم نر الطيار، ولا مقتله أسمعت؟

وهزت فاطمة رأسها موافقة فقد كان المشهد وعواقبه أكثر إرهاباً لها منه..

رفع سلمان رأسه.. تخيل المشهد.. أخذ بينيه كمخرج.. جرّد الغرفة المضاءة بالمصابيح واللمبادير ات من أثاثها وأضوائها الكهربية، وستائرها، ثم تراجع لا.. فقد تحدث فيليب عن الستائر البيض المطرزة.. لا بد أن لديها ستائر بيض مطرزة أيضاً. أضاف أثاثاً مرتجلاً من دواوين وكراسي، ثم تراجع: هل جلسوا على الأرض يتعشون على سجاد وصولني وتوطئايات؟ ولكنه رفض الفكرة مباشرة: لا.. ففاطمة المعتزة بمدنيتها لا يمكن أن تتنازل عن مظاهر مدنيتها.. ولكن.. بالطبع لن تؤثث البيت المؤقت بأثاث ثمين.. ستكتفي بدواوين وكراسي من الخيزران، وربما كرسيا موريس أو ثلاثة.. وطاولة متعددة المستويات، فهي ليست طاولة واحدة. إنها مجموعة طاولات ضمت إلى بعضها، وغطيت بمفرش كبير يغطي تنوعها واختلاف ارتفاعاتها. أما الأطباق، فلا.. لا بد أنها كانت من الصيني والمالقي، وربما

استعير كثير منها من الجارات، فلا يمكن لفاطمة اللبقة أن تقدم العشاء لمثل هؤلاء الضيوف في الصحون النحاسية.. تخيلُهم تحتَ أضواء الفوانيس الكازية، ووجوههم ترتعش تحت ارتعاشات النور وهي.. تدخل

وسيقول الموسيو دينارد للكابتن أوغستان: أأنت متأكد من أن السيدة سورية؟.. ولما تنحنح فيليب إيجاباً تابع دينارد في إيجاب: كان دخولها جليلاً، دخولاً.. شبيهاً بدخول الأميرات المحترفات حضور حفلات الاستقبال والرقص.. ثم كمن يجيب على اعتراض: لا.. لا.. لا.. لم يكن الأمر أمر ماكياج، أو حلي، فهي لم تكن تضع أياً منهما، بل الهيبة.. الإطلالة، وقال فيليب بصوت داخلي: الترفع الطبيعي.

ثم قال دينارد: كانت لحظة طيبة لحظة رضيت باستقبالنا. ألها عادة بمثل هذه الحفلات والحضور؟

ولم يردَّ فيليب، فقد كانت المفاجأة لديه أكبر من مفاجأة الموسيو دينارد. وحين يأوي إلى سريره ليلاً سيتساءل: تراها شهدت فيلم الملكة كريستينا؟.. أعوذ بالله. كأنها كانت تقوم بدور غريتا غاربو في الملكة كريستينا.

بعد حضور المدام فاطمة البندقدار، وقيام الحاضرين لتحيتها، وانحناءها في لطف ترد تحيتهم دون مصافحة، فلم يكن هذا من الشرط تم تنفيذ السيناريو المتفق عليه، فقام الموسيو دينارد بتصويرها وتصوير ركني والحاضرين، وفجأة تعطلت الكاميرا، تمتم الموسيو دينارد لاعناً ومؤنباً وحاول إصلاحها، ولكنها اصرت على التعثر، فنظر من حوله في رجاء: ألدى أحدكم كاميرا.. رجاء.. هذه اللحظة المباركة يجب أن تخلد. أرجوكم.

وخاف ركني من التصريح بوجود كاميرا الطيار لديه كما خافت فاطمة. وهنا اضطر فيليب إلى التدخل: أعتقد أن الموسيو بندقدار لديه كاميرا. لقد رأيتها معه يوم الحادث، يبدو أنه كان يصور بها البادية والغزلان. ثم توجه إلى ركني في لطف: أنت هاوي تصوير.. أليس كذلك.

وصمت ركني مرتبكاً، فما خطر له ببال قط أن تنجرف الأمور لتصل إلى

الكاميرا، ولكن دينارد تابع مهاجماً: سأرسل إليكم بكاميرا خيراً منها. صدقني، ثم أضاف ضاحكاً: والموسيو المحافظ يكفلني بهذا. أليس كذلك يا سيدي؟.

وهنا تدخلت فاطمة في جلال حين قالت: نحن لا نريد كاميرا جديدة يا سيدي. لدينا كاميرا عتيقة، وستقدمها هدية للموسيو دينارد، بمناسبة زيارته المدينة.

كانت اللفتة ألطف من احتمال الموسيو دينارد، ولكنه قبلها شاكراً.. ستأتي له بالكاميرا، .. وسيحاول تشغيلها، ولكنه سيلاحظ أنها مكسورة، وسيتظاهر أمامهم بأنه سيصور، وما كان يصور، فقد كانت استعادة الكاميرا ولو مكسورة هي الشيء الأهم.

سيسافر الموسيو دينارد، وسيسافر السيد المحافظ، وسيسافر الصحفيون مع صورهم، ومقالاتهم، وشكوكهم، وحيرتهم بعد أن جمعهم السيد المحافظ، وأفهمهم أن كل صورهم، وكل مقالاتهم لن تذكر شيئاً عن زيارة المحافظ، أو دينارد للمدينة، وأنه سيصدر تعليمات بملاحقة، وسحب رخصة كل صحفي يشير إلى هذه الزيارة.

بعد أسبوعين من سفرهما سيصل رسول خاص إلى فاطمة يحمل مجموعة كبيرة من الألوان والريش، ورسالة رقيقة من الموسيو دينارد يشكرها على ضيافاتها.

ما الذي جعل الموسيو دينارد الصحفي الفيشي المتعاون مع المكتب الثاني يلحُّ، ويصرُّ هذا الإصرار على استعادة الكاميرا.. توقف يفكر.. لهذا الكاتب المصحح للسيناريوهات المقدمة حتى الآن عقل بوليسي.. إنه يتعمد الحبكة المتوترة، ثم يقطع كمن يصر على الإمساك بقارئه مشدوداً لمتابعة القراءة للوصول إلى حل.. وخطرت الفكرة فجأة.. لا بد أنه الفيلم.. ولكنه ما الذي يمكن أن يوجد في فيلم يتسبب بقتل الفون بلومبرغ، ولكن هوه.. على مهلك. ولفون بلومبرغ جسدان؟ الروايات كلها تؤكد أن فون بلومبرغ وصل إلى بغداد وهو يموت، ثم مات لحظة وصوله، فمن الذي قتله؟ فاطمة؟ إن كانت قد قتلته، ومن هو الدفين تحت الحجارة.. لا.. الكاميرا ليست لبلومبرغ. فلمن إذن؟.. أف.. هذا الكاتب متلاعب كبير. لقد تلاعب بي أنا المحترف.. تلاعب بي حتى جعلني أقتنع بحدوث ما يصعب حدوثه.. امرأة

تشير ببندقية خالية على قول زوجها من الرصاص وتقول بوم بوم فتسقط الكاميرا، ثم تسقط الطائرة، ثم يأتى عميل للمكتب الثانى فى باريس لا يطلب إلا الكاميرا.. ما الحكاية؟..

راز الأوراق المتبقية.. لقد انتهى المخطوط أو كاد.. ولا بد له أن يقدم الحل.. هذه هى شروط الرواية البوليسية.

كان حصاناً جمع كل الجمال الذى يتمناه عشاق الخيل ومربو الخيل للحصان الأمثل، الغرة فى الجبين، والتحجيل فى القوائم، سواد الشعر اللامع، راز ارتفاعه بسرعة: يا سلام.. إنه حوالى المتر والنصف، أما المطبق حيث يتصل الرأس بالرقبة المنحنية كقوس.. فكان الكمال المطلق، الطول المناسب، والساقان النحيلتان، والأرساغ القوية، والمتن، والصلب، والذيل الطويل النظيف، والفم، والأنف، والعينان، كان الجمال المجسد.. أعوذ بالله، رفع شفته العليا يتفحص عمره كان الحصان قارحاً، كيف احتفظوا به حتى الآن، كيف لم يشتره تاجر حموى، أو سمسار طرابلسى، كيف استطاعت هذه العشيرة إخفاءه حتى اليوم وهو على هذا الكمال..

كان عارياً من كل شىء، من السرج والرسن، ولم يبقوا عليه إلا حبلاً يربطه من رقبته إلى الوتد.

قرر ركنى وهو الخيَّال ابن الخيَّال أن يجرب هذا الحصان الذى مضت سنين وعقود منذ أن رأى حصاناً فى جماله، وما إن فك القيد المشدود إلى الوتد يريد ركوبه عارياً حتى رآهم يركضون: ويين.. وين يا معلم. والتفت إليهم يطمئنهم. أنا ركنى البندقدار مدير المال، وكبير العدادين.. التفت إليهم يعرِّفهم بنفسه، فلعلهم نسوا أنه تغدى معهم، وأنه من هو، وليس لص خيل، ولكنه فوجئ بهم يندفعون إليه ينترون الحبل من يده فى تجهم، ويعيدون ربط الحصان الأدهم إلى الوتد، وأحس باثنين يقودانه فى لطف خشن إلى الخيمة التى تغدى بها مع كبار العشيرة، وفيها استأذن منهم قبل قليل ليفرغ مثانته حين فوجئ بالحصان..

كان مرتبكاً وغاضباً ومحرجاً وخجلاً، اجتمعت.. هذه العواطف فيه دفعة واحدة، ما بين ابن الحكومة المدلل، ومدير المال النافع الضار الذى لا يعامل بهذه

الطريقة، وما بين الخجول المرتبك الذى أمسك به.. وكأنه لص خيل عادى. صحيح أن الأدهم ثمين، ومن الواضح أنه ثمين من سلالة نادرة تكفى النظرة الأولى عليه حتى يحكم الجاهل بالخيل أنه حصان نادر، ولكن هل اعتقد هؤلاء الحمقى للحظة أن مدير المال ركنى البندقدار يمكن أن يكون لص خيل.

قدم له المضيف بعد جلوسه فنجان قهوة تحية، ولكنه رفضه فى جفاء، وعرف المضيف وكبار العشيرة أنهم قد ورطوا ورطة كبيرة، فهذا الحضرى الذى أبعدوه عن الحصان بهذه الطريقة قد جرح، وسينتقم، وانتقام الحضر القادرين قاس سيؤذيهم فى أغنامهم وثروتهم، وسيفرض عليهم الغرامات التى لا يطيقونها، ولن يجد من يصده، فهو المفوض وصاحب القرار الأول والأخير.

صمت، وصمتوا، وتحرك ركنى فى مكانه كمن يستعد للمغادرة، وعرفوا أن المغادرة مغاضبة، فتصرف الشيخ بسرعة، وهمس لواحد من أتباعه، فانسحب من الخيمة بسرعة، وعرض الشيخ على ركنى القهوة ثانية عارفاً أنه سيظل الرافض، ولكنه أراد كسب الوقت، وقد كسبه فى المحاجّة والإصرار، فقد سمع الجميع بعد قليل صهيل الحصان، فخرج الشيخ على عجل، وخرج من كانوا فى الخيمة، ووجد ركنى نفسه يلحق بهم دون دعوة. كانوا يشكلون هلالاً قريباً من الخيمة، وكان نجم الهلال الحصان الأدهم الأغر المحجل وقد أسرج، وزين بالحياصات والشناشيل الفضية، وابتسم ركنى فى سره: يا لها من مصالحة مكلفة. سيهدونه الحصان، ولن يتركوه يمضى مغاضباً. يا سلام.. ما أجمل أن يكون المرء ابن حكومة، وحكومة قوية قادرة على النفع والضر.

ابتسم منتعشاً كأحسن ما يكون الانتعاش لمدير مال البادية وسيد عدادى الغنم، وكبير فارضى الضريبة على الصوف والسمن والإنتاج الحيوانى. وكان يمكن أن يستمر فى هذا الحلم لو لم ير فتى أسود. لم يكن فى حاجة إلى ذكاء كبير ليعرف أنه واحد من عبيد العشيرة الصغار، وكانوا يسوقونه إلى حيث الحصان، ولكن ما يقولون لم يصل إليه. فالمكان بعيد نسبياً، وتداخلات الأصوات من حوله كانت تحيل كل صوت إن لم يكن لصق الأذن إلى هريس أصوات.

ألحُّوا، ودفعوا الغلام، فاندفع أخيراً، وقد بدا الإصرار على وجهه، كان فتى

رشيقاً صغير الحجم ممن كانوا يُعدُّونهم خصيصاً ليكونوا خيالة السباقات البدوية وما أكثرها.

قفز إلى ظهر الحصان، أحكم شد ساقيه على السرج، ومن آخر المشهد رأى ركنى امرأة سوداء تبكى وتنتف شعرها، ولم يفهم ما يجرى، ولكن الحصان كان يتحرك.. يتحرك فى عصبية بين سائسيه المتوترين.

وأخيراً تقدم الشيخ من الغلام الأسود، وقال شيئاً ما، كان وعداً ما، فقد بدا البِشر على وجه الغلام، فرفع ذراعه يحيى المرأة السوداء البعيدة، ثم همز الحصان، فانطلق تحته كالعاصفة.

حصان سباق أصيل، فكر ركنى، إنهم يرونى مهاراته كى أحسن العناية به، عشيرة طيبة. سأذكر هذه الهدية طويلاً، ولكن الحصان وراكبه ما إن غادرا المخيم حتى أخذ الحصان يضرب الهواء بقائمتيه الخلفيتين، كان من الواضح أنه يريد رمى راكبه، ولكن الفتى الخفيف، المدرَّب، الماهر كان متشبثاً بالزمام، بالرسن، بكل ما يثبته إلى ظهر الحصان.

كان الحصان أقوى من الغلام بما لا يقاس، فأخذ يقفز فى عنف بقائمتيه الأماميتين، ثم بقائمتيه الخلفيتين، كان من الواضح أن الحصان قد فوجئ بأن راكبه يعرف ما يراد له، فاستعدَّ له بهذا التشبث. تخلى الحصان عن القفز إلى الوراء وإلى الأمام بقوائمه ثابتاً فى المكان، وقد عرف بأن خياله متمرِّس، فانطلق فجأة كالمجنون يدور فى حلقات مندفعاً كالريح، ثم توقف مشرئباً بقائمتيه الأماميتين، وكأن الغلام أصيب بالدوار، فقد هزَّه الحصان فجأة وأسقطه عن ظهره.

ركضت العجوز السوداء مولولة، وركض النساء والغلمان والفتيان، فقبض بعضهم على الحصان الذى لم يحاول الهرب، وانقض بعضهم على الغلام الأسود يفحصونه ليكتشفوا كما كانوا يعرفون أن رقبة الغلام قد وقصت، وأن الحصان قد أضاف إلى ضحاياه كما سيحدثون ركنى فى الخيمة بعد قليل ضحية جديدة.

عرف ركنى لماذا أبعدوه عن الحصان بهذا الجفاء، وأدرك أنهم قد أشفقوا عليه

وهو الحضرى من الحصان الذى لم يستطع مروض ترويضه وكان تحدياً لكل مروضى البادية من سادة الخيل الذين أعلنوا إخفاقهم واستسلامهم أمام الشرس لم يروَّض صغيراً.

على طريق العودة إلى مدينة المسوخ كما كان ركنى يسميها، فهؤلاء الناس الذين مسخهم الله حجارة، والذين تنشق عنهم الرمال بين يوم وآخر لا يمكن أن يكونوا أصناماً، فالأصنام كما يعرف للعبادة، أما هؤلاء الرجال العراة بأعضائهم الصغيرة الذابلة، وأنصاف الكساة يحملون كؤوساً يشربونها وأمامهم صحون وفواكه قد تحجرت كما تحجروا، فلا يمكن أن يكونوا إلا ممسوخين من أولئك الذين حفلت كتب السير فى الحديث عنهم، وكيف مسخهم الله عقوبة على فسقهم وكفرهم إلى حجارة.

تنهد.. يا إلهى. ألم يرتكب هؤلاء الناس. من حولى من الجرائم والآثام أكثر ممن مسختهم، فلم لم تمسخهم كما مسخت الأمم التى خلت وحدثونا عن غضبك، وما فعل بهم؟.

كان ركنى فى واحدة من حالات الوجد، فحين رأى الموت على شكل حصان أسود، ورأى كيف أنقذه حظه الطيب فقط من الموت دخل فى واحدة من تلك الحالات التى يعرفها، والتى كثيراً ما تنتابه، حالة من الوجد والقرب من الله، واستصغار الدنيا، ونسائها وأموالها، وسياراتها، وصيدها، ورصيد بنوكها، فما قيمة كل هذا أمام الموت الذى يداهم، فتتخلى عن كل شيء وتمضى، وذكر الحكمة الشعبية: الأكفان لا جيوب لها؟.

غمره الوجد حتى تمنى لو يوقف السيارة جانباً ويصلى إلى الله، يصلى عن صلوات كثيرة أهملها، يصلى إلى الله طالباً غفرانه عن كل ذنب ارتكبه، أو فكر فى ارتكابه، يصلى إلى الله.. ..

وهاجمه المطر.. الرذاذ، فالهطل، فالوابل.. وأخيراً عجزت الماسحات عن دفع الشآبيب عن الزجاج الواقى، فهدأ من سرعته، وفكر: أعوذ بالله.. ضربتان تذكران بالموت فى يوم واحد. كان يحاذر انزلاق العجلات، فخفف من السرعة حتى الحد الأدنى، وكان يخاف أن تضلله العتمة، فتسوقه خارج الطريق المزفت ليغطس فى

الرمل، فهو يعرف أنه إن انحرف عن الطريق المزفت، وغطس فى الرمل الموحل، فلن يخرجه من مغطسه هذه المرة نفوف الخشب، ولا مناورات المهارة التى يعرفها.. بل هو.. الرعب والضباع.. وانتظار الموت.

هدأ من سرعته يستشرف نوراً من مدينة العمد المحطمة، والمدينة بعيدة والماسحات تقشط الماء عن الزجاج، ومصابيح السيارة لا تنير إلا بضعة أمتار. لماذا فعلتها اليوم؟.. لم لم أكتف بالعدّاد يمضى إليهم؟. ما الذى أغرانى بالخروج إلى هذه العشيرة، وكان العداد أكثر ذكاء منى فبات لديهم ورفضت البيات متحججاً بوجوب العودة إلى.. فاطمة؟.. صحيح أن فى خلفية السيارة صفيحتا جبن، وظرف سمن، وصفيحة قشطة، ولكن.. كان بالإمكان التلميح فقط إلى واحد من العدادين لتكون كلها لدى، ولكن.. أف. لقد زادت عصبيتها، وتتالت شجاراتها، ومنذ ذلك اليوم المشؤوم الذى أعلنت فيه أمام الجميع، المحافظ ومدير الشرطة، ومدير المساحة، والحاكم العسكرى هذا الذى يسمونه بالشيطان، والصحفى الذى لن أعرف سبب اهتمامهم به إلى هذه الدرجة.. منذ أن استجبت لتحديها حين قالت: إن أسفرت اليوم أمام المحافظ والصحفى الفرنسى، فلن أعود إلى الحجاب إلى الأبد!.. فقبلت التحدى.. ورمت الحجاب، وخرجت إليهم، وتكتكت الكاميرات، واشتعل فلاشان، ولزمنى العهد الذى قطعته على نفسى.. ولكن ما إن راحت السكرة، وسافر المحافظ، والصحفى الفرنسى، وصار على مواجهة أهالى مدينة العمد المحطمة وهم يحدقون بعيون تستحق الفقأ فى امرأتى وزوجتى، وغريتا غاربو هى حتى أحسست بمدى الخطأ الذى ارتكبت، فمنعتها من الخروج من البيت، وبدأ الشجار، وبدأت العصبية، وصار على أن أهرب إلى مضارب البدو وقرى الفلاحين النائية، أتحجج بالتفتيش على العدادين، وأضمر الهرب من الصدام مع المرأة التى أعرف مبلغ صرامتها وعنادها، وأترك لها الخروج من البيت كما تشاء، ولكن بعيداً عن وجودى فى المدينة، ثم وجدت الحل فى شراء سيارة صغيرة مستعملة وتركها تتنقل بها كما تشاء غير عارف أنى أقدم للصحافة مادة جديدة عن فاطمة لم أعرف بها حتى قرأتها فى صحيفة حلبية تتحدث -وقد زينت المقال بصورها فى السيارة- عن فاطمة التى قهرت الضباع، وقهرت مدينة

العمد المحطمة بسواقتها سيارتها دون عون من رجل فى مدينة لم تسمح لامرأة بالمشى سافرة فى شوارعها.. منذ تحطم الأعمدة.. و.. انهيار المعابد.

لاحت أنوار المدينة الضعيفة ترشح عبر أمواج المطر، لاحت ترتعش، وتغيب، وتَعِد، وتخلف، فتلوح وتظهر، ولكنه لم يعد يخاف، فالطريق لا تقود إلا إلى المدينة. وها هى المدينة تلوح بأصابعها داعية مداعبة. لم يزد من سرعته.. فما زال الخوف من خداع طرقات الصحراء قوياً، كانت الأمطار تتزايد مع كل خطوة فى اتجاه المدينة، وكانت الحفر تهدهد، وتهدد مع كل اقتراب من المدينة، ولكن المدينة فى آخر الطريق، ولا خوف.

اكتشف وهو يقترب أن أضواء الشوارع التى تنيرها البلدية غير مضاءة، ففهم لماذا لم تكن المدينة شديدة الوضوح.. اقترب، واقتربت البيوت المضاءة بقناديل، ومصابيح كاز، وبعض المصابيح الكهربائية، فلم تكن أطراف المدينة قد منحت نعمة الكهرباء. كان يتقدم ويسترخى مطمئناً، فلقد نجا من فخ البادية وانزلاقاتها، وضباعها، وسيولها، وما كاد يذكر كلمة سيول حتى انزلق فى واحدة من الحارات الواطئة ليكتشف أنها كانت مستنقعة بماء وصل بارتفاعه إلى داخل السيارة، فعاد إلى الدعاء ألا تنطفئ السيارة، وتفضحه، فليس هذا وقتها، واستجابت السيارة، فخرجت من الحفرة إلى حارة، فحارة، وكانت الحفر المستنقعة أكثر من الطرق السوية، ولكنه لم يصل إلى بيته المضاء الدائم بمصباح كهربائى يعلو مدخله، فحدس أنه قد تجاوزه، فعاد، ولكن لا مصباح، أدار مصابيح السيارة إلى جدران وأبواب ما يفترض أنه البيوت، وكانت المفاجأة، الصدمة، كانت خمسة بيوت متجاورة قد هبطت إلى الأرض، فقد كانت فى مجرى السيل، لا سقوف، ولا جدران، ولا أبواب، بل كتلة طينية كبيرة متراكمة أضاع ملامحها المطر.

شهق.. وفاطمة؟.. ورؤوس الغزلان المحنطة، وأثاث البيت؟ أعاد التفتيش بأضواء السيارة الكليلة. قال: لعلى أخطأت الطريق. ولكن. أهناك من يخطئ طريق بيته، ولم يكن قد أخطأ، ولكن مطر الصحراء فاجأ البيوت الطينية ليومين طويلين، سقط فيهما نصف المدينة محولاً إياها إلى كتلة واحدة اختلط فيها طين السقوف بطين الجدران المزق ببعض أعمدة الخشب التى نتأت كأشواك سمكة أحرقتها

الشمس وأكلتها الديدان، فنتأت أشواكها عبر مزق الجلد.

لم يستطع النزول للتأكد، وممن يتأكد، وكان المطر وابلاً، قال: أمضى إلى النادى لعلى ملاق فيه من يحدثنى عن فاطمة.

فى النادى الفرنسى المبنى من الحجر، الصامد على المطر. رآهم.. كانوا جميعاً هناك، مدير الناحية، ورئيس الشرطة، ومدير الطابو.. فقد كانت بيوتهم جميعاً قد أسقطها المطر. استقبلوه باهتمام كبير، فلسبب ما اعتقدوا أن البادية والسيول قد ابتلعته، وإلا، فكيف تأخر عن العودة.

همس من حلق جاف: وفاطمة؟

ورأى البشر على وجوههم، فاطمأن..

كان بيت فيليب أوغستان المبنى من الحجر والقرميد والمحاط بباحة كبيرة معدّة لاستقبال العربات، أو السيارات، والمسوّر بسور من حجر وحديد مدبب لمنع المتسللين.

كان بيت فيليب أوغستان بيت قائد الحامية الفرنسية المبنى متحرزاً ومستعداً لهجمات كثيرة، البدو، والمتمردين، و.. المطر. وكان العدو هذه المرة المطر، وكان البيت من البيوت القليلة التى صمدت، فلجأ إليها الكثيرون ممن شردهم السيل وانهدام البيوت. طرقوا بابه، فانفتح، طلبوا اللجوء فألجئوا، ولكن فيليب سأل فجأة.. وفاطمة؟ فقد كان يعرف برحلة السيد بندقدار التى عطلت جولة البوكر. ولما لم يتلق الجواب، فقد ركب سيارته، ومضى يبحث عنها، وقبل أن يصل إلى بيت السيد بندقدار وجدها تتعثر على الطريق.. لقد نجت، ولكنها لم تعرف إلى من تلجأ، وماذا عليها أن تصنع؟

وحملها إلى بيته، فلم ترفض.. وهناك رأت الرسم على الجدران وعلى القماش، وعلى مسطح يمكن أن يرسم عليه.. ودخلت عالم الرسم.

حين وصل ركنى إلى بيت فيليب الذى لم يكن له بزيارته عادة، ولكن عذره لاقتحام البيت هذه المرة كان قوياً.. فدخل، ولم يكن الباب الخارجى مغلقاً.

حين دخل كان النساء والأطفال، وبعض الرجال مستلقياً هنا وهناك، وفى كل

مكان مسقوف، وكان بعض الجند يقدمون إليهم بعض الشوربا والخبز الجاف المعد للأزمات. تجاوزهم جميعاً، فقد كان يعرف بأن فاطمة لا يمكن أن تكون فى مسقوفات الباحة، ولا فى الإسطبل، ولا فى مرآب السيارات.. وهو يعرف ما تعنى فاطمة لسكان المدينة، فهى من جاء إلى المدينة بالصحافة وهى من جعل المحافظ يأمر بنشر المصابيح الكهربائية فى الشوارع على نفقة البلدية، وهى من توكب سيارتها فى شوارع المدينة سافرة. كان عليه أن يسأل عدداً من اللاجئين، وعدداً من الجند، وأن يفتح عدداً من الأبواب حتى يصل إلى أوغستان.. وفى مقابله على مقعد قريب فاطمة المتوترة، وكان يرسمها، وكان.. الغضب المجنون، ولكنه الغضب المكبوت فمن يجرؤ على إبداء غضبه أمام سيد البر كله، الرجل الذى هشم شوكة البدو، وطوّعهم، الرجل الذى فرض الهدوء والأمان على إقليم هو قلب سورية يمتد من حمص وحتى الحدود العراقية.

ارتبكت فاطمة لمرأى ركنى الواقف بالباب، وكانت تجلس فى لباس البيت أمام هذا الكافر المسمى بالشيطان، فحاولت القيام، ولكن فيليب أشار لها بهدوء ألا تتحرك، فلم تتحرك. وكان على ركنى أن يطيع أيضاً، فيقتعد المقعد الأقرب، وينتظر.

أشار له فيليب بريشته ليصب لنفسه كأساً من الرم القريب، فلم يتردد وكان البرد والبلل قد هدّأ قواه، فشرب الكأس جرعة واحدة، ثم صبَّ آخر، وبينما كان الكحول يفعل فعله كانت الغيرة والغضب والإحساس بالجرح تنغل وتنخر فيه.. وكان لا بد من استعادة الكرامة.

قلب الكأس الثانى، وكانت حكم الزمان، وأحزانه، وانتقاماته تعتمل فى داخله. إنها الفضيحة الكبرى. لقد تساهل مع هذه المرأة حتى أوصلته إلى.. هذا الموقف المخزى.. أين أنت أيها البندقدار الكبير لترى إلى اين وصل حفيدك. كانت الزجاجة قريبة، وكانت المعدة خاوية، وكانت فاطمة ترمقه متوترة، متسائلة فيم يفكر. أتعتذر له عن جلستها الغريبة مع هذا الغريب؟ ولكنه من أنقذها من السيل والغرق وطرق الأبواب تطلب الإيواء.. كانت تعد دفاعها، ولكنها تعرف أنه يغلى.. وكان يغلى.. وفجأة ذكر الحصان الأدهم، وذكر الغلام الأسود.. وأحس البرد يحط

على قلبه، ورأى التوتر ينساب بعيداً عنه.. فحمل حفنة من فستق التقمها، واسترخى ينتظر انتهاء الموسيو أوغستان من رسم زوجة السيد بندقدار.

سمع الهرير، وسمع الهمهمات والهنهنات، وسمع الرغاء، وأدرك أن جملاً سيؤكل، لم يقم من مجلسه، ولم يرفع الستارة السميكة، ولم يصغ إلى حبيبات المطر الثقيل في الخارج، فما قرأ كان شيئاً جديداً عليه، كان يعرف أنه لو فتح الباب، ودعا الموسيو غسان، فلن يجده، ولهنيهة تساءل: أترى ما يقرأ قد جرى فعلاً، أم أنه مجرد صنعة روائية، ربما كان لها جذر واقعي ما. هذا الجذر يعرفه سلمان، فهو يعرف أن هناك امرأة كان اسمها فاطمة، وكانت أمه، وهو حين يحاول تذكرها لا يذكر إلا أصابع حانية تداعب شعره وتدندن حوّل يا غنام حوّل. وهو يذكر أنها كانت ترسم.. رسم الهاويات، كان هنالك لوحات كثيرة في البيت على الجدران، وفي السقيفة، وفي بيوت الأقارب الذين كانوا يفخرون أمامها بأن لهم قريبة فنانة.. ولكن.. هذا كل شيء. أيمكن أن تكون فاطمة هي من غامرت كل هذه المغامرات.. أيمكن أن تكون قد قاتلت الضباع، وأنقذت زوجها، وأن تكون من أسقط الطائرة والطيار، أو أنها أشارت فقط بوم بوم، فسقطا، أيمكن أن تكون قد قتلت هذا البلومبرغ، وأنه لم يسقط، بل تابع طيرانه، أيمكن.. أف.. أف.. أعوذ بالله.. أيمكن أن تكون كما تشير المؤشرات الروائية المكتوبة حتى الآن إلى علاقة ما بين هذا الجندي الهارب من الحرب الأهلية الإسبانية، والمنتقم من إخفاق حلمه في إسبانيا في التحول إلى هذا الجزار في البادية الشامية. أيمكن أن يكون للإنسان هذان الوجهان النقيضان. أيمكن لركني العجوز ذي العصا والشاربين الأبيضين والحركة المتأنية أن يكون هذا المقامر الغشاش، الموافق على إسفار زوجته أمام الصحافة والغرباء ليحوز رضا كبراء المدينة.

ثم.. اللغز الكبير الثاني.. هذا الموسيو غسان من هو؟.. كيف تسلل إلى دخائل هؤلاء الناس.. أهو طرف متورط في هذه العلاقات؟ أم هو مجرد متنصت سمع، فكتب، وتخيل، وذكر مرة حديثاً عن الجذر الواقعي للشخصيات الروائية يشبّه الجذر الواقعي بالبذرة السوداء للنبات، لا بد منها لنشوء نبات جيد، ولكنها ليست النبات، فالنبات هو الشمس، والتربة، والريح، والسماء، واحتضان التربة الطويل

مكان مسقوف، وكان بعض الجند يقدمون إليهم بعض الشوربا والخبز الجاف المعد للأزمات. تجاوزهم جميعاً، فقد كان يعرف بأن فاطمة لا يمكن أن تكون في مسقوفات الباحة، ولا في الإسطبل، ولا في مرآب السيارات.. وهو يعرف ما تعني فاطمة لسكان المدينة، فهي من جاء إلى المدينة بالصحافة وهي من جعل المحافظ يأمر بنشر المصابيح الكهربائية في الشوارع على نفقة البلدية، وهي من تركب سيارتها في شوارع المدينة سافرة. كان عليه أن يسأل عدداً من اللاجئين، وعدداً من الجند، وأن يفتح عدداً من الأبواب حتى يصل إلى أوغستان.. وفي مقابله على مقعد قريب فاطمة المتوترة، وكان يرسمها، وكان.. الغضب المجنون، ولكنه الغضب المكبوت فمن يجرؤ على إبداء غضبه أمام سيد البر كله، الرجل الذي هشم شوكة البدو، وطوّعهم، الرجل الذي فرض الهدوء والأمان على إقليم هو قلب سورية يمتد من حمص وحتى الحدود العراقية.

ارتبكت فاطمة لمرأى ركني الواقف بالباب، وكانت تجلس في لباس البيت أمام هذا الكافر المسمى بالشيطان، فحاولت القيام، ولكن فيليب أشار لها بهدوء ألا تتحرك، فلم تتحرك. وكان على ركني أن يطيع أيضاً، فيقتعد المقعد الأقرب، وينتظر.

أشار له فيليب بريشته ليصب لنفسه كأساً من الرم القريب، فلم يتردد وكان البرد والبلل قد هدّأ قواه، فشرب الكأس جرعة واحدة، ثم صبّ آخر، وبينما كان الكحول يفعل فعله كانت الغيرة والغضب والإحساس بالجرح تنغل وتنخر فيه.. وكان لا بد من استعادة الكرامة.

قلب الكأس الثاني، وكانت حكم الزمان، وأحزانه، وانتقاماته تعتمل في داخله. إنها الفضيحة الكبرى. لقد تساهل مع هذه المرأة حتى أوصلته إلى.. هذا الموقف المخزي.. أين أنت أيها البندقدار الكبير لترى إلى اين وصل حفيدك. كانت الزجاجة قريبة، وكانت المعدة خاوية، وكانت فاطمة ترمقه متوترة، متسائلة فيم يفكر. أتعتذر له عن جلستها الغريبة مع هذا الغريب؟ ولكنه من أنقذها من السيل والغرق وطرق الأبواب تطلب الإيواء.. كانت تعد دفاعها، ولكنها تعرف أنه يغلي.. وكان يغلي.. وفجأة ذكر الحصان الأدهم، وذكر الغلام الأسود.. وأحس البرد يحط

على قلبه، ورأى التوتر ينساب بعيداً عنه.. فحمل حفنة من فستق التقمها، واسترخى ينتظر انتهاء الموسيو أوغستان من رسم زوجة السيد بندقدار.

سمع الهرير، وسمع الهمهمات والهنهنات، وسمع الرغاء، وأدرك أن جملاً سيؤكل، لم يقم من مجلسه، ولم يرفع الستارة السميكة، ولم يصغ إلى حبيبات المطر الثقيل في الخارج، فما قرأ كان شيئاً جديداً عليه، كان يعرف أنه لو فتح الباب، ودعا الموسيو غسان، فلن يجده، ولهنيهة تساءل: أترى ما يقرأ قد جرى فعلاً، أم أنه مجرد صنعة روائية، ربما كان لها جذر واقعي ما. هذا الجذر يعرفه سلمان، فهو يعرف أن هناك امرأة كان اسمها فاطمة، وكانت أمه، وهو حين يحاول تذكرها لا يذكر إلا أصابع حانية تداعب شعره وتدندن حوِّل يا غنام حوِّل. وهو يذكر أنها كانت ترسم.. رسم الهاويات، كان هنالك لوحات كثيرة في البيت على الجدران، وفي السقيفة، وفي بيوت الأقارب الذين كانوا يفخرون أمامها بأن لهم قريبة فنانة.. ولكن.. هذا كل شيء. أيمكن أن تكون فاطمة هي من غامرت كل هذه المغامرات.. أيمكن أن تكون قد قاتلت الضباع، وأنقذت زوجها، وأن تكون من أسقط الطائرة والطيار، أو أنها أشارت فقط بوم بوم، فسقطا، أيمكن أن تكون قد قتلت هذا البلومبرغ، وأنه لم يسقط، بل تابع طيرانه، أيمكن.. أف.. أف.. أعوذ بالله.. أيمكن أن تكون كما تشير المؤشرات الروائية المكتوبة حتى الآن إلى علاقة ما بين هذا الجندي الهارب من الحرب الأهلية الإسبانية، والمنتقم من إخفاق حلمه في إسبانيا في التحول إلى هذا الجزار في البادية الشامية. أيمكن أن يكون للإنسان هذان الوجهان النقيضان. أيمكن لركني العجوز ذي العصا والشاربين الأبيضين والحركة المتأنية أن يكون هذا المقامر الغشاش، الموافق على إسفار زوجته أمام الصحافة والغرباء ليحوز رضا كبراء المدينة.

ثم.. اللغز الكبير الثاني.. هذا الموسيو غسان من هو؟.. كيف تسلل إلى دخائل هؤلاء الناس.. أهو طرف متورط في هذه العلاقات؟ أم هو مجرد متنصت سمع، فكتب، وتخيل، وذكر مرة حديثاً عن الجذر الواقعي للشخصيات الروائية يشبِّه الجذر الواقعي بالبذرة السوداء للنبات، لا بد منها لنشوء نبات جيد، ولكنها ليست النبات، فالنبات هو الشمس، والتربة، والريح، والسماء، واحتضان التربة الطويل

للبذرة حتى تبثق خضرة الورق، وحمرة الورد، ولكن أيمكن لكل هذه الخضرة والحمرة أن توجدا رغم وجود الشمس والماء والتربة والاحتضان لولا البذرة السوداء الصغيرة. السؤال الذي يلح الآن، فاطمة السيناريو هذه. أهي البذرة السوداء، والتي لا يعرفها إلا بحوّل يا غنام حوّل، وبجنيره جوعان. بدي آكل، أم أنها الحوّل يا غنام حوّل، وفاطمة السنفال التي لا يعرفها، وفاطمة الضباع التي لا يعرفها، وفاطمة بلومبرغٍ وأوغستان.. أطلق نفساً طويلاً، وقلب آخر ما تبقى في الكأس من عصير وجنٍ في حلقه.. سلمان.. أنت لا تتصرف كمحترف.. أنت تتصرف كأي قارئ عامي، أو متفرج على مسلسل عادي يحاول ملاحقة الشخصيات، واكتشاف من هي، ومن يقابلها في الحياة الواقعية. هذه العامية في التعامل لا تليق بك.. ولكنهما يفترض أنهما والداي.. ركني وفاطمة اللذان تعرفهما في الحياة.. أنت تعلن أنهما مختلفان، فلم لا تتعامل مع الأمر على أنهما شخصيتان روائيتان، وتريح نفسك.

أنصت قليلاً. كان في الرغاء أنين.. أكان هذا الأنين يدعوه؟ أهو يطلب نجدته؟ وهل يستطيع إنجاد من لو خرج لرؤيته لاختفى؟.. هل الجمل شخصية روائية أيضاً، وإلا، فلم يختفي كلما قارب محاسسته. أهو من بنات أفكار غسان ايضاً، أم هو من بنات أفكاره.. وإن كان كذلك، فما مدلوله، ولماذا؟.

أنصت ثانية، فسمع بقبقة قطرات المطر الكبيرة فوق برك الماء في الباحة، فتنفس الصعداء: لقد مضى الجمل والناهشون، قام إلى البراد، وعاد بكأس جن آخر.. رجع إلى المخطوط: من المعابث؟ من مبدل المخطوطات كلما غادرت الغرفة؟ ولماذا لم لم يتركني أكمل مخطوطاً منها حتى النهاية؟ أهو يستفزني لأكملها حين أكتب السيناريو التنفيذي.

١٧

أول بوسة من خد الحبيب ساعة ما بيطلع من الحمَّام، أول عضةٌ من تفاحة هلق قطفتها ومسحتها بقميصك، وطعمة الحموضة الطازة قبل الحلا عليها. أول شمة من أول ياسمينة طلعت لتقول الشتي خلصت.. أول غنية من شحرور وقف جنبك عند أول ضو، وغني، وانت ساكت، وما حبيت ترعبه.. مع أنه فيقك من النوم.. كل هدول ما لهم قيمة جنب الانتقام، عدو أكبر منك، وأقوى منك، وأغني منك، بس انت، الله ساعدك، الحظ ساعدك، الظروف ساعدتك.. وقدرت تنتقم.. وتاخد حقك..

بعد قضاء شهور يراقب تعلم فاطمة الرسم على يدى فيليب، شهور كان ركنى فيها يشرب الرم ويمزمز بلحمه الخاص، يمزمز بقهره وعجزه، ولكن شمعة صغيرة جداً كانت تلتمع في كهف الانكسار الكبير كما سماه، هذه الشمعة كانت تقول: ستأخذ حقك، لن يضيع، لن يستطيع هذا الكافر سرقة امرأتك منك.. وكان يعرف أن امرأة كفاطمة لا يمكن أن تخدع عن نفسها..

رأى اللوحات الكثيرة التى رسمها لها، رسمها فى ثياب جان دارك، واستغرب ركنى حتى الجنون، فكيف استطاع هذا الشيطان رؤية فاطمة فى جان دارك كما رآها، ورآها والضباع تطاردها بتلك العيون المضيئة فى الظلام، ورآها تقطف الياسمين.

كانت سنة خصب عجيبة تلك السنة على البادية، ولم يكن على هذا القدر من الحمق بحيث يترك البادية وعطاءاتها.. يترك الصوف والسمن والجبن والكمأة، يترك قطيع الغنم الذى أودعه مشاركة لدى أحد الرعاة.. يتركه وهو يعرف أن الحضر إذا ما غادروا مواقعهم من القوة أكلهم البدو.. كان يشكل ثروته القادمة

بهدوء، ولم يكن يستطيع رفس كل هذا، والعودة إلى المدينة جابياً للإنتاج الزراعي، أو عدأداً للغنم، وهو يعرف أن تقريراً واحداً من قائد الحامية العسكرية كاف لإعادته إلى نقطة البداية فكان يعرف، ويصمت. كان يغلبه في حلقات البوكر، ويشلحه آخر فرنك، وآخر سنتيم، وكان يجب أن ترى نظرة النصر المستمتعة على وجهه، وهو يجمع (الغلة) كما كان يسميها، لم يكن يتآمر مع أحد من اللاعبين، فقد كان يعرف أن المؤامرة لا بد أن تنكشف يوماً، ولكن غضباً دفيناً تحول إلى ذاكرة عجيبة كان يجعله يعرف، ويحدس تماماً بما يملك كل لاعب من ورق، وكيف سيفعل لإنقاذ وضعه من الخسارة القادمة.

تشككوا كثيراً، وصرَّح بعضهم، وراقبه الكثيرون يريدون معرفة كيف يغلبهم، كيف يغش.. ولكنه أبداً لم يشف غليلهم، فيجعلهم يكشفون سره، ويعرفون كيف يغلبهم، وكان يمكن أن يسأموا منه ومن برودته ومن انتصاراته لو لم يحمه فيليب بنفسه مضحياً بالخسائر الصغيرة التي كان ركني يضيفها إلى قائمة الانتقامات الصغيرة.

كان يعرف، وكبراء المدينة يعرفون أن فاطمة بنظرتها الباردة الصقيعية، وبكبريائها التي ما نال منها حتى زوجها لا يمكن أن تسمح لكافر مثل الشيطان أوغستان بمسِّها، ولكنهم أدركوا كما أدرك ركني أنها مصممة على تعلم الرسم، وقد رأوا رسوماتها الأولى، فقارنوها رغم ضعف معرفتهم الفنية بالريليفات على جدران المعابد الميتة، وقارنوها برسوم فيليب أوغستان، فأدركوا أن لدى هذه المرأة التي كانت السائقة الأولى لسيارة في مدينة العمد المحطمة، والتي كانت المسفرة الأولى، ربما منذ نساء التماثيل والريليفات المهشمة، أدركوا أن لديها شيئاً، ولما كان تشجيعها لا يكلِّفهم شيئاً، فهي ليست ابنتهم، وهي ليست زوجتهم، ولا حتى أختهم، فما الخسارة. فلنتركها تجرب حظها.

كانت بيوت جديدة تبني بديلة عن البيوت التي أذابها السيل، وكانت بيوت جديدة قد بنيت، ولكن قبحاً جديداً أضيف إلى المدينة كما ستشكو فاطمة إلى أوغستان إنها المادة الجديدة _ البلوك _ رمل واسمنت يخلطان ويصبان في قوالب حتى إذا ما جفت كانت أقوى من اللبن، وأصمد على الزمان من اللبن، ولكن أين

حمرة اللبن المأخوذ من التراب المحيط من هذا اللون الأكثر للبلوك الذى ساد بيوت المدينة الجديدة، وربما كان قبح هذه الجدران الأرمد ما جعلها تمتنع عن تصوير المكان المحيط، فلجأت إلى المدينة الميتة تصور جدرانها المهشومة وعمدها المحطومة، ولجأت إلى الطبيعة تصور غزلانها فى هزيمتها الأخيرة أمام المدنية، البندقية الآلية الحربية، وكرسى الحلاق على سيارة الجيب.

بعد سنة من التدريب والتمثل أرتنا فاطمة لوحاتها الأولى.. شهق مدهوشاً. أرتنا..)نا).. نحن.. من هو صاحب الضمير هذا؟ أهو غسان، ولكن من غسان.. كيف دخل حياتها وحياة ركنى، وحياة فيليب.. من هو.. ها هو يعلن عن نفسه معاصراً واعياً لتجاربها الأولى فى الرسم، فيقول: أرتنا.

انتفض.. مضى إلى الدهليز، الباحة الغارقة فى المطر، الغرف الأخرى مظلمة، لا نور إلا المتسرب منعكساً عبر الدهاليز. من غرفته. جرب أن يهتف، فلعل هناك من يسمع.. صرخ.. غسان.. الموسيو غسان.. أنا فى حاجة إليك.. أجب.. أرجوك.. أمور كثيرة تحتاج إلى تفسير.. ولكن الرد الوحيد كان بقبقة المطر على برك الرمل المتوحِّل. عاد.. وفى الدهليز شعر بالخوف.. لقد فارقت المخطوط.. ما يدريك، لقد حصل هذا قبل الآن. ما إن تبتعد عن المخطوط حتى يتغير. وجد ساقيه تجريان فاندفع. كان مقعده المضاء بلامباديرة تعلوه ما يزال فى مكانه. كان الكأس نصف المشروب فى مكانه، وكان المخطوط ما يزال فى مكانه، فتنفس فى ارتياح.. وعاد إلى مجلسه.

كان الربيع المدهش يزين سطوح البيوت الطينية بزهور الأقحوان وشقائق النعمان والخزامى.. بذور منسية فى تراب السطوح أنعشها مطر الشتاء، فضلَّت طريقها، وظنَّت أنها ما تزال فى البرارى، فتفتحت وأزهرت، كانت ميول الجدران قد تحولت إلى حدائق، والسطوح إلى منابت للورد، أما بيوت البلوك، فظلت على صرامتها الرمادية، لم تكن تحتضن البذور، ولم تكن تستقبل الزهور، جربت فاطمة للمرة الأولى أن تصوِّر ما ترى.. فاتخذت من سطح بيتها البلوكى مجلساً، وأخذت ترسم منه السطوح المزهرة، والجدران المورَّدة، ولكن أوغستان حين رآها قال: ولكن هذه ليست مدينتنا.. انظرى.. هناك مآذن، وأبراج كنيسة، وطيارات حمام

فى آخر اللوحة وتوقف قليلاً، ثم تمتم: أنت مريضة بمرضى.

أطلقت نفثة تهكم منزعجة، وقالت: ولكن ما مرضك؟ قال: أنا لا أصور ما أرى، بل أصور ما أنكر.. ألم تلاحظى أن كل رسومى كانت لريف غرناطة، وحدائق بلد الوليد. فأطرقت غير فاهمة وإن أثقلها الحزن فى كلماته، ثم تمتمت: ولكنى أرسم السطوح _ الحدائق. قال: بل أنت ترسمين مدينة الطفولة. لعلها الشام.. تأمليها جيداً.

وتأملت، فصدقت، وعرفت أنها لم ترسم المدينة الميتة، بل مدينة الذاكرة.. قال: لا تحزنى، كثيرون أولئك الذين حين يرسمون لا يرون ما يفترض بعيونهم أن ترى، بل يرسمون ما يرون بعيون ليست عيون الآخرين.

فى المساء حين راجعت بقية رسومها اكتشفت أنه على حق، فلم يكن للمدينة الميتة من وجود. كانت كل رسوماتها رسوماً تسربت من ذاكرة الشام، ورسوماً لليلة الرعب التى طاردت فيها الغزلان، وطاردتها كلاب اكتشفت فيما بعد أنها كانت الضباع.

كان هذا هو الحوار الأخير بين فيليب وفاطمة. ففى اليوم التالى تماماً، وكان فيليب قد خرج يفتش على العشائر القريبة، يطمئن إلى هدوئها وإلى انصرافها إلى رعى إبلها وأغنامها حين رأى عشيرة لم يكن جوار المدينة موقعها، فهذه العشيرة معروفة بعنفها وتأبِّيها على جوار المدينة والحكومة، فمال إليهم يشرب قهوتهم كما علمته سنوات البادية، والمدينة الميتة، ويستمع إلى شكاواهم، وربما يمعن فى تلطفه، فيتغدى لديهم. مال إلى مضرب العشيرة، ومعه السارجان عزيز، والأجوتان ميشو، وسائقه أحمد الذى أعمل الزمور بقوة ينبه العشيرة إلى قدوم ضيوف، ولكنهم ما إن اقتربوا من المضارب حتى رأى فيليب منيته.

كانت منية فيليب مجسَّدة هذه المرة فى جمال أسود، جمال بلغ الكمال فى سواده، وبياض جبينه، وأرساغه، واتساق أطواله.. كان مربوطاً بوتد وحيد، وأمامه منود تكوَّم فيه العشب الأخضر والزهور البرية، ولكنه لم يكن يأكل، بل كان يشمخ بأنفه إلى البعيد، وكأنه يتشمم ريح أنثى.. فيما بعد سيتساءل فيليب كثيراً. أكان يتشمم رائحة أنثى حقاً، أم كان يتشمم ريح ملك الموت المرفرف فوق فيليب.

نزل فيليب من سيارة الدورية. أمر السائق بإعمال الزمور يدعو أصحاب الحصان، ولكن أحداً لم يستجب للزمور، وسيقولون للمحقق ميشو فيما بعد أنهم كانوا مشغولين بجملين كسيرين ينبحونهما ويسلخونهما، وكانت العشيرة تحتفل رغماً عن شيخها بأكل لحم لم تأكله منذ شهور الشتاء الطويلة، فلم ينتبهوا للزمور، ولم يكترثوا للقادم، فقد كان الجملان أشهى واللحم الموعود ألذ.

وحين يئس فيليب ومجموعته من قدوم أصحاب الحصان قرَّر الاستجابة للشهوة الصارخة فيه بركوب هذا الجمال اللامع العضِل المستفز أمامه، فقفز إلى ظهره مستدعياً كل دروس الفروسية وتسيُّد الخيل. وما إن أحس الحصان بمن يعتلي ظهره حتى انطلق إلى البادية يمزق الخزامى والأقحوان بسنابكه الحديدية، لم يبتعد الحصان كثيراً عن أنظار مجموعة فيليب، فما إن وصل إلى حقل الشقائق الحمر حتى اشرأب بقائمتيه الأماميتين، فزعزع فيليب الراكب على اللحم، ثم انقضَّ ثانية على قائمتيه الأماميتين مشرئباً بقائمتيه الخلفيتين دون أن يترك لفيليب فرصة التماسك،.. كان ماهراً في إسقاط راكبيه تمتم فيليب فيما بعد معلِّقاً على الحادث، وسقط فيليب، وحين جرى ميشو وعزيز والسائق وجدوه في استلقاءته لا يستطيع الحراك، فجاؤوا بالسيارة إليه، حملوه فيها بعناية، وجروا إلى المستشفى، ولم يتوقفوا قبل حمص. فقد عرفوا تماماً ما جرى، لقد كسر عمود فيليب الفقرى، ولن تراه المدينة قائداً لحامية البادية، ولن تراه فاطمة لسنين.. فقد أقعده الخجل من أن تراه المشلول بعد أن كان الفارس، ولكن ركني لن يدع الفرصة تفلت منه، فسيعلن بعد رحيل فرنسا ويكرِّر بأنه كان واحداً من أشد المقاومين للاستعمار، أفلم يهشم عظام قائد الحامية الفرنسية، ويعيده إلى بلاده أشلَّ مقعداً.

ستسمع منه فاطمة هذا التبجح، وستبتلع ردَّها عليه، وستهجر الرسم إلى ما بعد إنجاب ولديها وتربيتهما، وحين تعود إلى الرسم _ اللعنة ستجد معاوية في انتظارها، وستتأوه في حزن حينما تذكر معاوية، فهي لن تذكره بالاسم أبداً، ولكنها ستخطئ مرة واحدة لتقول لي: رسل المدينة الميتة لن يهدأوا قبل أن يروا الموت في كل مكان.

كان رغاءً حنوناً راجياً، مستدعياً، فتح سلمان عينيه، كانت الغرفة تسبح بنور الشمس، تأمل جلسته، لقد نام على مقعده.. كيف.. لم يفعلها منذ زمن طويل. لقد علَّم نفسه النظام والترتيب فعل كل العزاب الذين يسكنون وحيدين، فهو لن ينام أبداً إلا بالبيجاما، وهو لن ينام إلا بعد تنظيف أسنانه، والتأكد من أن الساعة هي الحادية عشرة، ولكن ما الذي جرى؟ صار ينام في أي وقت، وفي ثياب الخروج، وبأسنان لم تنظف. انتصب من جلسته، فسمع عظامه تطقطق، الركبتان المستقلتان والكواحل، العمود الفقري، وسلاميات القدمين.

كان يتأمل جسده يستيقظ، أراد التوجه إلى الحمام ولكن الرغاء استدعاه ثانية. كان يعرف أنها واحدة من خدع البيت، فلم يستجب، ومضى إلى الحمام، فحلق لحيته ونظف أمعاءه ومثانته وأسنانه، وتعطر في بهجة وهو ينظف أسنانه، ثم قرر: سأترك هذا البيت اليوم. لن أستسلم لهذه الهلوسات بعد الآن. هذا الرجل مهووس بشكل ما، وسيربكني. سأعود إلى برنامجي الأساسي الذي تعاقدت عليه مع المحطة الفرنسية.. سأصور المدينة الميتة.. سأصور أشرطة كثيرة ثم سأولفها وأعلق عليها هناك في دمشق، بعيداً عن المدن التي يسمونها ميتة، ويستحيون أمواتها.

عاد إلى الغرفة. ابتسم في سخرية.. اللعبة من جديد، اختفى المخطوط، هتف: لن تستدرجوني إلى مزيد من الهراء. لن تهمني مخطوطاتكم منذ اليوم. قررت التخلي عن كل شيء. سأعود إلى برنامجي الذي برمجت نفسي ويوسف عليه. رنَّ الجرس يستدعي الخادم. قال: لا بد من فنجان قهوة قبل أن أبدأ النهار، ولكن خادماً لم يرد. اتجه إلى المطبخ الصغير قال: سأصنع قهوتي بنفسي كما اعتدت.

في طريقه إلى المطبخ رآه. كان مظروفاً كبيراً. كرر النظر. لا. لن أخدع. لا مزيد من هذه المخطوطات.. هزّه بيده، كان خفيفاً إلى حد ما، وعلى ظهره قرأ بالخط الديواني

ملاحظات

هز المظروف.. كان به كمية من الأوراق. عرف ذلك من وزنها ومن خشخشتها.. ولكن..

عاد إلى مقعده الأول، فتح المظروف، وقرأ.. كانت الكتابة بالخط النسخ:

أنا أعرف أن ما قرأته لم يكن كاملاً، أنا أعرف أن به الكثير من الثغرات، ولكن عليك أن تعذرني، فلست بالكاتب المحترف.. كاد يضع الأوراق من يده، وكأن الكاتب شعر بأن سلمان قد سئم فكتب: لا.. لا.. أرجوك. أنا أعرف أن همك الأساسي صناعة فيلمك، وأنا أقرك على هذا، ففنان مثلك لا يجوز نسيانه على الرف «إنه يتملقني.. تمتم سلمان»

أنا المحطة الفرنسية التي تعاقدت معك على تحقيق الفيلم التوثيقي «المدينة الميتة» وأنا من أعدَّ لك هذه السيناريوهات غير المكتملة لإنجاز فيلمك.. آه.. كنت قد قلت: إني لست بالكاتب المحترف.. ولكني احتطت لكثير من النواقص. ستجد في المظروف أوراقاً عليها ملاحظات _ محاولات لسد الثغرات. أترك لك الخيار في استخدامها، أو هجرها.

كانت رسالة حياتي منذ عودتي من المصح هو ألا أترك للنسيان فرصة خداعي، وخداع من أحببتهم، وسوقهم إلى حفرة النسيان.. قضيت السنوات الطويلة أنتظر نضجك.. أنتظر سأمك، أنتظر قدرتك على فهم النفس البشرية. أنتظرك، أعد لك الأفكار والأبحاث، أعددت كل شيء، وما عليك إلا أن تملأ الثغرات وتنجز فيلمك..

ستجد في البنك اعتماداً يكفي لإنجاز فيلمك، استخدمه، وأنجز فيلمك وأعد الحياة لأولئك المعذبين الذين عاشوا في مدينة كان واحداً من أسمائها المدينة الميتة..

غسان

١٨

الحمد لله، ثم الحمد لله، الحمد لله الذى هدانى إلى طريق الصواب، وما كنت لأهتدى لولا أن هدانى الله

الحمد لله الذى أحيانى بعد أن كدت أموت حين أنقذنى من وضعى الأخرق. أيمكن لإنسان تخيل أن يقوم إنسان بكامل عقله بقتل نفسه ليخلد فى النار. قتل النفس؟ أى صلف وعجرفة وتكبر يجب أن يكون لدى الإنسان حتى يقتل نفسه. إنه حين يقتل نفسه إنما يقول لرب العزة أنا لا أحفل بما قدمت لى. أنا لا يهمنى السمع، والبصر، والعقل، والرزق الذى منحته لى، وها أنذا أرمى به إلى العدم بقتل نفسى. أعوذ بالله هل فعلت هذا. أنا فاطمة التى سمانى أبى على اسم ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أقتل نفسى؟

آه.. الحمد لله الذى نجّانى من ارتكاب مثل هذه الجريمة، وجعلهم ينقذوننى من الموت إنقاذاً لى من خطايا عمرى السابق.

فتحت عينى. كان ضوء الصباح الدخانى الباكر يعوم فى الغرفة. لم تكن نجوى موجودة ولا الممرضة، لم يكن أحد. أتراهم اعتقدوا أنى مت، فتركونى لعزرائيل، وانصرفوا إلى مهام الجنازة والمراسم؟ لم يعترفوا لى أبداً بهذا، ولكن دهشتهم، وفرحتهم واضطرابهم، ومناداتهم الأطباء والممرضات، والمرضى يعرضوننى عليهم أكدت لى ما كنت أخمنه.

كانوا يبدون الفرحة برجوعى إليهم، ويبطنون كما أعتقد الدهشة الكاملة لتغلبى على كل هذه السموم التى ابتلعتها والتى طليت بها جسمى كاملاً.. لماذا طليت جسمى بهذه الألوان. أكنت أرسم لوحتى الأخيرة..

أستغفر الله من كل ذنب عظيم. أستغفر الله على تبجّحي، وتكبّري، وتعدى حدودى. أرسم؟ أعيد الخلق؟ اللهم اغفر لى ما تقدم من ذنبى لقد كنت من الجاهلين أفأتحدى الربوبية بالتصوير؟.. أيمكن تخيل العقوبة يوم القيامة حين يقول لي جلّ وعلا. أحيى ما خلقت إن كنت تستطيعين؟ وهل أستطيع أنا العاجزة الضعيفة المسكينة تعدّت حدودها وتجرّأت على ما لم تتجرأ عليه امرأة فى عائلتها، وحارتها، وبيئتها؟. كيف جرؤت؟ كيف جرؤت؟..

اللهم إنى أطلب عفوك، وأطمع فيه، فأنا أعرف أنك القادر على العفو، ولا قادر سواك. اللهم أنسنى الألوان، والريش والسكاكين، أنسنى ذلك التبجح الذى جرؤت عليه يوماً، وأعدنى أمتك الصالحة.

كانوا ينقرون الباب فى وداعة، فى لطف، فى رقة، وفى شوق، ويدخلون يحملون الورود، يحملون الشوكولاتة والحلوى، يحملون الفرح، الأصدقاء، والأقارب، الأحماء.. كانوا يتمسّحون بى سعداء. قابلتهم بدهشة. بفزع، بحيرة، بعجز.. هجمت نجوى منكوشة الشعر (شرِّنة) مثل عمتها، وانحنت فوقى تعانقنى، وتقبلنى باكية. أكان بكاء الفرح، أم بكاء الاعتذار.

جاءت باكزة، وجاء زوجها الوجيه أبداً، المكوى أبداً، النظيف أبداً، المعطر أبداً، اللامبتسم، واللاحزين، واللافرح، واللاغاضب، فسلم، ووضع إلى جانبى باقة من الورود البلاستيكية.

حلّت العتمة، وانصرف الزوار والأطباء، والمرضى، والممرضات، وخلوت إلى نفسى. دخلت الممرضة قالت: أعرف مشكلتك مع النوم. أتشعرين بالنعاس، أم أعطيك المنوم، فأنت فى حاجة إلى الراحة همست بأنى فى حاجة إلى منوِّم، فمضت لتحضر المنوِّم، ولكنها فى اللحظة التى أغلقت الباب من خلفها دخل.

وشهق شىء فىَّ، القلب، الغضب، الروح.. الجسد، شهق شىء فىّ يقول: لا غفران.

ولا إرادياً وجدتنى أشدُّ منشفة قريبة فأتحجب بها.. أتحجب؟ أنا.. فاطمة السنغال، والضباع، وأوغستان، وبلومبرغ، والمعارض أتحجب؟. لم يكن أنا من

تحجب، كان الرفض، وكان الغضب، وكان الشعور بالخديعة الكبرى. راقبت رأسه المائل على رقبته فى صلَف على عادته الجديدة، راقبته فى الزجاج العاكس.. راقبت تناوله باقة الورد من مرافقه الواقف خارج الباب، راقبت كلماته المزوَّرة تعتذر عن تأخره فى زيارتى. راقبت، ووجدتنى أغمض عينى فى سريرى منصرفة عنه وقد غطَّى الحجاب شعرى ونصف وجهى..

ثرثر، ثرثر بما لم أفهمه، ولكن برداً عجيباً حلّ على يخبرنى بأنى أخيراً شفيت منه.

الآن وأنا لاجئة إلى حبيبى وسيدى. لاجئة أطلب حناناً وجواراً أتساءل: ما الذى جعلنى أتحجب فجأة. أكانت الرسالة الصريحة بأن كل علاقة كانت قد قامت بيننا قد انقطعت. أكانت الجواب على كل كذبه وتبجحاته بأنى لن أصدقك بعد اليوم، وعليك أن تخرج من حياتى.

الآن وأنا جالسة فى غرفتى المطلة على الحرم أرى جموع المعتمرين، والطائفين فى ثيابهم البيض، أرى النور يطوف معهم، ومن حولهم، وبينهم. أرى الرضا، والسعادة، والاستسلام يعوم فيهم، وبهم، وعليهم، وبينهم، فأتساءل: كيف وقعت فى خطيئة الثقة بوجه وقح الوسامة ذرب اللِسان أسود القلب؟.

آه.. أذكر مرة وكنا فى مقصف افتتح حديثاً خارج دمشق. كان المقصف كما قد عرفت فيما بعد شبه مخصص لكبار الضباط والمتنفذين، ومحدثى السلطة.. كان الخدم والقائمون على المقصف الذين خصصوا لنا ما يشبه المعتزل المحجوب بالأغصان. وقماش الخيام.. مطلاً على بردى. كان كل شىء يوحى بأن معاوية معروف ومحترم ومخوف فى هذا المكان. والغريب أن ثقته بنفسه التى جعلته يحدِّق فيهم فى استعلاء متظرف يمازحهم، فيضحكون على سخرياته وأمازيحه التى لا تضحك إلا من كان يريد بضحكه رشوة المازح، وكانوا يرشونه حتى بالضحك. وكنت أضحك، أفكنت أرشوه بضحكى أيضاً، ولكن الرشوة هى طلب رضا القوى لتحصل على منفعة، فما منفعتى؟ آه.. الرضا كنت حتى وأنا المشتهاة القوية المسعى إلى رضاها أشتهى رضاه كيف.. كيف يا فاطمة. ما الذى أوقعك فى شباك مثل هذا الساخر.

آه.. فى تلك الأمسية حدثنى عن حلمه الصبى بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة. قال: قرأت وأنا متكئ إلى شجرة التوت مرخ ساقىّ النحيلتين الطويلتين من أمامى. قرأت عن علاء الدين، ذلك الذى وقع على المصباح السحرى، فملك الدنيا، وتحطمت الصعوبات. وصار كل شىء فى متناوله. لم يكن يحتاج إلا إلى دعكة للمصباح فإذا بالجنى أمامه يقول: شبيك لبيك.. عبدك بين إيديك، فيقول للجنى: أريد القصور، فتكون له القصور. يقول للجنى: أريد المركبات، فتكون له المركبات. يقول للجنى: أريد السلطة المطلقة أنتقم بها من أعدائى، فتكون له السلطة المطلقة. يقول للجنى: أريد الأموال أتقوّى بها على العالم، فيدلُّه الجنى على مكامن الأموال ويحملها له.

ضحكت وقلت له: ولكن تلك حكايات خرافية تحكى للأطفال، ومن يماثل للتسلية.

فنظر إلى فى جدية، وقال: ومن قال إن الأدب وضع للتسلية، وقلت: فلم وضع إذن؟ قال: وعيناه معلقتان بالأفق: بل وضع لإيقاظ الأحلام.؟

فيما بعد سأذكر الفانوس السحرى الذى ملكه معاوية، فجعله يهتف لوزير التربية، فيسقط الوزير شرط الزمن المخصص للتقدم للشهادة الثانوية، وذكرت رئيس قاعة الامتحان وهو يبدل أوراق امتحانى المضطربة. ذكرت المعجزات التى اقترفها، والأموال التى كان يأمر بصرفها، والسيارات التى كان يبدِّلها. والقصر الذى بناه على التل المشرف على القرية، ولم يكن فى القرية كهرباء، فأمر بتمديد الكهرباء إلى التلة ينير القصر، وينير القرية بظلال نور القصر. لم يكن فى القرية ماء وكانت جبلية، وليس من حفارة قادرة على الوصول إلى الماء فى أعلى التل، فأمر بحفارة نفط استعيرت من حقول النفط، لتحفر بئراً فى أعلى التلة، فكان للقصر الماء، وللقرية الصهاريج والحمير تحمل لهم الماء من على مبعدة نصف يوم.

الآن وأنا أتأمل هذا النور المحلِّق فى المكان. أيحق لى التساؤل إن كان قد ملك الفانوس السحرى، وصار جنّى الفانوس عبداً له يقف بين يديه كل صباح ويؤدى التحية العسكرية، ثم يقول: شبيك لبيك عبدك بين إيديك..

وضع سلمان الأوراق المشبوكة بدبوس بين يديه مفكراً: أعوذ بالله. إذن فلم

تمت أثناء موسم الحج. إذن.. إذن.. فاطمة هناك فى الحجاز يجب أن أصل إليها.. يجب؟ ثم تردد.. ولكن.. الآن وقد تلصصت، وعرفت الكثير مما لا يجوز للأبناء معرفته عن الأم. كيف ستلقاها. كيف ستحدِّق فى عينيها. أى حوار يمكن أن يجرى بينكما، وأنت من اختصرتها إلى حولٍ يا غنّام حولٍ. وبدى آكل جوعان.. آه.. غصَّ القلب.. هه.. ما أعجب الحياة.. أم تموت، فتسبب الحزن، ثم أمٌ تحكى الحياة، فتسبب الارتباك. ثم تبعث.. ثم.. ماذا..

هز المظروف قليلاً. ما يزال فيه بعض أوراق. سحب بعضاً منها.

كان الهاتف مفاجأة قطعت على تلك اللوحة رقم.. الله وحده يعلم رقمها، ولكنها كانت عن غزال آخر يطارده الصيادون إلى المستنقع، وكان المستنقع هذه المرة قد تحولت مياهه إلى شباك. كنت أجوِّد حلقاتها حين رن الهاتف. حاولت تجاهله، ولكنه كان يلح إلحاح من يعرف أنى هناك، وهو مصرٌ على استجابتى، واستجبت لأسمع امرأة على الطرف الآخر تقول: معاوية هناك فى مقصفك، معها..

وعلَّقت الأخرى السماعة بعد أن فجَّرت قنبلتها، وابيضّت اللوحة أمامى فجأة، لم أعد أستطيع إكمالها، كما لم أستطع تجاهل المكالمة. كنت أعرف أن شيئاً قد تغيَّر فى معاوية. كنت أحس ذلك. أحسهُ بالنظرة الشاردة، باللمسة الشاردة. بالموعد المنسى فى اللحظة الأخيرة. تنهدت مرتاحة، يائسة، مستسلمة، لا أعرف، ولكنى كنت أعرف أن هذه المكالمة كان يجب أن تكون. كنت أعرف أنى كنت أنتظرها رغم أنى لا أعرف من سيقوم بها. ولكنى كنت أعرف أن أحداً، ربما كان هو نفسه سيبلغنى بها، سيبلغنى بأن امرأة أخرى حلت محلى.

كان قد زلق أمامى مرة يحدثنى عن شرعية حصول المنتصر على الجائزة.. أفلم يخاطر بعمره كله فى التحضير للحظة النصر، أفلم يخاطر بأحلامه، وذكرياته فى انتظار لحظة النصر. أليس هذا كله كافياً للحصول على الجائزة. ولما سألته مداعبة: أفلست أكفى للجائزة. نظر إلى بسرعة، ثم ألقى بنظره إلى الحشود تمر من تحتنا منشغلة بأحزانها وهمومها اليومية، وكنا نتناول العصير فى كافتيريا سطحية تطل على ساحة الصالحية، وسمعت، أقسم إنى سمعت صوته الداخلى يقول: لا.. وحتى كل هؤلاء الذى ترينهم تحت لا يكفون.

سمع سلمان رغاء الألم العنيف من القعود المعضوض بعد النهشة الكبيرة

لم أغيِّر ثيابى. بل وضعت معطفاً خفيفاً فوق ثياب الرسم نفسها، وحملنى التاكسى إلى مقصف المتنفذين خارج المدينة.. كانا هناك، كانا تماماً كالكابوس الذى كان يتهددنى فى كل ليلة، كانا هناك مثل أسوأ الأحلام.. وكانت تضحك.. من موقفى البعيد القريب رأيتها، وبلعبة من ألعاب العقل العجيبة رأيتنى أراها، ورأيتها ترانى. كنت أتبادل الدور معها فى نوسان عجيب، فأرانى جالسة معه أتأملها تراقبنا، ثم أرانى من موقفى أتأملها تجالسه، كانت نسختى الأخرى غير المنقحة هناك. كانت قد حلت محلى فى الاستيلاء على الذكر المتاح. ولكنه أعوذ بالله ليس الوحيد،، و.. لكنـ.. ه كان صاحب الجائزة.. وكانت نجوى النسخة الأخرى من الجائزة.

لست أدرى من صرخ. لست أدرى من أعول.. لست أدرى من أنشب أظافره، لست أدرى من شدّ المفرش بما عليه عن الطاولة، وغطّى الأخرى عن عينى الظافر. لست أدرى من قام بذلك أنا؟ أم أنا:.. الأخرى، النسخة غير المنقحة، أم النسخة الأصلية التى أخذ الضوء والحرارة وسفع رياح الزمن فى تجعيده وتشقيق اللون عن سطحها؟ فكل ما أعرفه أنى بعد ساعات، لحظات، دقائق، هل للزمن فى لحظة الموت. معنى؟ ألزمن فى لحظة الولادة زمن؟ أم أنه الـ.. زمن..؟ كل ما أعرفه أنى، وأنى كنا فى سيارة رفضنا أن يركب فيها معنا، وأنَّا كنا على الطريق إلى البيت، وعلى الطريق حاولت أنا الأخرى غير المنقحة أن تلمس ركبتى معتذرة مواسية؟ ولكن عوائى جعلها تنكمش فى الناحية الأخرى من مقعد السيارة الخلفى. كانت السيارة تتهدهد، وفجأة تسرب صوته:

:لا، لا يكفون. بل كل هؤلاء الذين ترينهم تحت، لا يكفون.

الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله الذى هدانى بعد طول ضلال.. أنا أعرف أنهم يظنوننى قد متُّ فى السيل العظيم الذى دهم قافلتنا على طريق عرفات، ولكن الله نجانى فيمن أنجا. لماذا.. أنا أعرف أنه يحبنى ويريد لى أن أعيش حلاوة التوبة كما عشت حلاوة المعصية. الحمد لله.. إه.. الحمد لله.. ها أنذا أرسل إليك

برسالتى الأخيرة متمنية ألا تردَّ عليها، وألا تكتب لى فى المستقبل، فأنا سعيدة بجوار سيدى وحبيبى وأملى ومستتيبى.

وقرأ سلمان بالخط الديوانى «ولا توقيع ولا عنوان»

١٩

تقارير
٦٥٩٣ سري جداً.

اختفى الملازم الطيار جان غالمان منذ الأمس من قاعدته فى النيرب. يجرى البحث عنه بتكتم بالغ. وزعنا اسمه وصورته على الحدود التركية، والفلسطينية.. يخشى من رغبته بالالتحاق بالقوات الديغولية.

سرى جداً ٧٢٠٤

هوجم الطيار هانز شميث بعد نزوله فى قاعدة النيرب الجوية، ومضيه إلى مطعم المطار، ونزعت عنه بدلته العسكرية الألمانية. لم تسرق ساعته الثمينة. يخشى من محاولة الاستفادة من الزى العسكرى الألمانى للقيام بأعمال تخريبية.

٧٢٠٩ سرى جداً

حاول مركز المراقبة التخاطب مع الطيارة الألمانية ميسر شميث بعد إقلاعها المفاجئ دون إذن من سلطات المطار، ودون الإبلاغ عن الجهة التى تقصدها. حذرنا الطيار من أننّا سنطلّق النار عليه إن لم يعرِّف بنفسه وبالجهة التى يقصدها، ولكنه لم يستجب، بل تابع تحليقه. أطلقنا عدة صليات تحذيرية، ولكنه انطلق بعيداً باتجاه الشرق.

٧٢١١ سرى جداً

شوهدت الطيارة الألمانية الميسر شميث تحلِّق فوق مطار السلمية السرى، وكان الطيار البطىء فى تحليقه يصوِّر المطار كما يبدو. ما المقصود من ذلك؟.

٧٢١٢ سرى جداً

إلى قوى الدفاع الجوية فى مطار السلمية، النيرب، القلعة، تدمر، الرحبة. زلابيا، القامشلى. يطلب إليكم إطلاق النار دون تحذير على الطائرة ميسر شميث

حالما ترونها تقترب من المطار. لا تنتظروا تحليقها، أو اقترابها للتصوير. الطائرة الألمانية الميسر شميث طائرة معادية. أسقطوها بأى ثمن.

كانت هذه كل التقارير السرية التى استطعت استخلاصها عن حادث إسقاط الطائرة الغريبة قريباً من ركنى وفاطمة الصيادين. لم أستطع وصلها أو إدخالها بالسيناريو الأولى. جرب أن تفعل ذلك عند تهيئة السيناريو التنفيذى إن وجدت ذلك ضرورياً، وإلا.. فاترك الأمر معلقاً. من يعرف.. ربما كان الترك معلقاً أكثر إثارة. أو أكثر قرباً من الحقيقة.

مع تحياتى
غســان

وضع الأوراق من يده وقد غلبت الحيرة على كل تعقل فيه. ما الذى يجرى.. ما الذى يجرى.. من هو غسان؟ ما هو السيناريو؟ من هى أو ما هى المدينة الميتة؟ أنصت قليلاً. لا رغاء. أنصت كثيراً، لا بقبقعة قطرات مطر. اتجه إلى الدهليز. العتمة الرمادية ورائحة الغبار الخفيف المعلق فى مكان لم تحركه الريح منذ زمن.. هتف: غسان، ولاحظ أنه لم يناده بالموسيو. قال: لا مزيد من احترام سخيف: غسان. اخرج يجب أن نتحدث.

التفَّ مع الدهليز. كانت الباحة ولكن. أين أشجار النخيل العملاقة، أين أشجار الكينا والغازورينا . أين شجرة التين الكاوشوكى العملاقة، كانت شمس وقحة تسوط المكان بشواظها، هتف: غسان: أين الخدم. أين السائقون. لا جواب. تمتم: أين الببغاء الخضراء المحمرة، أو الحمراء المخضرة التى استقبلتنى بمرحبا؟ أين الجمل الرغّاء؟ أين الناهشون الغارقون بأنوفهم وأفواههم فى الدهن؟ أين عمود الشاورما؟ أين المحتفون والمحتفلون والمتغدون؟.

كان رملاً وشمساً وقرميداً رمَّدته الرمال والشمس. قال: يجب أن أعود إلى المدينة، فمن الواضح أن هناك لعبة ما، خديعة ما .

يجب أن أعود إلى المدينة، إلى يوسف وكاميراته، إلى أمين الشعبة، ومدير الناحية، والناس الأحياء. أريد أن أخاطب إنساناً حياً، أريد أن أهتف لسميحة.

لقد اشتقت إليها. سأعلن أنى سأضخ فى دمى مزيداً من الإنسانية والأرضية.. سميحة.. أنا فى حاجة إليك. تقدم إلى الباب الذى يقود إلى خارج البيت، ولكنه لاحظ أنه يدخل فى عتمة دهليز جديدة.

قال: لا بأس. هذا مألوف فى البيوت الصحراوية إنها تكثر من الدهاليز والظلال والعتمة تحتمى بها من وقاحة الشمس. تقدم فى دهليز لم يذكر أنه قد عبره من قبل، ولكنه يعرف بطريقة غامضة ألا بد من عبوره للخروج من هذه المتاهة.

تقدم وإذا به يدخل فى مزيد من العتمة، ولكن الرؤية ما تزال ممكنة، أمعن فى التقدم ليجد درجات حجرية مألوفة بشكل ما. لقد مشى على هذه الدرجات من قبل. تقدم وإذا بالباب الحجرى الكبير، دفعه، فاندفع، وإذا به فى المدخل الحجرى المقبب الكبير للقبر العمودى.

شهق غير مصدق: أين أنا.. القبر العمودى. أنا؟.. كيف؟. التفت إلى الوراء. كان الباب الحجرى الكبير قد انغلق ثانية، لم يشعر بحاجة إلى فتحه أو إلى العودة، بل صعد درجات جديدة أخرى ليجد نفسه هذه المرة فى الصحراء الصريحة الواضحة الممتدة. مسح المكان يتفحصه. قبور عمودية أخرى على مقربة، وعلى مبعدة، وفى آخر المشهد رآها. عرف أنها مدينة يوسف مصوره، مدينة أمين الشعبة ومدير الناحية، وأبو الشيما قال: أمضى إليهم، فلا بد أنهم يبحثون عنى، أمضى إليهم، فلا بد أن لديهم إجابات ما على أسئلتى التى لا أعرف كيف أصوغها.

مضى. كانت قدماه تغوصان قليلاً فى الرمال الخفيفة التى كانت تغطى طريقاً كان مزفتاً، كان يرى مدينة البلوك أمامه، فيمضى، وكانت الشمس تسوطه، ولكن المدينة فى متناول اليد، وعليه أن يستخدم طاقته القديمة، وعضلات المشّاء، التى طالما راضها، ودربها على المشى الطويل، كان يمضى والبيوت رمادية اللون الكشراء تقترب، كان يمضى والبيوت التى وصفتها فاطمة بالقبح تتضح أكثر، فأكثر.

جرب أن يصرخ رغم معرفته بأن المدينة ما تزال بعيدة، وأن الصوت لن يسمع،

كان فى حاجة إلى سماع صوت ماء، فصرخ.. غسان.. ثم تراجع أدباً، فهتف: الموسيو غسان.. الموسيو غسان، ولا جواب، فهتف: يوسف.. حبيبى يوسف. ولا جواب.

جرب أن ينادى مدير الناحية متناسياً سيكار الأصدقاء الكوبيين ولكن لا جواب. جرَّب أن ينادى أمين الشعبة متناسياً شرايينه المتصلبة والوسكى موسع الشرايين ولا جواب. جرب أن ينادى الرجل الغامض ذا النظارتين السوداوين تغطيان العينين ولا جواب.

تقدم. قال: تسرعت بالنداء. اتضحت الآن البيوت بنوافذها الحديدية. تقدم، وقد قست الطرقات تحت قدميه قليلاً. قال: الرمل قليل فوق الإسفلت. ولكنه رأى الحفر الكثيرة فى الطرقات. حفرٌ سببتها الأمطار والسيول، وملأتها الرمال.

تقدم. رأى هياكل الأشجار اليابسة على جانبى الطريق، فقال: لا بد من سقايتها، فلا يجوز ترك الأشجار فى هذه الصحراء دون سقاية.

تقدم. صار فى المدينة، فهتف: يوسف. أين أنت يا يوسف؟ كان يتمنى رداً من واحد من السكان، من بائع متجول، من سائق سيارة يبحث عن زبون، من طفل يركض لشراء بعض المثلجات، ولكن لا جواب..

هتف ثانية بالموسيو غسان.. جرب أن يناديه بالفرنسية. وجرب أن يناديه بالروسية، و.. جرب أن يناديه بالأمريكانية، ولا جواب.

طرق الباب الأول يتحجج بجرعة ماء، ولكن الباب انفتح ولا جواب. تجرأ، فدخل وهو يهتف ويتنحنح ليكتشف أن البيت خال ولا سكان.. ولا أثاث إلا ما أكلته الرمال والريح. بحث عن مصدر ماء ولا ماء..

اندفع من البيت هارباً.. ما الذى يجرى. طرق الباب الثانى، فالثالث. غيَّر الشوارع المتربة المخترقة بالحفر المملوءة بالرمال بشوارع مخترقة بحفر مملوءة بالرمال. ولكن لا جواب ولا مجيب.

وقف فى الساحة. بحث عن سيارة، عن عربة، عن مظهر حياة واحد، ولكن لا أحد.. تساءل: أين هى مدينة البلوك الأكشر. أين هى إذن؟

رأى شارة منصوبة غبراء مسحت أكثر كتاباتها ضربات الرمال وسفعات الشمس. مسحها بكمه، فرأى سهماً، ورأى رقماً، وعرف أن الإشارة تدل إلى الطريق السريع الذى يقود إلى المدن الأخرى التى تعج بالناس.

رفع قميصه فوق رأسه صانعاً منه قبعة، واتجه إلى حيث يدل السهم مشيحاً بعينيه عن هياكل الجمال والقُعُد المنثورة على جانبى الطريق.

روايات الهلال تقدم

يا محمد .. يا صقرى

بقلم

الأديب التركى الكبير

يشار كمال

ترجمة

عبد الحميد فهمى الجمال

تصدر : ١٥ يونيه ٢٠٠٥

كتاب الهلال يقدم

مسيرتى ومصر نحو القرن الحادى والعشرين

بقلم :

د . مصطفى سويف

يصدر : ٥ يونيه ٢٠٠٥

أحـــــدث إصــــــدارات روايـات الـهــــــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن الجنيه
٦٦٥	نوافذ النوافذ	جمال الغيطانى	مايو ٢٠٠٤	٥,٠٠
٦٦٦	صنعاء.. الوجه الآخر	د. إبراهيم اسحاق	يونيه ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٦٧	أيام القبوطى	سهام بيومى	يوليو ٢٠٠٤	٨,٠٠
٦٦٨	ربيع حار	سحر خليفة	أغسطس ٢٠٠٤	٨,٠٠
٦٦٩	الخالدية	محمد البساطى	سبتمبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧٠	الرواية	د. نوال السعداوى	أكتوبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧١	مواعيد الذهاب إلى آخر الزمان	عبده جبير	نوفمبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧٢	قمر على سمرقند	محمد المنسى قنديل	ديسمبر ٢٠٠٤	٨,٠٠
٦٧٣	غواية الإسكندر	محمد جبريل	يناير ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٤	عاشق الحى	يوسف أبو رية	فبراير ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٥	يا قلبى لا تحزن	منال القاضى	مارس ٢٠٠٥	٥,٠٠
٦٧٦	أبقى الباب مفتوحا	فؤاد قنديل	أبريل ٢٠٠٥	٦,٠٠

رقم الإيداع : ٨٣٣٣/٢٠٠٥
I.S.B.N
977-07-1129-2

خيرى الذهبى

● روائى سورى معاصر

● تعرض للواقع السورى المعاصر وتحولاته الاجتماعية والسياسية والفكرية منذ روايته «السفر برلك» حتى «خروج هشام».

● استقر فى ألمانيا ١٩٦٧ حيث تفرغ للإبداع الأدبى وآخر إبداعاته رواية «فخ الأسماء» (٢٠٠٣) والتدريب على الرعب (٢٠٠٤).

● من أهم أعماله الروائية المميزة ثلاثية التحولات وهى: حسيبة (١٩٨٧) فياض (١٩٩٠) و«هشام» (٢٠٠٠) التى أحدثت صدى طيبا عند النقاد.

هذه الرواية

● تدور أحداث هذه الرواية - أساساً - فى البادية السورية، أو «بادية الشام» خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. كانت سوريا تحت الاحتلال الفرنسى، وكانت فرنسا نفسها تحت الاحتلال النازى.

مخرج سينمائى يأتى إلى مدينة «دير الزور» لانجاز فيلم تسجيلى عن هذه «المدينة الميتة»: مدينة الحضارات القديمة والأعمدة المحطمة وبقايا الحجر، فيجد بين يديه ثلاثة سيناريوهات جاهزة، عله أن يختار منها أو يمزج بينها، والبطلة الرئيسة فى السيناريوهات جميعاً هى «فاطمة»: أول امرأة تحدت الاحتلال الفرنسى، وأقسمت ألا تخرج من بيتها حتى يخرج الجنود السنغاليون الذين يمثلون الاحتلال فى مدينتها، ثم هى أيضاً أول امرأة فى تلك المنطقة المحافظة والمغلقة على ذاتها وتقاليدها تطرح الحجاب وتخرج على الناس سافرة، ثم هى، أخيراً، أم المخرج ذاته، وهو - طوال الوقت الذى يقضيه فى قراءة السيناريوهات يراوح بين أحداث التاريخ الذى يقرؤه، من ناحية، والواقع الذى يعيشه، من الناحية الأخرى، ويراوح، كذلك، بين صورة «فاطمة»: أمه التى يذكرها، وصورة «فاطمة» الجسور المتصدية صاحبة التجارب فى العشق والفن الذى اختارته للتعبير عن ذاتها وهو الرسم.

عائلة روايات الهلال

● اذا كنت من هواة قـــراءة الابداع الراقى عربيا وعالميا ، فشارك معنا عائلتنا الابداعية «عائلة روايات الهلال».

● احرص على اقتناء نسختك الشهرية ، أو احرص على الاشتراك فيها تصلك بالبريد المضمون الى عنوانك

● ٥٠ عاما من الابداع المثالى

● تم اختـيـار أعـمـالنا لتكون أفـضل الاصدارات للسنوات الأخيرة بصفة متتالية

● تحـصل رواياتنا على أهم الجـوائز الأدبية. وتتم ترجمتها إلى لغات العالم.

● مـرة أخـرى .. إذا كنت من قــراء الابداع الجيد .. فانضم الى «عـائلة روايات الهلال» .









طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع - ٤ شارع بدوى محرم بك - الاسكندرية .